بلاغة النهج في نهج البلاغة

الدكتور
عباس علي الفحام

دار الرضوان للنشر والتوزيع
www.redwanpublisher.com

بلاغة النهج في نهج البلاغة

الدكتور
عباس علي الفحام

الطبعة الأولى
2014م- 1435هـ

الرضوان للنشر والتوزيع

دار الرضوان للنشر والتوزيع

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ ۖ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَالِمِ الْغَيْبِ
وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾

صدق الله العظيم

بلاغة النهج في نهج البلاغة

المملكة الأردنية الهاشمية
رقم الإيداع لدى دائرة المكتبة الوطنية (4303/ 11/ 2012)

414
الفحام، عباس علي
بلاغة النهج في نهج البلاغة/ عباس علي الفحام .ــ عمان: دار الرضوان للنشر والتوزيع 2012
( ) ص
ر. أ: 2012/11/4303
الواصفات: / البلاغة// الإسلام/

❖ يتحمل المؤلف كامل المسؤولية القانونية عن محتوى مصنفه ولا يعبّر هذا المصنف عن رأي دائرة المكتبة الوطنية أو أي جهة حكومية أخرى

الطبعة الأولى

2014م - 1435هـ

الرضوان للنشر والتوزيع

دار الرضوان للنشر والتوزيع

المملكة الاردنية الهاشمية-عمان- العبدلي
هـاتـف: 36 64 461 6 962+
فـاكس: 35 64 461 6 962+
e-mail:gm@redwanpublisher.com
www.redwanpublisher.com

ردمك ISBN 978-9957-76 -179-0

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا ﴾

صدق الله العظيم

سورة طه/الآية 114

المحتويات

الباب الأول: دراسات موضوعية

الباب الثاني: دراسات أسلوبية ولغوية

المقدمة

الحمد لله كما هو أهله، وأتم السلام على نبي الهدى محمد الأمين وعلى آله الطيبين الطاهرين وصحبه المنتجبين وبعد،

فقد كان ولما يزل نهج البلاغة كتابا جامعا لعلوم العربية، ينتهل منه الأدباء والشعراء ما دلتهم قرائحهم على نكات البلاغة ولطائف البيان، ومثلما هو منهل للمبدعين هو كذلك للشراح والواقفين على نصوصه، متفحصين متأملين تاريخه وبيانه وفصاحته. ومن عجائب هذا السفر الخالد الذي ضم مختلف كلام أمير البيان أمير المؤمنين عليه السلام أنه ما زال بكرا في أسرار بلاغته على الرغم من كثرة دارسيه قديما وحديثا.

ومما يقر العين في هذه السنوات الأخيرة في الجامعات العراقية إقبالها على تشجيع الباحثين لدراسته في الماجستير والدكتوراه، فكان أن تحققت المزيد من المعارف العلمية نتيجة البحث والتأليف حول هذا الكتاب الخالد، وما هذا الجهد المتواضع الذي أضعه بين يدي القاريء إلا نتاج أكاديمي خالص كنت قد وقفته قديما على خدمة كلام أمير المؤمنين عليه السلام، إذ تشرفت بالتخصص في هذا الكتاب في الماجستير والدكتوراه، فضلا عن البحوث الكثيرة التي قدمتها في هذا المجال.

وهذا الكتاب هو مجموعة أبحاث ألقي بعضها في مؤتمرات اختصت بنهج البلاغة، ونشر بعضها الآخر في مجلات علمية محكمة تدور حول (نهج البلاغة) فنا ومضمونا، لذلك ضعت لها عنوانا استل من النهج نفسه فكان (بلاغة النهج في نهج البلاغة)، ولأن البحوث منفصلة الموضوعات عن بعضها بعضا جعلت

لكل بحث منها مقدمة وتمهيدا شأن أي بحث، وصنفتها في بابين على النحو الآتي:

الباب الأول: بعنوان: دراسات موضوعية، وشمل الفصلين الآتيين:

الفصل الأول: صورة النبي (ﷺ).

الفصل الثاني: البصرة في نهج البلاغة.

بينما ضم الباب الثاني (دراسات أسلوبية ولغوية) وشمل الفصول الآتية:

الفصل الأول: أسلوب الإمام علي (ﷺ) في التصريح باسمه والكناية عنه.

الفصل الثاني: فن التقسيم.

الفصل الثالث: وحمل عنوان (دلالة الأبنية النادرة) وهو بحث اشتركت في إنجازه مع صديقي الدكتور ميثم مهدي الحمامي.

ولكل بحث في فصول الكتاب فروعه وتفصيلاته التي حاول البحث فيها إغناء الموضوع، وجعلت في آخر كل فصل خاتمته مستغنيا بذلك عن خاتمة عامة للكتاب، مثلما وضعت في نهاية البحث قائمة بمصادره التي اعتمدت في الاستقاء والأخذ..

ولا ريب في أن لكل بحث مصادره الخاصة به التي دارت بين البلاغة والنقد القديم والحديث فضلا عن مصادر اللغة والتاريخ، فكانت تلك منابع العلم التي ولجت بها إلى النص الثري في نهج البلاغة لمحاولة استجلائه والكشف عن خباياه.

هذا الجهد- إذن- هو توثيق لبحوث اختصت بنهج البلاغة، أرجو من الله تعالى التوفيق في سداد العمل فيه، وألا يكلني إلى نفسي فأضل الطريق، إنه ولي التوفيق، وبه المستعان سبحانه.

عباس علي الفحام

الباب الأول

الدراسات الموضوعية

الباب الأول

الدراسات الموضوعية

الفصل الأول: صورة النبي (ﷺ)

الفصل الثاني: البصرة- مواقف وأحداث-

الفصل الأول
صورة النبي (ﷺ) في نهج البلاغة

المقدمة

المدخل

المبحث الأول: النبي في بيئته الاجتماعية

أولا: أسرته

ثانيا: ابن العم المربي

المبحث الثاني: محمد (ﷺ) النبي

أولا: النبي مع الناس

ثانيا: بعد البعثة

ثالثا: من معجزاته

المبحث الثالث: من صور كمالاته (ﷺ)

أولا: زهده وتواضعه

ثانيا: شجاعته

ثالثا: رحيله

الخاتمة

المصادر

المقدمة

مثل نهج البلاغة- بعد كتاب الله طبعا- الريادة الإبداعية في كثير من الفنون والموضوعات، ولاسيما في التصوير البياني وتوثيق الأحداث التاريخية وما رافق حياة الإمام علي (ﷺ) من تفاصيل معقدة من حروب وفتن. وكان الإمام فيها خير معبر عنها بفن الصورة، ولذا كان نهج البلاغة أقدم وثيقة تاريخية تتناول تلك المرحلة، ولعل من أظهر تلك الوثائق توثيق صورة النبي (ﷺ) في مختلف مراحل حياته الشريفة. ومن هنا جاءت فكرة البحث لتدرس النص العلوي عن النبي (ﷺ) فكان بعنوان (صورة النبي في نهج البلاغة).

ووقعت الدراسة في ثلاثة مباحث، بدئت بمقدمة وتمهيد وانتهت بخاتمة لأهم النتائج، حاولنا فيها استيفاء الصورة النبوية كما أوردها أمير المؤمنين (ﷺ)، والمباحث هي: المبحث الأول: وجاء بعنوان (النبي في بيئته الاجتماعية) ودرس في شطر منه واقع أسرته الشريفة صلى الله عليه وآله، بينما درس في الشطر الآخر صورة النبي بعده (ابن العم المربي).

أما المبحث الثاني فقد حاول أن يلقي الضوء على صورة محمد النبي (ﷺ) من ثلاثة طرق هي: معجزاته وصورة الناس قبل البعثة وعلاقته بذلك، والثالث صورة علاقته بهم صلى الله عليه وآله بعد البعثة.

وتخلل المبحث الثالث من الدراسة تصوير بعض كمالات النبي (ﷺ) كما جاءت في نهج البلاغة، وهي في ثلاث صور على الترتيب: الأولى: تواضعه وزهده، والثانية: شجاعته في حروبه ومواقفه. والثالثة: في تصوير رحيله وبكاء السماء عليه.

وتكمن روعة الدراسة في جدة موضوعها، إذ لم يسبق أن درست الصـورة النبوية على هذا النحو من قبل، لذلك كانت عدة البحث فيها أغلب مصادر التاريخ والحديث النبوي، فضلا عن مصادر البلاغة القديمة والحديثة لما للتصوير من تعبير فني خاص به.

هذا وقد كان أسلوب البحث مبنيا على المزاوجة بين الموضوع والفن في دراسة النص في نهج البلاغة في المباحث كلها، إذ كان لابد من الوقفة البلاغية والفنية عند تفاصيل التصوير، مثلما كان لزاما على البحث أن يشرح أبعاد الصورة وأجزاءها شرحا موضوعيا استند في غالبه على التاريخ، لأن النصوص كما ذكرنا في نهج البلاغة أقدم وثائق تاريخية مثلت مراحل جد هامة من تاريخ الدعوة الإسلامية عن كثب من خلال صورة النبي (ﷺ).

ومن المتفق عليه أن النص في نهج البلاغة عد القمة في التعبير الفني البلاغي، ومن هنا بدت روعة الصورة في بحثنا هذا للتاريخ النبوي مصورا بريشة علي (رضي الله عنه).

وقد حاولنا تحري الدقة في المسارات التاريخية والاستشهاد برواياته، فلم ننسق وراء الغث والسمين منها، بل بقينا في الدراسة ضمن حدود النص في نهج البلاغة وإنما استعنا بالتاريخ لأجل توضيح المعنى أو بيان تفصيل الصورة فيه.لذلك كانت رحلة البحث بالنسبة لدارسيه في غاية الطرافة والجدة لجدة الموضوع ذاته، فلم ندخر وسعا فيه فإن استحكمت أجزاؤه فلله الفضل وإن بان النقص فيه فالكمال لله وحده.

التمهيد

للكلام العربي وثائق ميزت بشكل مبكر سمات الإبداع فيه، منها إلهي تمثلت بمعجزة القرآن الكريم، ومنها بشري تمثل في أحاديث الرسول الأعظم(ﷺ) وما جمع من كلام أمير المؤمنين في (نهج البلاغة).

وتكمن خصيصة هذا الكتاب بطبيعة اختياراته لكلام الإمام علي (ﷺ) من أجناس أدبية مختلفة، قال عنه جامعه الشريف الرضي في كتابه (حقائق التأويل): ((إنه لو كان كلام يلحق بغباره، أو يجري في مضماره - بعد كلام الرسول صلى الله عليه وآله - لكان ذلك كلام أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام، إذ كان منفردا بطريق الفصاحة، لا تزاحمه عليها المناكب، ولا يلحق بعقوه فيها الكادح الجاهد، ومن أراد أن يعلم برهان ما أشرنا إليه من ذلك، فلينعم النظر في كتابنا الذي ألفناه ووسمناه بـ (نهج البلاغة)، وجعلناه يشتمل على مختار جميع الواقع إلينا، من كلام أمير المؤمنين (ﷺ) في جميع الأنحاء والأغراض، والأجناس والأنواع: من خطب وكتب ومواعظ وحكم، وبوبناه أبوابا ثلاثة، لتشتمل على هذه الأقسام مميزة مفصلة، وقد عظم الانتفاع به، وكثر الطالبون له، لعظيم قدر ما ضمنه من عجائب الفصاحة وبدائعها، وشرائف الكلم ونفائسها، وجواهر الفقر وفرائدها)) [1].

(1) حقائق التأويل، الشريف الرضي: 167.

نهج البلاغة- إذن- مدونة تاريخية قديمة لكثير من الأحداث والشخصيات، ولاسيما الشخصية النبوية مدار بحثنا، وكان الأسلوب الأثير للإمام فيها هو التعبير الفني القائم على الصورة ونقل السامع إلى مشاهد بغية التأثير فيه.

وقد حفل كلام علي (ﷺ) في نهج البلاغة بالكثير من صور الرسول (ﷺ)، لم تبن فيها الصورة على أساليب المجاز والبيان فحسب، بل تعدتها إلى الاستعمال الحقيقي للغة بعيدا عن انزياحاتها مع المحافظة على جودة التعبير، في أسلوب لافت بالتعبير بالصورة من طريق لغة الحقيقة، والأمثلة كما ستتضح في البحث كثيرة.

وتكمن روعة الصورة النبوية في نهج البلاغة وعمق تأثيرها سواء من اللغة المباشرة أو غير المباشرة في سببين: الأول: وضوح مضمون الصورة عند علي (ﷺ). والثاني: المؤثرات التعبيرية في لغة علي (ﷺ).

وسنحاول في هذا التمهيد الوقوف عليهما.

الأول: وضوح مضمون الصورة

ليست بنا حاجة للاستشهاد بالتاريخ للقول بأن عليا ربيب النبي وتابعه صغيرا وكبيرا، فذلك أمسى من نافلة الحديث، فعلي الذي لازم ابن عمه النبي لأكثر من ثلاثة وعشرين عاما - وهي المدة التي قضاها مع النبي حتى وفاته صلى الله عليه وآله- هو الأقدر على الإحاطة برسم الصورة الكاملة للرسول (ﷺ)، وتحت أي عنوان كانت، لذلك بدت أولى سمات التصوير التي رسمتها كلمات الإمام (ﷺ) الوضوح، والوضوح يعني من جهة عمق التأثير في السامع، لأن

الإمام في صوره كلها عن ابن عمه (ﷺ) إما مشارك معه في الحدث أو شاهد عليه، إنه لا يرويه عن أحد فتفقد الصورة بريقها، فثمة فارق كبير بين أن تصور مشهدا بعين الآخرين، وبين أن تصوره بتفاعل ذاتك مع الحدث كونك الشاهد فيه[1].

ومن هنا سنجد في طيات البحث أن وضوح المضمون لدى الإمام (ﷺ) مكنه من الوقوف على أجزاء الصورة أحيانا ولملمة تفاصيلها أحيانا أخرى، بإلقاء الضوء على ذلك الجزء أو هذا بغية التركيز على معنى ما فيها. وما كان ذلك ليتم لولا الإحاطة الكاملة بالمشهد وتشرب المعنى ووضوحه ثم القدرة على تمثيله بصورة فنية، وهو ما أطلقنا عليه المؤثرات الفنية.

الثاني: مؤثرات التعبير الفني

لا ريب في أن وضوح الفكرة أفضى إلى القدرة على التعبير عنها بمهارات فنية باستغلال طاقة اللغة البيانية والتصويرية والموسيقية، بعبارة ثانية إسباغ المؤثرات على التعبير وإكسابه مزية الفن، وهو ما تجسد في كلام أمير المؤمنين(ﷺ) عامة في نهج البلاغة، وفي موضوع الصورة النبوية خاصة.

في الصورة النبوية سنجد مؤثرات حركية وموسيقية وأخرى تتعلق باللون، وفي شكل آخر قد يعبر عن المعنى من خلال لغة الحقيقة، إذ الصورة ليست

(1) ظ.اتجاهات النقد الأدبي في القرن الخامس الهجري، منصور عبد الرحمن: 368.

حكرا على المجاز وحده [1]، بل هي إعادة صياغة الموقف بتعبير فني يتم بحسن استثمار طاقة اللغة [2].

ومن المؤثرات التي استعملت في التعبير التصويري، الاستقصاء في رسم الصور، من أجل تمام المعنى واستيفائه.

ولعل من المؤثرات الخفية على السامع هي الإتيان بالصورة النبوية لا لأجلها، بل ليتخذ منها شاهدا يعزز به رأيه عليه السلام أو يقوي به حجته، فيقف عند الصورة طويلا وبعد أن يبلغ التأثير حده يرجع في الكلام إلى الغرض الذي رمى إليه، والأمثلة على ذلك كثيرة، ولاسيما حين يكون الكلام في الموعظة والزهد، أو عن أحقيته بالنبي (ﷺ).

وأمثلة البحث ستتكفل- إن شاء الله تعالى- توضيح ذلك كله.

(1) ظ.الشعر والتجربة، أرشيبالد مكليش: 58، تمهيد في النقد الحديث، روز غريب: 203.
(2) ظ.التصوير الفني في خطب الإمام علي(رضي الله عنه)، عباس الفحام: 31-32.

المبحث الأول

النبي (ﷺ) في بيئته الاجتماعية

أولا: أسرته

في كلام الإمام علي (عليه السلام) عن الرسول (ﷺ) ثمة إمعان في التركيز على طهارة النسب وشرف الآباء، وأنه من سلالة الأنبياء وذريتهم تصديقا لقوله تعالى ﴿ ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ ۗ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾[1]، مثل قوله عليه السلام: ((اختاره من شجرة الأنبياء، و مشكاة الضياء))[2].

فقد وصف الإمام سلالة النبي (ﷺ) وأصوله بالشجرة الكثيرة الأغصان، وهو إنما شبهها بذلك بجامع الأصل الواحد الشجرة الذي يقابله الأب الواحد في سلالة النبي والتي تتفرع عن أغصان كثيرة أي أبناء كثر، وفي كلمة الإمام (اختاره) إيحاء بالاصطفاء والعناية الإلهية لمحمد(ﷺ)، إذ أن الخلق أشجار شتى، ولكن الله تعالى انتقاه من الشجرة الخاصة بالأنبياء، إشارة إلى أن الرسالة الإلهية واحدة الامتداد وإن فصلت ما بينها القرون وفي ذلك كله تعظيم للنبوة والأنبياء، وتعزيز لموقف النبي محمد (ﷺ) في كونه من السلالة نفسها التي تنجب الأنبياء والمرسلين والأولياء الصالحين على مر تاريخ الإنسانية إلى ختام الوحي بمحمد(ﷺ). وفيه- أيضا- إبطال لحجة من ذهب إلى إمكان بعث الأنبياء من غير

(1) آل عمران: 34.

(2) نهج البلاغة، الإمام علي (عليه السلام):1/ 242.

هذه الذرية، كما ذكر ذلك القرآن على لسان الحاسدين للنبي (ﷺ) على نبوته في قوله تعالى: ﴿ وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴾[1].

وفي موضع آخر فصل الإمام في تصوير هذه الشجرة المباركة للنبي (ﷺ) فقال: ((حَتَّى أَفْضَتْ كَرَامَةُ اللَّهِ سُبْحَانَهُ إِلَى مُحَمَّدٍ (ﷺ)، فَأَخْرَجَهُ مِنْ أَفْضَلِ الْمَعَادِنِ مَنْبِتاً، وَأَعَزِّ الْأَرُومَاتِ مَغْرِساً، مِنَ الشَّجَرَةِ الَّتِي صَدَعَ مِنْهَا أَنْبِيَاءَهُ، وَانْتَخَبَ مِنْهَا أُمَنَاءَهُ، عِتْرَتُهُ خَيْرُ الْعِتَرِ، وَأُسْرَتُهُ خَيْرُ الْأُسَرِ وَشَجَرَتُهُ خَيْرُ الشَّجَرِ، نَبَتَتْ فِي حَرَمٍ وَبَسَقَتْ فِي كَرَمٍ، لَهَا فُرُوعٌ طِوَالٌ وَ ثَمَرَةٌ لَا تُنَالُ، فَهُوَ إِمَامُ مَنِ اتَّقَى وَبَصِيرَةُ مَنِ اهْتَدَى.))[2]، وقد جمع الإمام للنبي (ﷺ) في هذا الكلام فضل النبوة وأصل الأرومة، أي الشجرة مشيرا بقوله في أول كلامه إلى ختام عهد النبوة بمحمد (ﷺ) وهذا الإفضاء كأنه سبب إلى أن يكون خلاصة في كل فضيلة لا في النبوة وحدها، فهو كذلك فعلا خلاصة في العقل والكمال والصبر والطهارة والتقوى والقرب من الله تعالى.

وقد جمع الإمام بين النبوة والإمامة في الاصطفاء، فهو حين عمم في قوله ((من أفضل المعادن منبتاً، وَأَعَزِّ الْأَرُومَاتِ مَغْرِساً)) أي نسلا ساميا، عمد إلى التخصيص فقال ((مِنَ الشَّجَرَةِ الَّتِي صَدَعَ مِنْهَا أَنْبِيَاءَهُ، وَانْتَخَبَ مِنْهَا أُمَنَاءَهُ)) وهي شجرة إبراهيم عليه السلام[3].

وأتبعه بالتصريح متدرجا بالأخص فالأخص فبدأ بأهل بيت النبي وآله

(1) الزخرف: 31.

(2) نهج البلاغة، الإمام علي(ﷺ): 1/ 212.

(3) نهج البلاغة، محمد عبدة: 1/ 186.

وهم العترة الطاهرة فقال ((عِتْرَتُهُ خَيْرُ الْعِتَرِ، وَأُسْرَتُهُ خَيْرُ الْأُسَرِ وَشَجَرَتُهُ خَيْرُ الشَّجَرِ)) ويعني بعترته أهل بيته وهم علي وفاطمة وابناهما الحسن والحسين عليهم السلام وأولاد الحسين (ﷺ) من الأئمة المعصومين[1]، وهو لفظ نبوي محفوظ في أذهان المسلمين لكثرة ترداده فيهم[2] على لسان النبي (ﷺ) كما في قوله ((اشتد غضب الله على من أهرق دمي وآذاني في عترتي))[3].

وقوله: ((ألا إن أبرار عترتي وأطايب أرومتي أحلم الناس صغارا وأعلم الناس كبارا))[4] وكقوله: ((إني تارك فيكم أمرين لن تضلوا إن اتبعتموهما وهما كتاب الله وأهل بيتي عترتي))[5] وقوله ((المهدي من عترتي من ولد فاطمة))[6] وكما في حديث الكساء ودعائه (ﷺ) لعترته عليهم السلام[7].

ويبدو أن الإمام (ﷺ) تعمد إعادة ذكر اللفظ ذاته، لأنه بات مصطلحا عليهم وحدهم، وليذكر المسلمين مجددا بعد عهود من تغييبهم.

---

(1) ظ.تفسير القرطبي، القرطبي: 16/ 22، تفسير أبي السعود: 8/ 30، تفسير الآلوسي: 26/ 72.

(2) ظ. مسند أحمد، أحمد بن حنبل: 3/ 28-36، تحف العقول، ابن شعبة: 30،المجازات النبوية، الشريف الرضي: 216،، المراجعات، شرف الدين: 79.

(3) الأمالي، الصدوق: 552، كشف الغمة، الأربلي: 1/ 471، بحار الأنوار، المجلسي: 43/ 15-22، الجامع الصغير، السيوطي: 1/ 158.

(4) الإرشاد، الشيخ المفيد: 1/ 240، المراجعات: 84.

(5) المستدرك، الحاكم النيسابوري: 3/ 110، كنز العمال، المتقي الهندي: 1/ 186.

(6) سنن أبي داوود، السجستاني: 2/ 310.

(7) ظ.المعجم الكبير، الطبراني: 23/ 396، شواهد التنزيل، الحسكاني: 2/ 27.

أما قوله (أسرته خير الأسر) فيعني بها بني هاشم لأنهم أفضل طوائف قريش، وقوله (شجرته خير الشجر) فيقصد بهم قريشا لأن قريشا أفضل طوائف العرب.

وأشار الإمام إلى علو حسب النبي ومنعة نسبه وعزة عشيرته بقوله في وصف الشجرة ((نَبَتَتْ فِي حَرَمٍ وَبَسَقَتْ فِي كَرَمٍ))، والحرم يعني بها العز والمنعة وليس حرم مكة كما ذهب إليه ابن أبي الحديد[1]، و ((لو كانت مراده لقال: في الحرم لا في حرم))[2].

ويفصل الإمام في تصوير أبعاد هذه الشجرة فيقول: ((لَهَا فُرُوعٌ طِوَالٌ وَثَمَر لَا يُنَالُ)) طوال في العلم والعمل والمكانة والفضيلة قال تعالى: ﴿إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ ۝١ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ ۝٢ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ﴾[3].

أما (الثمر الذي لا ينال) فهو كناية عن العلو وأنه ليس متاحا لكل أحد، ذكر ابن أبي الحديد أنه ((يعني به ليس على أن يريد به أنّ ثمرها لا ينتفع به، لأن ذلك ليس بمدح، بل يريد به أنّ ثمرها لا ينال قهرا، و لا يجنى غصبا))[4]، ويبدو أن ابن أبي الحديد ضيق كثيرا من معنى الإمام لأنه ((إنّما ينال قهرا وغصبا من الإنسان لا من الشجر والثمر، والصواب أن يقال: إنّ شرف الشجر بعلوّه حتّى لا ينهب ثمره كلّ من مرّ عليه، والمراد أنّ علوم النبيّ صلى اللّه عليه

(1) ظ. شرح نهج البلاغة، ابن أبي الحديد: 7/ 63.

(2) بهج الصباغة، التستري: 2/ 183.

(3) الكوثر: 1-4.

(4) شرح نهج البلاغة، ابن أبي الحديد: 7/ 63.

وآله و كمالاته ليست عاديّة متعارفة حتّى يدّعي نيابته كلّ أحد))[1].

وغرض الإمام عليه السلام من ذلك ((التعريض بالمتقدّمين عليه بكونهم غير أهل لتصدي مقامه صلى اللّه عليه وآله، لأنّ النائب كالمنوب عنه بقضية العقول، وأين هم من النبيّ صلى اللّه عليه وآله، وإنّما كان أهل بيته مثله، ومّما يوضح كونهم عليهم السلام ثمرة شجرة النبيّ صلى اللّه عليه وآله قوله عليه السّلام لّما بلغه أنّ قريشا احتجّوا في السقيفة لتقدّمهم على الأنصار بكونهم شجرة النبيّ صلى اللّه عليه وآله: احتجّوا بالشجرة وأضاعوا الثمرة))[2].

وربما أراد الإمام من ذكر (الثمر) نفسه عليه السلام وأهل بيته لأنهم ثمرة تلك الشجرة ولا تدرك مساعيهم ولا تحصى مآثرهم، ولا يباريهم أحد.

ومن ذلك كله نجد حرصا في كلام الإمام (ﷺ) على تكرار بعض الألفاظ في رسم هذه الصور مثل لفظة (الشجرة، المغرس، المعادن) التي يعني بها جذور النبي الضاربة في عمق النبوات، وأنها ليست بجديدة عليه حتى يبعث نبيا فقد بعث آباء له من قبل أنبياء ورسل، قال تعالى: ﴿ أَمْ يَحْسُدُونَ ٱلنَّاسَ عَلَىٰ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۖ فَقَدْ ءَاتَيْنَآ ءَالَ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَءَاتَيْنَٰهُم مُّلْكًا عَظِيمًا ﴾[3].

وهي لاشك صورة استمد وحيها من التعبير القرآني في قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ۖ ٱلْمِصْبَاحُ فِى زُجَاجَةٍ ۖ ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّىٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِىٓءُ وَلَوْ لَمْ

---

(1) بهج الصباغة، التستري: 2/ 184.

(2) نفسه.

(3) النساء: 54.

تَمۡسَسۡهُ نَارٞۚ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٖۚ يَهۡدِي ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُۚ وَيَضۡرِبُ ٱللَّهُ ٱلۡأَمۡثَٰلَ لِلنَّاسِۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ ﴾[1].

وفي موضع آخر ذكر الإمام مثل هذه الصورة فقال واصفا الرسول (ﷺ): ((مستقرّه خير مستقرّ، في معادن الكرامة ومماهد السلامة))[2]. مشددا على الفكرة ذاتها في طهارة المعدن وشرف المهاد.

وذكر الإمام تقسيم الله تعالى للخلق في اختيار أطيب الفروع لنبيه فقال: ((كلما نسخ اللّه الخلق فرقتين جعله في خيرهما))[3]، وقال: ((تناسختهم كرائم الأصلاب إلى مطهّرات الأرحام))[4] في دلالة على كمال الفضيلة من جهاتها المختلفة.

ثانيا: ابن العم المربي

في نهج البلاغة ثمة تصوير للنبي (ﷺ) يجسد الأب المربي الذي يجلس ولده في حضنه فيطعمه تارة ويشمه تارة أخرى في صورة حانية، وذلك في معرض كلام الإمام عن فضل قرباه من ابن عمه (ﷺ) في قوله: ((وَقَدْ عَلِمْتُمْ مَوْضِعِي مِنْ رَسُولِ اللَّهِ (ﷺ) بِالْقَرَابَةِ الْقَرِيبَةِ وَالْمَنْزِلَةِ الْخَصِيصَةِ، وَضَعَنِي فِي حَجْرِهِ وَأَنَا وَلِيدٌ يَضُمُّنِي إِلَى صَدْرِهِ، وَيَكْنُفُنِي فِي فِرَاشِهِ وَ يُمِسُّنِي جَسَدَهُ، وَ يُشِمُّنِي عَرْفَهُ، وَكَانَ يَمْضَغُ الشَّيْءَ ثُمَّ يُلْقِمُنِيهِ، وَ مَا وَجَدَ لِي كَذْبَةً فِي قَوْلٍ وَ لَا خَطْلَةً فِي

(1) النور: 35.

(2) نهج البلاغة، الإمام علي (رضي الله عنه): 1/ 215.

(3) نفسه: 2/ 18.

(4) نفسه: 1/ 212.

فِعْلٍ...وَلَقَدْ كُنْتُ أَتَّبِعُهُ اتِّبَاعَ الْفَصِيلِ أَثَرَ أُمِّهِ، يَرْفَعُ لِي فِي كُلِّ يَوْمٍ مِنْ أَخْلَاقِهِ عَلَماً، وَيَأْمُرُنِي بِالِاقْتِدَاءِ بِهِ، وَلَقَدْ كَانَ يُجَاوِرُ فِي كُلِّ سَنَةٍ بِحِرَاءَ، فَأَرَاهُ وَلَا يَرَاهُ غَيْرِي، وَلَمْ يَجْمَعْ بَيْتٌ وَاحِدٌ يَوْمَئِذٍ فِي الْإِسْلَامِ، غَيْرَ رَسُولِ اللَّهِ (ﷺ) وَخَدِيجَةَ وَأَنَا ثَالِثُهُمَا، أَرَى نُورَ الْوَحْيِ وَ الرِّسَالَةِ وَ أَشُمُّ رِيحَ النُّبُوَّةِ))[1].

والخطبة تصور مرحلتين من حياة الإمام علي (رضي الله عنه) مرحلة الطفولة ومرحلة الصبا واليفاعة[2] وكلاهما كان فيهما يتبع النبي (ﷺ) اتباع الفصيل أثر أمه. وفي الأولى ثمة تفصيل دقيق للأبوة الحانية كان فيها الإمام بمثابة الابن للنبي(ﷺ) فقد عاش في هذه المرحلة المبكرة من حياته ثلاث سنين في بيت خديجة (رضي الله عنها)، إذ كان النبي صلّى اللّه عليه و آله و سلم قد أخذ عليّا عليه السلام من أبيه، و هو صغير في سنة أصابت قريشا بقحط شديد، فأخذ حمزة جعفرا وأخذ العباس طالبا ليكفوا أباهم مؤونتهم، وخففّوا عنه ثقلهم، وأخذ هو عقيلا لميله إليه، فقال النبي صلّى اللّه عليه وآله وسلم اخترت من اختار اللّه تعالى لي عليكم: عليّا.

وكان يضعه النبي في حجره[3] - كما يفعل الآباء بأولادهم- يضمه إلى صدره ويضعه في فراشه ويداعبه ويشمه عرفه ويلقمه الطعام في صورة شديدة التأثير والإيحاء بالمودة والقرب.

ورد في خبر ولادة الإمام (رضي الله عنه) في الكعبة: ((ولدت (فاطمة بنت أسد)

(1) نهج البلاغة، الإمام علي (رضي الله عنه): 2/ 113.

(2) ظ.حياة أمير المؤمنين في عهد النبي، إسماعيل الصدر: 41.

(3) ظ.بحار الأنوار، المجلسي: 38/ 224.

عليا عليه السلام و للنبيّ صلّى اللّه عليه وآله وسلم ثلاثـون سـنة، وأحبّـه الـنبي صلّى اللّه عليه و آله و سلم حبّا شديدا و قال لها: اجعلى مهده بقـرب فراشـي، و كان النبي صلّى اللّه عليه وآله وسلم يلي أكثر تربيته، وكـان يطهّـر عليـا عليـه السلام في وقت غسله، ويوجره اللبن عند شربه، ويحرّك مهده عند نومه، ويناغيه في يقظته، ويحمله على صدره، و يقول: هذا أخـي ووليـيّ و ناصـري، وصـفييّ وذخري، وكهفـي، وظهـري، وظهـيري ووصـيي، وزوج كـريمتي، وأمـيني علـى وصـيتي، وخلـيفتي، وكـان يحملـه دائمـا ويطـوف بـه جبـال مكـة و شـعابها وأوديتها))[1].

إنها علاقة يحق للإمام الوقوف عند تفاصيلها وتذكير الناس بها وهل ثمـة شيء أدل عليها من قوله: ((وكان يمضغ الشيء ثم يلقمنيه))أي: يليّنه بفمه، قال ابن أبي الحديد: ((روى الحسين بن زيد بن علي بن الحسين عليه السلام عن أبيه قال: كان النبي صلّى اللّه عليه وآله وسلم يمضـغ اللحمـة والتمـرة حتّـى تلـين، ويجعلها في فم علي عليه السلام وهو صغير في حجره))[2].

وفي المرحلة الثانية من عمره صور الإمام (ﷺ) طبيعة ملازمتـه لابـن عمـه ومربيه، التي دامت ثلاثة وعشرين عاما، وانتهاله من أخلاقه وعلمه ومشاركته له في هموم الرسالة الإلهية وأعبائها، يوحيه تأكيده مجاورته معه في غار حراء للتعبـد وانفراد البيت النبوي بالإسلام الجديد.والإمام يتخذ من تلك الصـور التفصـيلية كلها براهين تبين أحقيتـه بقيـادة الأمـة بعـد الـنبي (ﷺ) وأهليتـه الكاملـة لإدارة

(1) بهج الصباغة، التستري:4/ 137.
(2) شرح نهج البلاغة، ابن أبي الحديد: 13/ 200.

تفاصيلها المعقدة. فقد رسم الإمام (ﷺ) بالكلمات لنفسه مع رسول الله (ﷺ) مشهدا في غاية الروعة والتفصيل لتبيان فضيلته عند الله ورسوله، فأطلق القريبة على القرابة تأكيدا لشدة اللحمة بينهما فهو ((ابن عم النبي صلّى اللّه عليه وآله و سلم لأبويه، و لم يكن في رجال بني هاشم من كان بقربه عليه السلام))[1].

وقيد المنزلة بالخصيصة لموارد اختص بها وحده مع ابن عمه (ﷺ) نحو ((ما كان بينهما من المصاهرة الّتي أفضت إلى النسل الأطهر دون غيره من الأصهار))[2]، وأخر يعجز المقام عن ذكرها كحديث الغدير والنجوى والمنزلة والكساء وآية القربى وسد أبواب المسجد وإعطاء الراية وآية براءة وغيرها.

ولعل من أظهر هذه المنازل الخاصة تزويجه من فاطمة عليها السلام وانحصار نسب رسول الله (ﷺ) بأولاد علي (ﷺ).ذكر أنه لما نزل قوله تعالى: ﴿قُل لَّآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ أَجۡرًا إِلَّا ٱلۡمَوَدَّةَ فِي ٱلۡقُرۡبَىٰ﴾ قالوا: يا رسول اللّه من هؤلاء الّذين وجبت علينا مودّتهم قال: علي و فاطمة و ابناهما))[3].

(1) شرح نهج البلاغة،ابن ميثم البحراني: 4/ 517.

(2) نهج البلاغة، محمد عبده: 2/ 182.

(3) شرح نهج البلاغة،ابن ميثم البحراني: 4/ 517،ظ.بهج الصباغة،التستري:4/ 136.

المبحث الثاني

محمد (ﷺ) النبي

رسم الإمام (ﷺ) في نهج البلاغة صورتين متقابلتين لمحمد (ﷺ) المبعوث نبيا، تمثلت الأولى في صورة الناس وتخبطهم في الضلال، بينما تشكلت الثانية في الصورة الإيجابية لإخراج الناس من الضلال إلى الهداية، وهي على النحو الآتي:

أولا: صورة النبي مع الناس

وفيها أكد الإمام (رضي الله عنه) صورا شتى من الحيرة والتخبط التي اكتنفت حياة الناس قبل بعثة النبي (ﷺ) وفي أوانها برسم تفاصيل دقيقة توضح عظمته صلى الله عليه وآله في قدرته على تغيير واقع الحال المتردي، ومنها:

قال الإمام (رضي الله عنه): ((بَعَثَهُ وَ النَّاسُ ضُلَّالٌ فِي حَيْرَةٍ، وَحَاطِبُونَ فِي فِتْنَةٍ، قَدِ اسْتَهْوَتْهُمُ الْأَهْوَاءُ، وَاسْتَزَلَّتْهُمُ الْكِبْرِيَاءُ، وَاسْتَخَفَّتْهُمُ الْجَاهِلِيَّةُ الْجَهْلَاءُ، حَيَارَى فِي زَلْزَالٍ مِنَ الْأَمْرِ، وَبَلَاءٍ مِنَ الْجَهْلِ، فَبَالَغَ (ﷺ) فِي النَّصِيحَةِ، وَمَضَى عَلَى الطَّرِيقَةِ، وَدَعَا إِلَى الْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ))(1) تلك الحيرة المتمثلة في جهالة الاعتقادات وابتعادها عن المنطق وحدود العقل وبناء السلوك عليها، التي جرت الويلات عليهم لكثرة الاحترابات الداخلية فيما بينهم، فضلا عن عبادة الأصنام وتعدد الآلهة.

وتعبير (ضلال) بصيغة المبالغة يوحي بذلك التخبط كله في السير على غير

(1) نهج البلاغة، الإمام علي (رضي الله عنه):1/ 214.

هدى، مثلما رسمت لفظة (حاطبون) المادية الاستعمال صورة مجازية ثانية لمرادفات الضلال ونتائجه وهي لفظ (الفتنة)، وهي استعارة ((ووجهها كونهم يجمعون في ضلالهم و فتنتهم ما اتّفق من أقوال و أفعال كما يجمع الحاطب، ومنه المثل: حاطب ليل. لمن جمع الغثّ و السمين، والحقّ و الباطل في أقواله))[1]، ومنهم من يرويها (خابطون) والمعنى: أى كانت حركاتهم على غير نظام في ضلال البدع. وقوله: (قد استهوتهم الأهواء) أي جذبتهم الآراء الباطلة إلى مهاوى الهلاك أو إلى نفسها، و(استزلّتهم الكبرياء): أي قادتهم إلى الزلل والخطل عن طريق العدل و اقتفاء آثار الأنبياء في التواضع ونحوه، و(استخفّتهم الجاهليّة الجهلاء) فطارت بهم إلى ما لا ينبغي من الغارات و الفساد في الأرض فكانوا ذوى خفّة وطيش، ولفظ الجهلاء تأكيد للأوّل كما يقال: ليل أليل ووتد واتد[2].

وقوله: (حيارى في زلزال من الأمر و بلاء من الجهل): أي لا يهتدون لجهلهم إلى مصالحهم فهو منشأ اضطراب أمورهم و بلائهم بالغارات وسبى بعضهم بعضا و قتلهم، وفي هذا إشارة إلى ((وجوه الفساد التي يعاني منها العالم عشية بعثة النبي(ﷺ)))[3].

وقوله الأخير: (فَبَالَغَ فِي النَّصِيحَةِ، وَمَضَى عَلَى الطَّرِيقَةِ، وَدَعَا إِلَى

(1) شرح نهج البلاغة، ابن ميثم: 2/ 836.

(2) النهاية في غريب الحديث، ابن الأثير: 2/ 262.

(3) التاريخ وحركة التقدم البشري ونظرة الإسلام، محمد مهدي شمس الدين: 79 وما بعدها، ظ.الصحيح من سيرة النبي، جعفر مرتضى: 2/ 20.

الْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ) امتثال من النبي (ﷺ) لأمر الله تعالى في قوله سبحانه: ﴿ ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِ ﴾[1] فالدعوة بالحكمة والبرهان [2].

ومثله قوله عليه السلام: ((وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّداً صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، ابْتَعَثَهُ وَالنَّاسُ يَضْرِبُونَ فِي غَمْرَةٍ، وَيَمُوجُونَ فِي حَيْرَةٍ، قَدْ قَادَتْهُمْ أَزِمَّةُ الْحَيْنِ، وَ اسْتَغْلَقَتْ عَلَى أَفْئِدَتِهِمْ أَقْفَالُ الرَّيْنِ))[3].

فقوله (يضربون في غمرة) بمعنى يسيرون في جهل و ضلالة [4] - والضرب نوع من السير السريع[5]، والحين الهلاك، وهو كناية عن ((تصرّفاتهم على جهل منهم بما ينبغي لهم من وجوه التصرّف، ويحتمل أن يريد وتسيرون في شدّة وذلك أنّ العرب كانت حينئذ في شدائد من ضيق المعاش والنهب والغارات وسفك الدماء كما قال عليه السّلام فيما قبل: إنّ اللّه بعث محمّدا صلّى اللّه عليه وآله وسلّم نذيرا للعالمين، وأمينا على التنزيل، وأنتم معشر العرب على شرّ دين وفي شرّ دار)) [6]. والرين الذنب على الذنب حتى يسود القلب، وقيل الرين الطبع و الدنس، يقال ران على قلبه ذنبه يرين رينا، أي دنسه ووسخه ((واستغلقت أقفال الرين على قلوبهم تعسر فتحها)) [7]. و(أزمة الحين، أقفال الرين) صور

(1) النحل: 125.

(2) ظ. التبيان، الطوسي: 6/ 439.

(3) نهج البلاغة، الإمام علي (عليه السلام): 2/ 84.

(4) ظ.شرح نهج البلاغة،ابن أبي الحديد: 13/ 119.

(5) ظ.لسان العرب: ضرب.

(6) شرح نهج البلاغة،ابن ميثم: 4/ 219.

(7) شرح نهج البلاغة،ابن أبي الحديد: 13/ 119.

استعارية في غاية الروعة نظرا لتماسك أجزائها، فهو لمّا استعار لفظ (الأزمّة) رشّح بذكر الفعل (قاد) وقصده ((تداعوا للموت و الفناء من كثرة الغارات وشدائد سوء المعاش وظلم بعضهم لبعض، لأنّ الناس إذا لم يكن بينهم نظام عدليّ ولم يجر في أمورهم قانون شرعيّ أسرع فيهم ظلم بعضهم البعض واستلزم ذلك فناؤهم))[1].

كما استعار لفظ (الأقفال) ورشح بذكر (استغلق) ((لغواشي الجهل والهيئات الرديئة المكتسبة من الإقبال على الدنيا، ووجه المشابهة أنّ تلك مانعة للقلب و حاجبة له عن قبول الحقّ و الاهتداء به كما تمنع الأقفال ما يغلق عليه من التصرّف))[2]. ومن روعة هذه الصورة الاستعارية استعمال لفظ (استغلقت) بصيغة استفعل ((لأنّ ذلك الرين كان أخذ في الزيادة ومنتقلا من حال إلى حال فكأنّ فيه معنى الطلب للتمام))[3]. والرين من ألفاظ القرآن الكريم من قوله تعالى: ((كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ))[4].

فتلك أحوال الخلق أوان بعث النبي رسمتها واو الحال في قوله (والناس) التي طالما أعاد الإمام رسمها بصور مختلفة كقوله: ((إِبْتَعَثَهُ لِلنَّاسِ كَافَّةً، رَحْمَةً لِلْعِبَادِ، وَحَيَاةً لِلْبِلادِ، حِينَ امْتَلَأَتِ الأَرْضُ فِتْنَةً، وَ اضْطَرَبَ حَبْلُهَا، وَ عُبِدَ الشَّيْطَانُ فِي أَكْنَافِهَا، وَ اشْتَمَلَ عَدُوُّ اللَّهِ إِبْلِيسُ عَلى عَقَائِدِ أَهْلِهَا، وَالنَّاسُ فِي

(1) شرح نهج البلاغة،ابن ميثم: 4/ 219.

(2) شرح نهج البلاغة،ابن ميثم: 4/ 219.

(3) نفسه.

(4) المطففين: 14.

اخْتِلافٍ، وَ الْعَرَبُ بِشَرِّ الْمَنَازِلِ، مُسْتَضيئُونَ لِلثَّاءَاتِ بَعْضُهُمْ عَلى بَعْضٍ)) [1] مستعملا الفعل المزيد (ابتعثه) ليوحي بشدة رحمة الله تعالى ببعثة النبي (ﷺ) نظرا لحجم ضلال الناس، وفيها فضل قوة من معنى الإرسال وتكثير معنى لا يظهر في اللفظ المجرد (بعث) لأن اللفظ المزيد أدق في الدلالة على المعنى الكثير من اللفظ المجرد [2]. وفي هذه الصورة مزيد من الحركة التي باعثها عدم الاستقرار ومعرفة القصد الواضح.

وصيغة (ابتعث) تتكرر في كثير من أمثلة هذه الصور كقوله: ((إِبْتَعَثَهُ بِالنُّورِ الْمُضيءِ، وَالْبُرْهَانِ الْجَلِيِّ، وَالْمِنْهَاجِ الْبَادي، وَالْكِتَابِ الْهَادي)) [3] وقوله: ((إِبْتَعَثَهُ عَلى حينِ فَتْرَةٍ مِنَ الرُّسُلِ، وَاخْتِلَافٍ مِنَ الْمِلَلِ، وَهَدْأَةٍ مِنَ الْعِلْمِ، وَضَلَالٍ عَنِ الْحَقِّ، وَجَهَالَةٍ بِالرَّبِّ، وَكُفْرٍ بِالْبَعْثِ)) [4]. وكنى عن الدين أو القرآن بالنور المضيء.

وفي صورة أشد تخصيصا بالعرب بين الإمام حجم جهالتهم وبعدهم عن السماء فقال: ((بعثه اللَّه و ليس أحد من العرب يقرأ كتابا و لا يدّعي نبوّة)) [5] والكتاب الذي يعنيه الإمام هنا ((الكتاب السماوي من غير تحريف وتزييف، والمعنى ان العرب قبل البعثة كانوا في جهالة مهلكة، وضلالة مظلمة، لا يهتدون

(1) شرح نهج البلاغة،ابن ميثم: 4/ 219.
(2) ظ.الخصائص، ابن جني: 3/ 115، المثل السائر، ابن الأثير: 2/ 250.
(3) نهج البلاغة، الإمام علي (عليه السلام): 2/ 62.
(4) نفسه:1/ 212.
(5) نفسه:1/ 90.

بكتاب إلهي ولا بسنة نبوية))[1]، وهو من قوله تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾[2].

قال الشيخ محمد جواد مغنية ((والقرآن الكريم أصدق مرجع عن أحوال العرب في الجاهلية، ويأتي من بعده نهج البلاغة حيث لم يكن للقوم كتاب سماوي ولا أرضي.. ونزل الكتاب نجوما أي آنا بعد آن حسب الوقائع والمصالح، ثم جمع في مجلد واحد، و كان الإمام يخطب أو يكتب الرسائل لعماله أو يرسل الحكمة والموعظة حسب المقامات والمناسبات يوم لا تأليف ولا تصنيف عند العرب، ولا شيء إلا كتاب اللّه وسنّة نبيه، وفي أواخر القرن الرابع الهجري جمع الشريف الرضي من آثار الإمام ما في نهج البلاغة))[3].

فالعرب أمة خام لما تفسد عقولهم بعد بالخرافات المبتناة على الادعاءات الدينية كما هو شأن اليهود والنصارى، وهي بعد أمة بعيدة عن جدل الفلسفات اليونانية والإغريقية، لذلك تجدهم شديدي التأثر، سهلي المنال بما يجاورهم من معتقدات، فالقبائل المجاورة للنصارى تبنت المسيحية، والأخرى المجاورة لليهود تأثرت بمعتقدات اليهودية، فضلا عن عبادة الحجر والخشب وغيرها. فكانوا كما

(1) في ظلال نهج البلاغة، مغنية: 1/ 221.
(2) الجمعة: 2.
(3) في ظلال نهج البلاغة، مغنية: 1/ 221.

قال الإمام في ((تَنَازُعٍ مِنَ الْأَلْسُنِ))[1]، ((فكلّ طائفة تجادل مخالفيها بألسنتها لتقودها إلى معتقدها))[2].

وربما كان ذلك سببا في بعث النبي في مثل هذه الأمة نظرا لحجم التأثير المأمول وهو ما جرى فعلا، ففي ظرف قياسي دانت الجزيرة العربية كلها تقريبا بالدين الجديد على الأقل في الظاهر.

وهذا الأمر فصل الإمام فيه الكلام في قوله مشيرا إلى طول المدة الفاصلة بين بعثة النبي ومن سبقه من الأنبياء والرسل: ((أَرْسَلَهُ عَلَى حِينِ فَتْرَةٍ مِنَ الرُّسُلِ، وَطُولِ هَجْعَةٍ مِنَ الْأُمَمِ وَاعْتِزَامٍ مِنَ الْفِتَنِ، وَانْتِشَارٍ مِنَ الْأُمُورِ وَ تَلَظٍّ مِنَ الْحُرُوبِ، وَالدُّنْيَا كَاسِفَةُ النُّورِ ظَاهِرَةُ الْغُرُورِ، عَلَى حِينِ اصْفِرَارٍ مِنْ وَرَقِهَا، وَإِيَاسٍ مِنْ ثَمَرِهَا وَاغْوِرَارٍ مِنْ مَائِهَا، قَدْ دَرَسَتْ مَنَارُ الْهُدَى وَظَهَرَتْ أَعْلَامُ الرَّدَى، فَهِيَ مُتَجَهِّمَةٌ لِأَهْلِهَا عَابِسَةٌ فِي وَجْهِ طَالِبِهَا ثَمَرُهَا الْفِتْنَةُ، وَطَعَامُهَا الْجِيفَةُ وَشِعَارُهَا الْخَوْفُ وَدِثَارُهَا السَّيْفُ))[3].

ولا ريب في أن المراد بالفترة بين الرسل طول انقطاع الوحي والرسالة بينهم، ذلك أنّ الرسل إلى وقت رفع عيسى كانت متواترة و بعد رفعه (ﷺ) انقطع الوحى[4]، فما بين إرسال النبي محمد (ﷺ) وبين المسيح (ﷺ) عهد طويل يمتد لأكثر من خمسمائة سنة، فهي هجعة ونوم طويل كما استعارها الإمام

(1) نهج البلاغة، الإمام علي (ﷺ):1/ 309.
(2) شرح نهج البلاغة،ابن أبي الحديد: 8/ 275.
(3) نهج البلاغة، الإمام علي (ﷺ):1/ 180.
(4) ظ.منهاج البراعة، الخوئي: 6/ 262.

(للأمم) ورشحها بالطول للمناسبة بينهما نظرا ((لانغماسهم في ظلمة الجهالة والضّلالة)) [1].

وصورة هذا المشهد ((تذكيرهم بنعمة اللّه تعالى الّتى نفت ما كانوا فيه من بؤس وهى بعثة الرسول صلى اللّه عليه وآله وسلّم وما استلزمته من الخيرات ليعتبروا فيشكروا و يخلصوا التوجّه إلى اللّه تعالى فأشار أوّلا إلى النعمة المذكورة ثمّ أردفها بالأحوال المذمومة الّتى تبدلّت بتلك النعمة الجسيمة)) [2]، وله أجزاء ينبغي الوقف عندها للتفصيل، فقوله (واعتزام من الفتن) مجاز استعاري (كأنه جعل الفتن معتزمة- أي مريدة مصممة للشغب و الهرج ويروى واعتراض، ويروى واعترام بالراء المهملة من العرام، وهي الشرة، والتلظي التلهب)).

وقوله (كاسفة النور) تشبيها للدنيا بكسوف الشمس وذهاب ضوئها، ثم رسم لها صورة تغير أحوالها وذبولها ((فجعلها كالشجرة التي اصفر ورقها و يبس ثمرها، وأعور ماؤها والإعوار ذهاب الماء فلاة عوراء لا ماء بها)) [3]، ويروى (إغوار) من غار الماء أي ذهب، ومنه قوله تعالى: ﴿ قُلۡ أَرَءَيۡتُمۡ إِنۡ أَصۡبَحَ مَآؤُكُمۡ غَوۡرٗا ﴾ [4].

ولابن ميثم البحراني وقفة تفصيلية لبلاغة هذه الصورة ومعانيها إذ قال: ((استعار لفظ (الثمرة) و(الورق) لمتاعها وزينتها، ولفظ (الاصفرار) لتغيّر تلك

(1) منهاج البراعة، الخوئي: 6/ 263.
(2) شرح نهج البلاغة، ابن ميثم: 2/ 311.
(3) شرح نهج البلاغة، ابن أبي الحديد: 6/ 388.
(4) الملك: 30.

الزينة عن العرب في ذلك الوقت و عدم طلاوة عيشهم وخشونة مطاعمهم، كما يذهب حسن الشجرة باصفرار ورقها فلا يتلذّذ بالنظر إليها، وعنى بالإياس من ثمرها انقطاع آمال العرب من الملك والدولة وما يستلزمه من الحصول على طيّبات الدنيا. وكذلك استعار لفظ الماء لموادّ متاع الدنيا وطرق لذّاتها ولفظ (الاغورار) لعدم تلك الموادّ من ضعف التجارات والمكاسب و عدم التمليك للأمصار وكلّ ذلك لعدم النظام العدليّ بينهم وكلّها استعارات بالكناية. ووجه الاستعارة الأولى أنّ الورق كما أنّه زينة للشجرة وبه كماله، كذلك لذّات الدنيا وحياة الدنيا و زينتها. ووجه الثانية أنّ الثمر كما أنّه مقصود الشجرة غالبا وغايتها، كذلك متاع الدنيا و الانتفاع به هو مقصودها المطلوب منها لأكثر الخلق، ووجه الثالثة أنّ الماء كما أنّه مادّة الشجر وبه حياتها و قيامها في الوجود كذلك مولود تلك اللذّات هى المكاسب والتجارات والصناعات، وقد كانت العرب خالية من ذلك))[1]، وكثيرا ما يقف البحراني على مثل هذا التفصيل في إجادة بلاغية لافتة. وقوله: (متجهمة لأهلها) كالحة في وجوههم تعزيز لوصف الكسوف.

ثم قال (ثمرها الفتنة أي نتيجتها وما يتولد عنها، و طعامها الجيفة) يعني الأكل الخبيث على وجه الاستعارة. وقوله الأخير (وَشِعَارُهَا الْخَوْفُ وَدِثَارُهَا السَّيْفُ) ((من بديع الكلام ومن جيد الصناعة، لأنه لما كان الخوف يتقدم السيف والسيف يتلوه، جعل الخوف شعارا لأنه الأقرب إلى الجسد، وجعل الدثار تاليا له)) [2].

(1) شرح نهج البلاغة، ابن ميثم: 2/ 312.

(2) شرح نهج البلاغة، ابن أبي الحديد: 6/ 389.

وفي تعبير آخر عن ابتعاد الناس عن الدين قال: ((أَرْسَلَهُ وَأَعْلَامُ الْهُدَى دَارِسَةٌ وَ مَنَاهِجُ الدِّينِ طَامِسَةٌ فَصَدَعَ بِالْحَقِّ- وَنَصَحَ لِلْخَلْقِ وَهَدَى إِلَى الرُّشْدِ وَأَمَرَ بِالْقَصْدِ- صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ))(1). اختصر الإمام سواد الصورة للحياة السوية بواو الحال حين وصف (أعلام الهدى) و(مناهج الدين) بالدرس والطمس اللتين يدركهما العربي جيدا في ثقافته وحياته المتنقلة. وهو من باب المجاز العقلي الذي يراد به المبالغة في التأثير لأن دارسة وطامسة يراد بها صيغ المفعول أي مدروسة ممحوة.

وقوله (فصدع بالحق) مأخوذ من قوله تعالى﴿ فَٱصۡدَعۡ بِمَا تُؤۡمَرُ ﴾(2). وقوله (هدى إلى الرشد) استيحاء من قوله تعالى: ﴿قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّ ﴾(3).

وفي هذه الصورة نلحظ تنغيمات سجعية مختلفة الألوان عالية الجرس مثل (دارسة وطامسة) و(الحق والخلق) و(الرشد والقصد) أكسبت الكلام مزيدا من التأثير في المسامع.

وقال عليه السلام من خطبة له وصف به النبي (ﷺ)، خطبها بذي قار(4) وهو متوجّه إلى البصرة لقتال الناكثين: ((فَصَدَعَ بِمَا أُمِرَ بِهِ وَ بَلَّغَ رِسَالَاتِ رَبِّهِ،

(1) نهج البلاغة، الإمام علي (عليه السلام):1/ 452.

(2) الحجر: 94.

(3) البقرة: 256.

(4) ذو قار ماء لبكر بن وائل قريب من الكوفة بينها و بين واسط، و فيه كانت الواقعة المشهورة بينهم و بين الفرس، وكسرت الفرس كسرة هائلة، و كانت الواقعة يوم ولادة النبيّ صلى اللّه عليه وآله. وقيل: عند منصرفه من بدر الكبرى.ظ. معجم البلدان، الحموي:

فَلَمَّ اللَّهُ بِهِ الصَّدْعَ وَ رَتَقَ بِهِ الْفَتْقَ، وَ أَلَّفَ بِـهِ الشَّـمْلَ بَـيْنَ ذَوِي الْأَرْحَـامِ، بَعْـدَ الْعَدَاوَةِ الْوَاغِرَةِ فِي الصُّدُورِ وَ الضَّغَائِنِ الْقَادِحَةِ فِي الْقُلُوبِ))[1].

ويعني بالصدع الأولى الجهر والثانية الشق وهو من باب المشاكلة في اللفـظ الذي زاد الكلام رونقا وعفوية، وقوله هذا أومأ به- علـى المعنـى الأخـص- إلى أبناء قيلة من الأوس والخزرج وإلى العرب عامة، لذلك وصفهم بذوي الأرحام، قال الطبري: ((كان النبيّ صلى اللّه عليه وآله وسلم يعـرض نفسـه علـى قبائـل العرب في الموسم، فلقي رهطا من الخزرج، فقال: ألا تجلسـون أحـدّثكم. قـالوا: بلى. فجلسوا إليه، فدعاهم إلى اللّه تعالى، وتـلا علـيهم القـرآن، فقـال بعضـهم لبعض: يا قوم تعلموا، واللّه إنّه النبي الّذي كان يعدكم به اليهود، فـلا يسـبقنّكم إليه أحد. فأجابوه، وقالوا له: إنّا تركنا قومنا ولا قوم بينهم مـن العـداوة والشـرّ مثل ما بينهم، وعسى أن يجمع اللّه بينهم بك، فتقدم عليهم، وتدعوهم إلى أمرك. وكانوا ستّة نفر، فلمّا قدموا المدينة فأخبروا قومهم بـالخبر، فمـا دار حـول إلّـا و فيها حديث النبيّ صلى اللّه عليه وآله وسلم...)) [2].

وما فتيء الإمام قادرا على الرسـم بالكلمـات مسـتغلا طاقاتهـا التعبيريـة والتنغيمية، نلحظه في الاستعمالات المجازية الكثيرة في الصور السابقة كلها.

ثانيا: بعد البعثة

وفيها رسم الإمام صورا مقابلة للصور الأول بعضـها ذكـر فيهـا صـفات

---

(1) نهج البلاغة، الإمام علي (ﷺ):2/ 59.

(2) تاريخ الطبري، الطبري: 2/ 86، ظ.الكامل، ابن الأثير: 2/ 96.

النبي المرتبطة بمفهوم النبوة وبعضها الآخر رسم الوظيفة النبوية التي رفعت من شأن العرب كثيرا بين الأمم وغيرت من حالهم إلى الأحسن.

ومن الأولى قوله: ((أَمِينُ وَحْيِهِ وَخَاتَمُ رُسُلِهِ، وَبَشِيرُ رَحْمَتِهِ وَنَذِيرُ نِقْمَتِهِ))[1] فهذه ألفاظ اختص بها النبي وحده بعد بعثه وهي من ألفاظ القرآن الكريم، فقوله (أمين وحيه) من قوله تعالى: ﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ﴿٣﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ﴾[2]، وهي مثل قوله في موضع آخر في النبي: ((أمين اللّه المأمون وشهيده يوم الدين))[3] والأخير من قوله تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾[4].

أما قوله (خاتم رسله) فهي من قوله سبحانه: ﴿ وَلَٰكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ ﴾[5]، و(بشير رحمته) من قوله تعالى: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴾[6].

وفي تعداد آخر لصفات النبي قال عليه السلام: ((وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّداً عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ وَ نَجِيبُهُ وَ صَفْوَتُهُ))[7]، وهي استيحاء من قوله تعالى في النبي: ﴿ اللَّهُ

(1) نهج البلاغة، الإمام علي (عليه السلام):1/ 410.

(2) النجم: 3.

(3) نهج البلاغة، الإمام علي (عليه السلام):1/ 238.

(4) البقرة: 143.

(5) الأحزاب: 40.

(6) الأنبياء: 107.

(7) نهج البلاغة، الإمام علي (عليه السلام):1/ 345.

﴿أَعۡلَمُ حَيۡثُ يَجۡعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾[1]. والإمام قدم العبودية على الرسالة ((لأنّه لولاها لما حصلت الرسالة))[2].

وأكد الإمام المنبع الإلهي لتسلسل الرسل فقال: ((قفّى به الرسل، وختم به الوحي))[3] مشيرا إلى نهاية بعث الأنبياء بمحمد (ﷺ) وختام الوحي. وهي صورة صورة استعارها من قوله تعالى: ﴿ثُمَّ قَفَّيۡنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِرُسُلِنَا﴾[4].

ومن الصفات النبوية الأخر قوله عليه السلام: ((وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّداً عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ الْمُجْتَبَى مِنْ خَلَائِقِهِ، وَالْمُعْتَامُ لِشَرْحِ حَقَائِقِهِ وَالْمُخْتَصُّ بِعَقَائِلِ كَرَامَاتِهِ، وَالْمُصْطَفَى لِكَرَائِمِ رِسَالَاتِهِ))[5].

والمجتبى هو المصطفى المختار من الله سبحانه من بين خلائقه من الأولين والآخرين، وهي من قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِن ذُرِّيَّةِ ءَادَمَ وَمِمَّنۡ حَمَلۡنَا مَعَ نُوحٖ وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡرَٰٓءِيلَ وَمِمَّنۡ هَدَيۡنَا وَٱجۡتَبَيۡنَآ﴾[6]، والمعتام هو المختار بحب[7]، ويعني بشرح الحقائق حقائق الدين بمطلق أصوله وفروعه[8]، والأمم السابقة وأحوالها وعلى حد تعبير ابن أبي الحديد ((شرح حقائق توحيده

(1) الأنعام: 124.

(2) بهج الصباغة، التستري: 2/ 219.

(3) نهج البلاغة، الإمام علي (عليه السلام):1/ 309.

(4) الحديد: 27.

(5) نهج البلاغة، الإمام علي (عليه السلام):2/ 98.

(6) مريم: 58.

(7) ظ.لسان العرب، ابن منظور: عيم.

(8) بهج الصباغة، التستري: 2/ 232.

وعدله، ومعنى حقائق توحيده الأمور المحقّقة اليقينية الّتي لا تعتريها الشكوك، ولا تتخالجها الشبه))[1] وقد دل النبي على طرق استنباطها ((بواسطة أمير المؤمنين عليه السّلام، لأنّه إمام المتكلّمين الّذي لم يعرف علم الكلام من أحد قبله))[2]. والحق إن حقائق التوحيد ليست مقصورة على التوحيد والعدل بل تشمل المعاد والإمامة أيضا.

وعقائل الكرامات التي اختص بها النبي تعظيم للصورة النبوية إذ أسند إليه أنفس الكرامات، مثل الإسراء والمعراج وختام الوحي والنبوة وطائفة واسعة من الكرامات حفظها له (ﷺ) القرآن الكريم نحو قوله تعالى: ﴿ أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ﴿١﴾ وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِىٓ أَنقَضَ ظَهْرَكَ ﴿٣﴾ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ﴾[3]، وقوله سبحانه ﴿ وَٱلضُّحَىٰ ﴿١﴾ وَٱلَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ﴿٢﴾ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ﴿٣﴾ وَلَلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ ٱلْأُولَىٰ ﴿٤﴾ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰٓ ﴿٥﴾ أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَـَٔاوَىٰ ﴿٦﴾ وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ ﴿٧﴾ وَوَجَدَكَ عَآئِلًا فَأَغْنَىٰ ﴿٨﴾ فَأَمَّا ٱلْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ﴿٩﴾ وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنْهَرْ ﴿١٠﴾ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴾[4]. و قال عزّ اسمه: ﴿ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ ... ﴾[5] و قال سبحانه: ﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ﴿٣﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ﴾[6]، ومن نفائس الكرامات ((جعل عزّ

(1) شرح نهج البلاغة، ابن أبي الحديد: 10/ 60.

(2) المصدر نفسه والصفحة.

(3) الشرح: 1-4.

(4) الضحى: 1-9.

(5) الإسراء: 1.

(6) النجم: 3-4.

عزّ وجلّ ذكره صلى اللّه عليه وآله مقرونا بذكره في كلّ يوم خمس مرّات على المنائر، وجعل الشهادة برسالته موصولة بالشّهادة بتوحيده جلّ و علا على المنائر)) [1].

وقوله ((المصطفى))لقب للنبي (ﷺ) غالب عليه، استوحي من قوله تعالى ﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ﴾[2]. وقد ذكر الإمام لقب (المصطفى) في غير موضع من ذكره للنبي(ﷺ) نحو قوله: ((أرسله بالضياء، وقدّمه في الاصطفاء)) [3]، فالاصطفاء هو الاختيار، والأنبياء و إن كان اختيار الله تعالى لهم اصطفاء كما ذكر سبحانه ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمْرَٰنَ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾[4]، إلّا أنّه صلى اللّه عليه وآله كان مقدّما عليهم حتّى صار المصطفى علما له.

وقوله (أرسله بالضياء) أي: بالقرآن، قال تعالى: ﴿ كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ﴾[5].

أما الصور الأخر المقابلة التي رسمت الوظيفة النبوية وما أحدثت من تغيير فعلي وصل حد الإعجاز من توحيد القبائل العربية ولم الصف ونقل المعرفة ومحاربة الجهل فقد مثلته طائفة واسعة من الصور الفنية، مثل قوله: ((أَضَاءَتْ بِهِ

(1) بهج الصباغة، التستري: 2/ 235.
(2) فاطر: 32.
(3) نهج البلاغة، الإمام علي (ع):2/ 17.
(4) آل عمران: 33.
(5) إبراهيم: 1.

الْبِلَادُ بَعْدَ الضَّلَالَةِ الْمُظْلِمَةِ وَالْجَهَالَةِ الْغَالِبَةِ وَ الْجَفْوَةِ الْجَافِيَةِ))[1]، وهذه صورة اختصرت سنوات طوال من نضال النبي وصبره حتى مكنه الله من بسط الفكر التوحيدي الجديد وتشريع قوانين العدالة السماوية الجديدة التي أنارت العقل وبسطت النفوذ ووحدت الكلمة.

والإمام اكتفى بقوله (أضاءت به البلاد) مقابل إطنابه بالصور الثلاث اللاحقة، لأن مراده بيان الحال لما بعد البعثة النبوية وأثر النبي (ﷺ) في استجلاب الخير للعرب خاصة، لذلك أشار إلى بعض الصفات الجاهلية الغالبة عليهم التي قضى عليها النبي (ﷺ) فوصف الضلالة بالمظلمة كناية عن المبالغة في عدم الاهتداء، وقال (الجفوة الجافية) لأن في طباعهم كانت غلظة وشناعة مثل وأد البنات وفعل السبي والنهب في الناس[2]. ووصف الجهالة بالغالبة نظرا لخفة العقول وإشعال الحروب وسفك الدماء لأتفه الأسباب كما في حرب البسوس وحرب داحس والغبراء المشهورتين في الجاهلية.

والصفات التي أطنب بها الإمام في إطلاقها على الموصوفات للمبالغة ومراعاة السياق، إذ هو لما قال (أضاءت) حسن إيراد صفة الظلام على الضلالة، ووصف الجهالة بالغالبة للإشعار بهذه الصفة السائدة في عقول الناس قبل بعثة النبي (ﷺ)، وإطلاق لفظ الجافية على المصدر للمبالغة من باب المجاز العقلي كما يقال جن جنونه.

---

(1) نهج البلاغة، الإمام علي (رضي الله عنه):1/ 345.

(2) ظ.منهاج البراعة، الخوئي: 9/ 160.

وفي موضع آخر رسم الإمام للنبي صورة مشرقة للتغيير فقال: ((جَعَلَهُ اللَّهُ سُبْحَانَهُ بَلَاغاً لِرِسَالَتِهِ وَ كَرَامَةً لِأُمَّتِهِ، وَرَبِيعاً لِأَهْلِ زَمَانِهِ وَرِفْعَةً لِأَعْوَانِهِ وَشَرَفاً لِأَنْصَارِهِ)) [1]. فوصف رسالة النبي بالبلاغ إشارة لإتمام النعمة على الناس ولطف الله بالبرية ((وأمّا باقي رسله، وإن أدّوا ما عليهم من الإبلاغ، إلّا أنّه لمّا كانت رسالاتهم مؤقّتة محدودة لم يحصل منهم بلاغ منه تعالى كاف)) [2].

وجعل ختام النبوة بمحمد كرامة للعرب كونه منهم واختتام الأديان بالإسلام فبعد أن كانوا قبائل متناحرة في تخوم الصحراء كرمهم الله فأصبحوا سادة العالم والحاملين إليه لواء التوحيد. وجعله الله (ربيعا لأهل زمانه) صورة للنماء والخيرات والبركات حتى لغير المؤمنين في عاطفة من المديح الصادق تطابق فيه الأداء مع المضمون أيما تطابق، تطابق يستشعر فارقه كل دارس لأدب مديح السلاطين حين تسبغ مثل هذه الصفات على غير مستحقيها. وقول الإمام هذا يشبه قول أبيه رضوان الله عليه من قبل في النبي [3]:

و أبيض يستسقى الغمام بوجهه   ربيع اليتامي عصمة للأرامل

وقوله [4]:

و تلقوا ربيع الأبطحين محمّدا   على ربوة في رأس عنقاء عيطل

(1) نهج البلاغة، الإمام علي (ﷺ):1/ 464.

(2) بهج الصباغة، التستري: 2/ 256.

(3) الحجة على الذاهب إلى تكفير أبي طالب، فخار بن معد: 304، إيمان أبي طالب، الشيخ المفيد: 21.

(4) الحجة على الذاهب إلى تكفير أبي طالب، فخار بن معد: 219.

وقوله الأخير إشارة إلى ما خلف النبي فيهم من فهم جديد في النظر إلى الحياة ووظيفة الإنسان فيها رفع من مكانتهم بين الأمم، قال أبو ذر: ((تركنا النبيّ صلى اللّه عليه وآله وما يحرك طائر جناحيه في السماء إلّا ذكرنا منه علما))[1].

وقال في موضع آخر: ((فَرَتَقَ بِهِ الْمَفَاتِقَ وَسَاوَرَ بِهِ الْمُغَالِبَ، وَذَلَّلَ بِهِ الصُّعُوبَةَ وَسَهَّلَ بِهِ الْحُزُونَةَ، حَتَّى سَرَّحَ الضَّلَالَ عَنْ يَمِينٍ وَشِمَالٍ))[2]. والمفاتق التي رتقها النبي كناية عامة عن كل مفسدة أصلحها النبي[3] وكل سيئة وفعل من شأنه سفك الدم وفرقة الكلمة وهد الصف. والمفاتق جمع مفتق وهي الشقوق.

ويبدو من سياق الربط بين الفعل رتق ومفعوله المفاتق أن المراد به غير الظاهر من اسم الفاعل (المفاتق) بضم الميم المقابل في الصورة الثانية للمغالب، وثمة معنى فارق بينهما، إذ الصورة تريد الجمع لا اسم الفاعل وإن كان يوهمه الصورة الثانية. بقرينة المغالب. وأراد من المساورة ((المواثبة أي كسر به صلى الله عليه وآله سورة من أراد الطغيان))[4].

ورد في سيرة النبي أنه ((لما ولد رسول الله (ﷺ) فوقع إلى الأرض، وقع على يديه رافعا رأسه إلى السماء، وقبض قبضة من التراب بيده فبلغ ذلك رجلا

(1) مسند أحمد، أحمد بن حنبل: 5/ 154، الاستيعاب، ابن عبد البر: 4/ 1656.

(2) نهج البلاغة، الإمام علي (ؑ):2/ 17.

(3) ظ.شرح نهج البلاغة،ابن أبي الحديد: 11م63.

(4) بحار الأنوار، المجلسي: 18/ 225.

من لهب فقال لصاحب له: أنجه لئن صدق الفأل ليغلبن هذا المولود أهل الأرض))[1].

وقوله (ذلّل به الصعوبة) كناية عن التسهيل والتخفيف. وقوله (سهّل به الحزونة) تعزيز لمعنى الأولى، و الحزونة: ضدّ السهولة، والحزن هي ما غلظ من الأرض وخشن.واستعير لوصف الأخلاق الخشنة، وكلام الإمام يحمل معنيين: عام كنى به عن المعنى الأول ذاته في توخي التليين والتخفيف في التعامل اليومي، وخاص أومأ به إلى حادثة أفاد منها للانطلاق إلى المعنى العام. ورد في كتاب (النهاية) عن سعيد بن المسيب[2]: ((أن النبي صلى الله عليه وسلم أراد أن يغير اسم جده حزن ويسميه سهلا، فأبى وقال: لا أغير اسما سماني به أبي، قال سعيد: فما زالت فينا تلك الحزونة بعد))[3].

ولا ريب تلك نظرة جديدة إلى بناء الإنسان في ظل مفهوم المدنية وحياة اللاعنف التفت إليها النبي في أدق تفاصيلها. لذلك سرح الله به الضلال سريعا، وأكد تشتيته بقوله (عن يمين وشمال).

وكلام الإمام كثير في تصوير أحوال العباد والبلاد بعد التغيير النبوي يعجز التفصيل إيفاءه حقه لذلك كثيرا ما يعمد الإمام إلى التكنية عنه بصور مختصرة تدع الأذهان تذهب فيه كل المذاهب في تصوره كقوله: ((... حَتَّى تَمَّتْ

(1) الطبقات الكبرى، محمد بن سعد: 1/ 150.

(2) ظ.ترجمته في معجم رجال الحديث، الخوئي: 9/ 139، رجال ابن داوود، ابن داوود: 114.

(3) النهاية في غريب الحديث، ابن الأثير: 1/ 380، ظ.الاستيعاب، ابن عبد البر:1/ 401

بِنَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ ص حُجَّتُهُ، وَبَلَغَ الْمَقْطَعَ عُذْرُهُ وَنُذُرُهُ))[1]. ومقطع الشيء نهايته وما يقطع به ولا يبقى خلفه شيء[2]. أي ليس ثمة رسول ينتظر بعد النبي محمد لأنه تمت الحجة به على العباد وبلغ الأمر مقطعه ((وانتهت عذر الله تعالى ونذره، فعذره ما بين للمكلفين من الاعذار في عقوبته لهم إن عصوه، ونذره ما أنذرهم به من الحوادث، ومن أنذرهم على لسانه من الرسل))[3].

ثالثا: من معجزاته

ذكر الإمام في نهج البلاغة للنبي (ﷺ) حادثة قلع الشجرة وائتمارها بأمره في محاولة لإقناع قريش برسالته (ﷺ)، وذكرها بصفته شاهدا حاضرا في هذه المعجزة فقال: ((وَ لَقَدْ كُنْتُ مَعَهُ ص لَمَّا أَتَاهُ الْمَلَأُ مِنْ قُرَيْشٍ، فَقَالُوا لَهُ: يَا مُحَمَّدُ إِنَّكَ قَدِ ادَّعَيْتَ عَظِيماً، لَمْ يَدَّعِهِ آبَاؤُكَ وَلَا أَحَدٌ مِنْ بَيْتِكَ، وَنَحْنُ نَسْأَلُكَ أَمْراً إِنْ أَجَبْتَنَا إِلَيْهِ وَأَرَيْتَنَا، عَلِمْنَا أَنَّكَ نَبِيٌّ وَرَسُولٌ، وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ عَلِمْنَا أَنَّكَ سَاحِرٌ كَذَّابٌ. فَقَالَ (ﷺ): وَمَا تَسْأَلُونَ. قَالُوا: تَدْعُو لَنَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ حَتَّى تَقْلِعَ بِعُرُوقِهَا، وَتَقِفَ بَيْنَ يَدَيْكَ. فَقَالَ (ﷺ): إِنَّ اللَّهَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ فَإِنْ فَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ ذَلِكَ أَتُؤْمِنُونَ وَتَشْهَدُونَ بِالْحَقِّ. قَالُوا: نَعَمْ. قَالَ: فَإِنِّي سَأُرِيكُمْ مَا تَطْلُبُونَ، وَ إِنِّي لَأَعْلَمُ أَنَّكُمْ لَا تَفِيئُونَ إِلَى خَيْرٍ. وَ أَنَّ فِيكُمْ مَنْ يُطْرَحُ فِي الْقَلِيبِ وَمَنْ يُحَزِّبُ الْأَحْزَابَ. ثُمَّ قَالَ (ﷺ): يَا أَيَّتُهَا الشَّجَرَةُ، إِنْ كُنْتِ تُؤْمِنِينَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ

(1) نهج البلاغة، الإمام علي (رضي الله عنه):1/ 201.

(2) لسان العرب، ابن منظور: قطع.

(3) شرح نهج البلاغة، ابن أبي الحديد: 7/ 7.

الْآخِرِ، وَتَعْلَمِينَ أَنِّي رَسُولُ اللَّهِ فَانْقَلِعِي بِعُرُوقِكِ، حَتَّى تَقِفِي بَيْنَ يَدَيَّ بِإِذْنِ اللَّهِ، وَالَّذِي بَعَثَهُ بِالْحَقِّ لَانْقَلَعَتْ بِعُرُوقِهَا، وَجَاءَتْ وَ لَهَا دَوِيٌّ شَدِيدٌ، وَقَصْفٌ كَقَصْفِ أَجْنِحَةِ الطَّيْرِ، حَتَّى وَقَفَتْ بَيْنَ يَدَيْ رَسُولِ اللَّهِ(ﷺ) مُرَفْرِفَةً وَأَلْقَتْ بِغُصْنِهَا الْأَعْلَى عَلَى رَسُولِ اللَّهِ (ﷺ)، وَبِبَعْضِ أَغْصَانِهَا عَلَى مَنْكِبِي وَكُنْتُ عَنْ يَمِينِهِ (ﷺ). فَلَمَّا نَظَرَ الْقَوْمُ إِلَى ذَلِكَ قَالُوا عُلُوّاً وَ اسْتِكْبَاراً: فَمُرْهَا فَلْيَأْتِكَ نِصْفُهَا وَيَبْقَى نِصْفُهَا، فَأَمَرَهَا فَأَقْبَلَ إِلَيْهِ نِصْفُهَا، كَأَعْجَبِ إِقْبَالٍ وَأَشَدِّهِ دَوِيّاً، فَكَادَتْ تَلْتَفُّ بِرَسُولِ اللَّهِ (ﷺ). فَقَالُوا كُفْراً وَعُتُوّاً: فَمُرْ هَذَا النِّصْفَ، فَلْيَرْجِعْ إِلَى نِصْفِهِ كَمَا كَانَ. فَأَمَرَهُ (ﷺ) فَرَجَعَ، فَقُلْتُ أَنَا: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ فَإِنِّي أَوَّلُ مُؤْمِنٍ بِكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَأَوَّلُ مَنْ أَقَرَّ بِأَنَّ الشَّجَرَةَ فَعَلَتْ مَا فَعَلَتْ بِأَمْرِ اللَّهِ تَعَالَى تَصْدِيقاً بِنُبُوَّتِكَ وَإِجْلَالًا لِكَلِمَتِكَ. فَقَالَ الْقَوْمُ كُلُّهُمْ: بَلْ ساحِرٌ كَذَّابٌ عَجِيبُ السِّحْرِ خَفِيفٌ فِيهِ، وَ هَلْ يُصَدِّقُكَ فِي أَمْرِكَ إِلَّا مِثْلُ هَذَا يَعْنُونَنِي.))(1).

ذكر الإمام هذه المعجزة للنبي الأعظم (ﷺ) وغرضه التذكير بمنزلته الخصيصة من الرسول الأعظم وشهادته بمعجزاته وتصديقه لنبوته فكرا وعملا وفي الوقت ذاته تحذير لمن يذكر لهم هذه الحادثة من التمادي في الغي والعتو في الإعراض عن وصايا رسول الله.

وقصة قلع الشجرة وسجودها بين يدي رسول الله ذكرتها مصادر عدة غير

(1) نهج البلاغة، الإمام علي (ﷺ): 2/ 114.

نهج البلاغة[1] بهذا التفصيل، إلا أن منهم من رواها بشكل مقتضب مع الاتفاق على أصل المعجزة[2].

ولكن روعة تصوير الإمام لتفاصيل هذه الحادثة ينبع من كونه شاهدا فيها، فضلا عن قدرته التصويرية البلاغية في أسلوب عرضها.

فالإمام عرض هذه الحادثة بمشهد يضم ثلاث صور يجمعها جامع واحد:

الصورة الأولى: رسمت تحدي النبي لهم في إصرارهم وبقائهم على الكفر برسالته، وذلك في قوله متيقنا بأسلوب التوكيد (فَإِنِّي سَأُرِيكُمْ مَا تَطْلُبُونَ، وَ إِنِّي لَأَعْلَمُ أَنَّكُمْ لَا تَفِيئُونَ إِلَى خَيْرٍ).

الصورة الثانية: الإمعان في التفصيل بأمر الشجرة وأغصانها وأمرها بالسجود. فأول الأمر انقلاع الشجرة بعروقها، والثاني أمرها بانشقاقها إلى نصفين ومجيء نصف منها إلى الرسول (ﷺ)، وبقاء النصف الآخر، والثالث أمرها بالالتحام كما كانت.

الصورة الثالثة: المؤثرات، واعني بها حرص الإمام على تصوير التفاصيل الدقيقة والمؤثرة للشجرة من حركة وصوت، مثل قوله (وَالَّذِي بَعَثَهُ بِالْحَقِّ لَانْقَلَعَتْ بِعُرُوقِهَا، وَجَاءَتْ وَلَهَا دَوِيٌّ شَدِيدٌ، وَقَصْفٌ كَقَصْفِ

(1) ظ.مناقب آل أبي طالب، ابن شهرآشوب: 1/ 112، إعلام الورى بأعلام الهدى، الطبرسي: 1/ 74، ينابيع المودة لذوي القربى، القندوزي: 1/ 210، كشف الغمة، الأربلي: 1/ 24، بحار الأنوار، المجلسي: 14/ 476.

(2) ظ.سنن الدارمي، الدارمي: 1/ 10، مجمع الزوائد، الهيثمي: 8/ 292، تاريخ الإسلام، الذهبي: 1/ 344،الكامل في التاريخ، ابن الأثير: 2/ 76.

أَجْنِحَةِ الطَّيْرِ، حَتَّى وَقَفَتْ بَيْنَ يَدَيْ رَسُولِ اللَّهِ (ﷺ) مُرَفْرِفَةً) فالدوي والقصف والرفرفة تصوير دقيق للصوت والحركة تحيل السامع إلى مشاهد، وتلك سمة أسلوبية عامة في بلاغة الإمام في كلامه. وهي هنا- لا ريب- لا تتاح إلا لمن شهد هذه المعجزة بنفسه.

أما الجامع لهذه الصور كلها فهو الغرض الذي ساق الكلام من أجله، وهو تصوير منزلته من الله تعالى ورسوله، وهذا يمكن ملاحظته في تأكيده بقربه من النبي (ﷺ)، إذ كان عن يمينه، وأن الشجرة قد ألقت ببعض أغصانها على منكبه، فضلا عن قوة التصريح في القول الأخير على لسان طغاة قريش ((وَهَلْ يُصَدِّقُكَ فِي أَمْرِكَ إِلَّا مِثْلُ هَذَا، يَعْنُونَنِي))، والفضل ما شهدت به الأعداء.

وفي هذه الحادثة ثمة معجزات أخر تعزز صدق الرسالة المحمدية، فقد أنبأ الرسول بعواقب طغاة قريش في غيب من علم الله تعالى أطلعه عليه فذكر مسبقا عنادهم وإصرارهم على الكفر وحكم بأنهم (لا يفيئون إلى خير و أنّ منهم من يطرح في القليب ومنهم من يحزّب الأحزاب).

والقليب الذي عناه الرسول (ﷺ) هو قليب بدر، بعد معركة بدر التي خسر فيها عتاة قريش ((ومن طرح فيه كعتبة وشيبة ابنى ربيعة، واميّة بن عبد شمس، وأبي جهل، والوليد بن المغيرة وغيرهم، طرحوا فيه بعد انقضاء الحرب وكان ذلك الخبر من أعلام نبوّته صلّى اللّه عليه وآله وسلّم، ومن يحزّب الأحزاب هو أبو سفيان وعمرو بن عبد ودّ وصفوان بن أمية وعكرمة بن أبي جهل وسهل بن عمرو وغيرهم))[1].

(1) شرح نهج البلاغة، ابن ميثم: 4/ 320.

المبحث الثالث

من صور كمالاته

أولا: زهده وتواضعه

رسم الإمام لزهد النبي (ﷺ) وتواضعه صورا مفصلة أبان فيها كمال الشخصية النبوية مثل قوله: ((وَلَقَدْ كَانَ (ﷺ) يَأْكُلُ عَلَى الْأَرْضِ، وَ يَجْلِسُ جِلْسَةَ الْعَبْدِ وَيَخْصِفُ بِيَدِهِ نَعْلَهُ، وَيَرْقَعُ بِيَدِهِ ثَوْبَهُ وَ يَرْكَبُ الْحِمَارَ الْعَارِيَ، وَيُرْدِفُ خَلْفَهُ، وَيَكُونُ السِّتْرُ عَلَى بَابِ بَيْتِهِ فَتَكُونُ فِيهِ التَّصَاوِيرُ فَيَقُولُ، يَا فُلَانَةُ لِإِحْدَى أَزْوَاجِهِ غَيِّبِيهِ عَنِّي، فَإِنِّي إِذَا نَظَرْتُ إِلَيْهِ ذَكَرْتُ الدُّنْيَا وَزَخَارِفَهَا، فَأَعْرَضَ عَنِ الدُّنْيَا بِقَلْبِهِ وَأَمَاتَ ذِكْرَهَا مِنْ نَفْسِهِ، وَأَحَبَّ أَنْ تَغِيبَ زِينَتُهَا عَنْ عَيْنِهِ، لِكَيْلَا يَتَّخِذَ مِنْهَا رِيَاشاً وَلَا يَعْتَقِدَهَا قَرَاراً، وَلَا يَرْجُوَ فِيهَا مُقَاماً فَأَخْرَجَهَا مِنَ النَّفْسِ، وَأَشْخَصَهَا عَنِ الْقَلْبِ وَغَيَّبَهَا عَنِ الْبَصَرِ)).[1]، وفي كلام الإمام ثمة مشهدان تصدر الأول التواضع والثاني أخذ صورة الزهد، وقد كانت الأساليب الكنائية عدة الإمام في رسم صور التواضع، وهي كلها مرتبطة بعصرها إلى حد بعيد، فالجلوس على الأرض وخصف النعل وركب الحمار العاري كنايات عن الزهد[2] بمظاهر الحياة على الرغم من امتلاك مسببات رفاهيتها كون النبي قائد الأمة.

ومن سير تواضعه أنه ((جاء رجل إلى النبيّ صلى اللّه عليه وآله فأصابته

(1) نهج البلاغة، الإمام علي (ﷺ):1/ 376.

(2) ظ.التصوير الفني في خطب الإمام علي، عباس علي الفحام: 71–72.

رعدة. فقال النبيّ صلى اللّه عليه وآله: هوّن عليك فإني لست بملك إنّما أنا ابن امرأة من قريش كانت تأكل القديد))[1]. ففضلا عن هيبة النبوة وما يحيط بشخص النبي محمد (ﷺ) من هالة قدسية تكتنف النفوس وتدخل القلوب، فإن صورة الملك في ثقافة أبناء الجزيرة العربية بعيدة المنال ودماء الملوك في أعرافهم تختلف عن سواها من أبناء البشر، والنبي (ﷺ) عرف ذلك في نفس هذا الرجل إذ هو شأنه شأن الناس في أطراف الصحراء يسمعون بسلطان النبي (ﷺ)، وربما يتصورونه ملكا جبارا فيهابونه، غير أنهم يصدمون حين يتعاملون بهذا الخلق المتواضع الغريب عن ثقافة الملوك إذا صح الكلام. فمن ذلك روي في حديث إسلام عدي بن حاتم الطائي وقدومه على النبيّ صلى اللّه عليه وآله، قال عدي: ((...فانطلق بي إلى بيته فو الله إنه لعامد بي إليه إذ لقيته امرأة ضعيفة كبيرة، فاستوقفته، فوقف لها طويلا تكلمه في حاجتها. قال: فقلت في نفسي: والله ما هذا بملك. ثم مضى رسول الله حتى دخل بيته، فتناول وسادة من أدم محشوة ليفا، فقذفها إلي. فقال لي: اجلس على هذه. قال: قلت: لا بل أنت، فاجلس عليها. قال: لا بل أنت. فجلست، وجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم بالأرض. قال: قلت في نفسي: والله ما هذا بأمر ملك. ثم قال: إيه يا عدى بن حاتم، ألم تك ركوسيا[2]؟ قال: قلت: بلى. قال: أو لم تكن تسير في قومك بالمرباع؟ قال: قلت: بلى. قال: فإن ذلك لم يكن يحل لك في دينك. قال: قلت:

(1) ظ.كنز العمال،المتقي الهندي: 6/ 88، الطبقات الكبرى،محمد بن سعد: 1/ 23، السيرة الحلبية،الحلبي: 3/ 44.

(2) قيل في الركوسي هو دين بين النصارى والصابئين.ظ.سبل الهدى والرشاد، الشامي: 6/ 381، لسان العرب، ابن منظور: ركس. تاج العروس، الزبيدي: ركس.

أجل والله. وعرفت أنه نبي مرسل يعلم ما يجهل...))[1]. وعدي ينكر صفة الملك على النبي (ﷺ) بحسب مفهومه للملك من جهة السلطان وقهر العباد لأن مفهوم النبي وما فيه من معان روحية جديد عليه ولا يمكن استيعابه إلا بالتعامل معه كما تحصل مع أخته التي نصحته بالذهاب إليه والنظر في الأمر عن كثب كما تذكر مصادر التاريخ، لذلك كان عدي بن حاتم بعد ذلك صادق الإيمان ومن كبار المتفانين في حب الإسلام الذي جسده بمواقفه مع الإمام علي (رضي الله عنه) وقتاله إلى جانبه في صفين، واستشهاده مع الإمام الحسين (رضي الله عنه) بعد ذلك.

ويبدو أن هيئة العبد حين يجلس بين يدي سيده لافتة للانتباه في التطامن والتصاغر، وكان ذلك مدعاة للضعة والاحتقار في عرف المجتمع المؤمن بطبقية السيد والمسود، ولكن النبي (ﷺ) حاربها بأخلاقه وسيرته، ولهذا حفظ له التاريخ أنه يجلس جلسة العبد، وأنه يجيب دعوة العبد، وأنه ((يدعى إلى خبز الشعير والإهالة السنخة [2] فيجيب))[3].

وتلك صورة قديمة انقرضت في عصرنا الحاضر ولكن يمكن تصورها عند التكنية عن معاني الزهد والتواضع، ولاسيما عندما يكون الحديث عن النبي وابن عمه وعمق معرفتهما بجبار السموات والأرض.

ولذلك قد تستنكر هذه الصفة على النبي (ﷺ) عند من لا يعرفه، إذ روي

---

(1) تاريخ الطبري، الطبري: 2/ 377، ظ.الكامل في التاريخ، ابن الأثير: 2/ 286.

(2) الإهالة: كل شيء من الأدهان مما يؤتدم به وقيل الدسم الجامد، والسنخة: المتغيرة الريح لطول المكث.

(3) النهاية في غريب الحديث، ابن الأثير: 1/ 84، ظ.السنن الكبرى، البيهقي: 9/ 243.

أن امرأة بذيّة مرت على النبيّ صلى اللّه عليه وآله وكان جالسا جلسة العبيد، فاستنكرت عليه ذلك فقال (ﷺ): ((وأيّ عبد أعبد منّي)) [(1)].

كان النبي مثالا حيا للتواضع علم الأجيال على مر تاريخها السابق واللاحق كيف يمكن للقيادي أن يجتذب الناس إليه بخلقه وتواضعه حتى قال الله تعالى فيه: ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ [(2)]، لذلك التفت إلى دقائق الأمور في الأخلاق فنما الحسن منها وحارب السيء فيها، فكان مما نهى عنه التيه في طريقة المشي واللباس فقال: ((إياكم وسبل الإزار فإنها من الخيلاء والخيلاء لا يحبها الله)) [(3)].

وورد في الخبر ((عن أبي أمامة، قال: بينما نحن مع النبيّ صلى اللّه عليه وآله إذ لحقنا عمرو بن زرارة الأنصاري في حلة إزار و رداء، و قد أسبل، فجعل النبيّ صلى اللّه عليه وآله يأخذ بحاشية ثوبه، و يتواضع للّه عزّ وجلّ ويقول: اللّهمّ عبدك وابن عبدك وابن أمتك، حتّى سمعها عمرو بن زرارة. فالتفت إلى النبيّ صلى اللّه عليه وآله فقال: يا رسول اللّه إنّي حمش الساقين. فقال النبيّ صلى اللّه عليه وآله: إنّ اللّه قد أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ. يا عمرو بن زرارة، إنّ اللّه لا يحبّ المسبلين)) [(4)]. ويبدو أن سبل الإزار بإطالته بحيث يجره الماشي وراءه أسلوب من أساليب الترف والتيه يحمل التشبه بمشية الطاووس، ومن هنا مورد

(1) المعجم الكبير، الطبراني: 8/ 200، مجمع الزوائد، الهيثمي: 9/ 21.

(2) القلم: 4.

(3) النهاية في غريب الحديث، ابن الأثير: 1/ 3، 2/ 39.

(4) أسد الغابة، ابن الأثير: 4/ 104، مسند أحمد، أحمد بن حنبل: 4/ 200، الإصابة، ابن حجر: 4/ 520.

الانتهاء عنه كونه مدعاة للتكبر والخيلاء.ولذا حاول الأنصاري نفي هذه الصفة عنه حين برر سبله إزاره بأن ساقيه دقيقتان وأراد بذلك ستر عيبهما (حمشهما).

ومن كنايات التواضع التي رسمها الإمام للنبي (ﷺ) من خلال الصور الحقيقية خصف النعل وترقيع الثوب مع امتلاك النبي (ﷺ) أسباب الحياة المترفة فقال: ((ويخصف بيده نعله ويرقع بيده ثوبه))وتشديد الإمام على لفظة (يده) للتأكيد على شدة التواضع والزهد. وقد يكل تصليح نعليه (ﷺ) إلى علي (ﷺ)، ولعل حديث خاصف النعل من الشهرة بمكان لا يخفى[1].

والحديث في ذلك مستفيض فمن ذلك يروى: ((أن النبي صلى الله عليه وآله قال يوم الحديبية لسهيل بن عمرو وقد سأله رد جماعة فروى أن النبي قال: يا معشر قريش لتنتهوا أو ليبعثن الله عليكم من يضرب رقابكم على الدين امتحن الله قلبه بالإيمان. قالوا: من هو يا رسول الله؟ قال: هو خاصف النعل. وكان أعطى عليا عليه السلام نعله يخصفها))[2]. ويروى مثل ذلك في مسند أحمد بن حنبل عن النبي (ﷺ) أنه قال: ((إن منكم من يقاتل على تأويل هذا القرآن كما قاتلت على تنزيله فاستشرفنا وفينا أبو بكر وعمر فقال لا ولكنه خاصف النعل قال فجئنا نبشره قال وكأنه قد سمعه)).[3]

ومن الجدير بالذكر أن خصف النعل وترقيع الثوب مما عرف به الإمام

(1) ظ.الإرشاد، الشيخ المفيد: 1/ 122، الأمالي، الطوسي: 254، المراجعات، شرف الدين: 251.

(2) مناقب آل أبي طالب، ابن شهر آشوب: 2/ 244.

(3) مسند أحمد، أحمد بن حنبل: 3/ 82، 3/ 32.

أيضا في سير التواضع والزهد، وليس ذاك بغريب، فقد كان النبي (ﷺ) يرفع لعلي في صغره كل يوم علما من أخلاقه ويأمره بالاقتداء به كما عبر علي (رضي الله عنه).

وقوله (يركب الحمار العاري ويردف خلفه) صفة قصد منها الإمام التواضع وفي الوقت ذاته ألمح إلى ما هو أبعد من ذلك، إذ إن هذه الصفة وردت في التوراة بحسب ما يذكر التاريخ[1]. والرديف المقصود بقوله (ويردف خلفه) هو أسامة بن زيد[2].

أما صور الزهد فقد حرص فيها الإمام (رضي الله عنه) على إلقاء الضوء في لوحاته على جوانب العلاقة العميقة بينه وبين السماء بإظهار عناصر التخلي عن الدنيا واحتقارها.

وإمعانا في رسم صورة النبي (ﷺ) المرتبطة بالسماء، استعمل الإمام (رضي الله عنه) أسلوب الإطناب في رسم الصورة الحقيقية مجسدا طبيعة علاقة النبي (ﷺ) بالدنيا فقال: ((وَ يَكُونُ السِّتْرُ عَلَى بَابِ بَيْتِهِ فَتَكُونُ فِيهِ التَّصَاوِيرُ فَيَقُولُ، يَا فُلَانَةُ لِإِحْدَى أَزْوَاجِهِ غَيِّبِيهِ عَنِّي، فَإِنِّي إِذَا نَظَرْتُ إِلَيْهِ ذَكَرْتُ الدُّنْيَا وَ زَخَارِفَهَا، فَأَعْرَضَ عَنِ الدُّنْيَا بِقَلْبِهِ وَ أَمَاتَ ذِكْرَهَا مِنْ نَفْسِهِ، وَ أَحَبَّ أَنْ تَغِيبَ زِينَتُهَا عَنْ عَيْنِهِ، لِكَيْلَا يَتَّخِذَ مِنْهَا رِيَاشاً وَ لَا يَعْتَقِدَهَا قَرَاراً، وَ لَا يَرْجُوَ فِيهَا مُقَاماً)). ويبدو أن التصاوير يقصد بها الرسوم التي كان يضعها الملوك على أبواب قصورهم ومجالسهم ومتكآتهم حكاية لترفهم وطغيانهم وهو ما يتناقض مع صفاء النفس وانقطاعها إلى الله تعالى المتمثل بالنفس المقدسة بين جنبي النبي الأعظم (ﷺ).

---

(1) ظ.بحار الأنوار، المجلسي: 20/ 222، الميزان، الطباطبائي: 16/ 303.

(2) ظ.صحيح البخاري، البخاري: 4/ 14.

وقول الإمام (ﷺ) (يا فلانة) تـأدب في الحـديث عـن أزواج الـنبي (ﷺ) وصـون لحرمتهن. وقوله الأخير (فَأَخْرَجَهَا مِنَ النَّفْسِ، وَأَشْخَصَهَا عَنِ الْقَلْبِ وَغَيَّبَهَا عَنِ الْبَصَرِ) قدرة تصويرية فائقة باستعمال حـروف التعديـة في الأفعـال (أخرجهـا، أشخصـها، غيبهـا) وإقامـة الجمـل علـى تـوازن نغمـي لافـت، وإيحـاء بعظمـة الشخصية النبوية كون الإعراض عن مباهج الدنيا وزينتها صادر عنـه صـلى الله عليه وآله عن إرادة كاملة وتهذيب منقطع النظير، وفي ذلك أيضـا عـبر أخلاقيـة خالدة للأمة التي تتوخى شخصية القيادة في المسـتقبل. والمـراد أيضـا ((إعراضـه عنها ظاهرا وباطنا، فبعض يمكن ألّـا تكـون الـدّنيا متمكّنـة مـن قلـوبهم، لكـن أوضاع الدنيا لهم منبسطة، وهو غـير مـذموم، وبعـض بـالعكس وهـو مـذموم، والأوّل كالغنيّ الزاهد، والثاني كالفقير الحريص. والممدوح إذهابهـا عـن القلـب والبصر، كما فعل صلى اللّه عليه و آله))[1].

وقوله (ولا يرجو فيها مقاما) صورة من حديث النبي (ﷺ) في قولـه: ((مـا لي و للدنيا، إنّما مثلي و مثلها كمثل الراكب رفعت لـه شـجرة في يـوم صـائف فقال تحتها ثمّ راح و تركها))[2]. والفعل (قال) من القيلولة والاستراحة.

وهو قول لطالما ردده في وصف النبي (ﷺ) في هذا الشأن نحو: ((حقّر الدنيا وصغّرها، فأعرض عنها بقلبه، وأمات ذكرها عـن نفسـه))[3] وقولـه: ((قبضـت

(1) بهج الصباغة، التستري: 2/ 439.

(2) الكافي، الكليني: 2/ 134.

(3) نهج البلاغة، الإمام علي (ﷺ):1/ 253.

عنه أطرافها (الدنيا) ووطّئت لغيره أكنافها))[1]. وقوله: ((عرضت عليه الدنيا فأبي أن يقبلها))[2]، وقوله: ((و لقد كان في رسول اللّه (ﷺ) ما يدّلك على مساوىء الدّنيا وعيوبها؛ إذ جاع فيها مع خاصّته، وزويت عنه زخارفها مع عظيم زلفته))[3].

ثانيا: شجاعته

للشجاعة مفهوم عميق يتجاوز القوة البدنية، فثمة شجاعة في الموقف والرأي، وشجاعة في اتخاذ القرار والثبات عليه، وشجاعة في تحدي الشهوات والانحرافات، وشجاعة في الإقدام ونزع الخوف في الحروب وغيرها، تلك وغيرها من صور الشجاعة كان فيها النبي الأعظم المثال الأعلى لملهميه في كل ما ذكرنا من ضروبها، لذلك رسم لنا الإمام (ﷺ) في ذلك كله أروع صورها.

فمن صور الشجاعة إيثاره تقديم أهل بيته للتضحية قبل أصحابه في الحروب والقتل وقد سجلها أمير المؤمنين في أروع تعبير فقال: ((وَ كَانَ رَسُولُ اللَّهِ (ﷺ) إِذَا احْمَرَّ الْبَأْسُ، وَ أَحْجَمَ النَّاسُ، قَدَّمَ أَهْلَ بَيْتِهِ، فَوَقَى بِهِمْ أَصْحَابَهُ حَرَّ السُّيُوفِ وَالْأَسِنَّةِ، فَقُتِلَ عُبَيْدَةُ بْنُ الْحَارِثِ يَوْمَ بَدْرٍ، وَ قُتِلَ حَمْزَةُ يَوْمَ أُحُدٍ، وَ قُتِلَ جَعْفَرٌ يَوْمَ مُؤْتَةَ، وَأَرَادَ مَنْ لَوْ شِئْتُ ذَكَرْتُ اسْمَهُ، مِثْلَ الَّذِي أَرَادُوا مِنَ الشَّهَادَةِ، وَ لَكِنَّ آجَالَهُمْ عُجِّلَتْ وَمَنِيَّتَهُ أُخِّرَتْ))[4].

---

(1) نفسه:1/ 375.

(2) نفسه:1/ 376.

(3) نفسه.

(4) نهج البلاغة، الإمام علي (ﷺ):2/ 137.

وهؤلاء الذين ضرب الإمام (ﷺ) بهم المثل في الإيثار والتضحية أعزة النبي(ﷺ) وأحباؤه وليس مجرد أرحام، إنهم العم وأولاد العم[1]، عبر عنهم بأهل بيته لشدة القرابة والمحبة، افتدى بهم أصحابه في الأزمات الحرجة التي فيها (أحجم الناس) وجعل فداءهم وقاية لأصحابه من القتل الذي كنى عنه بحر السيوف والأسنة تلميحا إلى هول المعركة وشدة الموقف، وقدم المتعلق (بهم) للتشديد على دلالة الوقاية والافتداء.

وتشير الفاء إلى عدم تماهل النبي (ﷺ) في الشجاعة باتخاذ قرار الإيثار بأهل بيته. فهو لم يقدمهم للتمثيل ليرجعوا بعد ذلك، وإنما قدمهم ليتقي بهم الموت عن أصحابه، وجدير بالذكر أن هذا الموقف الشجاع ذاته تكرر بعد أكثر من خمسة عقود مع حفيده الإمام الحسين (ﷺ) في واقعة كربلاء، إذ قدم للقتل أولا أهل بيته قبل أصحابه، مع فارق أن أصحاب الحسين (ﷺ) كانوا موقنين بموتهم أيضا[2].

والإمام علي (ﷺ) أدرج نفسه في المجموعة الهاشمية الفدائية، غير أن أدب الخطاب وتواضعه حمله على أن يحيد عن ذكر اسمه صراحة فكنى عنه بتركيب لغوي جديد فقال (وأراد من لو شئت ذكرت اسمه مثل الذي أرادوا) يعني بذلك توقه إلى الشهادة في سبيل الله[3].

(1) ظ. شرح نهج البلاغة، ابن أبي الحديد: 14/ 47.

(2) ظ.مقتل الحسين، أبو مخنف الأزدي: 145.

(3) ظ.أسلوب الإمام علي في التصريح باسمه والكناية عنه، عباس علي الفحام: 20.

ومن صور الشجاعة الإقدام وحمل النفس على القتال وجها لوجه مع العدو، وفي هذا، كان النبي (ﷺ) لا يجلس بعيدا عن جنوده، بل كان قائدا ميدانيا مقداما يحمل سيفه وعدته ويقاتل شأنه شأن مقاتليه، وتلك من صفاته النبوية المشهورة، فقد روي أن أحد الأحبار لما علم بغزو النبي (ﷺ) لبني قريضة اليهود حكى لكعب بن أسيد- وهو من كبار قومه- ما قرأ في التوراة عن شجاعة النبي(ﷺ) بأنه: ((يضع سيفه على عاتقه، ولا يبالي من لاقى))[1].

ولمّا أراد النبيّ صلى اللّه عليه و آله و سلم قتل كعب في أسراء بني النضير ذكّره قول ذاك الحبر، فأقرّ به، ولكن قال: ((قد كان ذلك يا محمد! ولولا أن اليهود يعيروني أني جزعت عند القتل لآمنت بك وصدقتك، ولكني على دين اليهود، عليه أحيى وعليه أموت))[2].

ولم نعدم هذه الصورة للنبي في نهج البلاغة، إذ جاء في وصف شجاعة الرسول الأعظم (ﷺ) في ساعات الشدة قول الإمام (رضي الله عنه): ((كُنَّا إِذَا احْمَرَّ الْبَأْسُ اتَّقَيْنَا بِرَسُولِ اللَّهِ (ﷺ)، فَلَمْ يَكُنْ أَحَدٌ مِنَّا أَقْرَبَ إِلَى الْعَدُوِّ مِنْهُ))[3]، واتقاؤهم برسول الله كونه موطن الرحمة والأمل بالوعد بالنصر، ولاسيما أن هذا الكلام صدر عن رجل معروف بالشجاعة واقتداء النبي (ﷺ) في أزمات الحروب وخذلان الأصحاب. وقد وضح ابن أبي الحديد كلام الإمام بقوله: ((ومعنى ذلك انّه إذا عظم الخوف من العدو، واشتد عضاض الحرب، فزع المسلمون إلى

(1) ظ.بحار الأنوار، المجلسي: 20/ 222، تفسير الميزان، الطباطبائي: 16/ 303.
(2) تفسير القمي، علي بن إبراهيم القمي:2/ 191.
(3) نهج البلاغة، الإمام علي (رضي الله عنه): 4/ 61.

قتال رسول اللّه صلى اللّه عليه وآله، فينزل اللّه عليهم النصر بـه، و يـأمنون ممـا كانوا يخافونه بمكانه))[1].

واستعمل الإمام اللغة غير المباشـرة في رسـم صـورة المعركـة فقولـه عليـه السّلام: إذا احمر البأس كناية عن اشتداد الأمر والحرب، وقد قيل في ذلك أقـوال أحسنها: إنّه عليه السّلام شبّه حمي الحـرب بالنّـار الـتي تجمـع الحـرارة و الحمـرة بفعلها ولونها[2]. وهذا معنى ابتكر النبي تركيبه (ﷺ) من قبـل، حـين رأى مجتلـد النـاس يـوم حـنين، وهـي حـرب هـوازن فقـال: ((الآن حمـي الـوطيس))[3] والوطيس: مستوقد النار. فشبّه صلى اللّه عليه وآله وسلم ما استحر مـن جـلاد القوم باحتدام النار، وشدّة التهابها.

ومن ضروب الشجاعة التي ذكرها الإمام في نهـج البلاغـة صـور مجاهـدة النبي لأعداء الله تعالى نحو قوله: ((فجاهد في اللّه المدبرين عنه، والعادلين به))[4]. وفي لفظة المجاهدة فضل مـن التعـب والحركـة والـذوبان في ذات الله فضـلا عـن استعمال صيغة (فاعل) التي توحي بالمشاركة في قتال المدبرين عن قـيم الله تعـالى والعادلين به إلى غيره من عبادة الحجارة والأصنام.

وفي صورة أكثر تخصيصا قوله: ((فقاتل بمن أطاعه من عصاه))[5].

(1) شرح نهج البلاغة، ابن أبي الحديد: 19/ 116.
(2) ظ. المجازات النبوية، الشريف الرضي: 44.
(3) البيان والتبيين، الجاحظ: 2/ 15.
(4) نهج البلاغة، الإمام علي (ﷺ):1/ 309.
(5) نهج البلاغة، الإمام علي (ﷺ): 1/ 232.

وقال عليه السلام في صورة أخرى علم فيها الناس الصلاة على النبي صلى الله عليه وآله: ((...اللهم داحي المدحوات... اجعل شرائف صلواتك، ونوامي بركاتك، على محمد عبدك ورسولك. الخاتم لما سبق...، والمعلن الحق بالحق، والدافع جيشات الأباطيل، والدامغ صولات الأضاليل. كما حمل فاضطلع، قائما بأمرك، مستوفزا في مرضاتك، غير ناكل عن قدم، ولا واه في عزم)) [1].

فوصف النبي (ﷺ) بأنه (دافع جيشات الأباطيل) والجيشات جمع جيشة، من جاشت القدر إذا ارتفع غليانها. والأباطيل: جمع باطل على غير قياس، وكلها صور استعارية أراد بها أنه ((المهلك لما نجم وارتفع من الأباطيل)) [2]. وقوله (الدامغ..) بمعنى المهلك، وهي استعارة من (دمغ الشيء) إذا شجه شجا بلغ به الدماغ، ومع ذلك يكون الهلاك[3]. والصولات: جمع صولة وهي السطوة. والأضاليل: جمع ضلال على غير قياس. وقد بنى الإمام كلامه على التوازن القائم على الأسلوب السجعي بغية التأثير في نفس السامع وتلك سمة ميزت كلامه دائما.وفي ذلك كله تصوير استعاري للأباطيل والأضاليل بصورة الوحش الذي برز شره ((كأنه الذي يضرب وسط الرأس فيدمغ))[4].

---

(1) نفسه:1/ 139.

(2) غريب الحديث، ابن قتيبة: 1/ 374، ظ. شرح نهج البلاغة، ابن أبي الحديد: 6/ 140-141.

(3) ظ.لسان العرب، ابن منظور: دمغ.

(4) غريب الحديث، ابن قتيبة: 1/ 374.

وتأكيد الإمام للدماغ دون غيره باعتبار مركز الحياة فيه، فضلا عن إذلاله بضربه على دماغه كونه أشرف أعضاء البدن.

وهذه الصورة مأخوذة من قوله تعالى: ((بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ))[1].

ويبدو أن الكاف في قوله (كما حمل) تفيد التعليل، أي لأجل حمل أعباء الرسالة الإلهية، والعرب ربما تستعمل هذه الكاف بمعنى التعليل[2]، قال الشاعر[3]:

فقلت له أبا الملحاء خذها كما أوسعتنا بغيا وعدوا

أي هذه الضربة لبغيك علينا، وتعديك[4].

وقوله (فاضطلع)، أي نهض بها قويا، من الضلاعة، أي القوة، ويقال: فلان مضطلع بحمله، إذا كان قويا عليه، فجيء بالطاء للإيحاء بالشدة لأن أصل الفعل مزيد بالتاء (افتعل) وقلبت طاء لقرب مخارجهما كما يقال في صبر اصطبر.

ومما يلحظ على تعبيرات الإمام استقصاؤه في التقاط مزيد من الصور بأسلوب الإطناب، فقوله (مستوفزا) صورة حالية مكملة لما سبق ((أي غبر

(1) الأنبياء: 18.

(2) ظ.مغني اللبيب، ابن هشام: 1/ 192.

(3) البيت لا يعرف قائله.

(4) ظ. شرح نهج البلاغة،ابن أبي الحديد: 6/ 140.

بطـئ، بـل يحـث نفسـه ويجهـدها في رضـا الله سـبحانه))[1]. والـوفز: العجلـة، والمستوفز المستعجل. ومنها قوله (غير ناكل عن قدم)، أي غير جبان ولا متـأخر عن إقدام، والقدم هو التقدم أو المتقدم. و يقـال رجـل قـدم، إذا كـان شـجاعا. وقول الإمام (عليه السلام): (ولا واه في عزم) تعزيز للأولى. والواهي: الضعيف.

وقريب منها قوله عليـه السـلام في موضـع آخـر: ((.. وَجَاهَـدَ فِـي اللَّـهِ أَعْدَاءَهُ، غَيْرَ وَاهِنٍ وَلَا مُعَذِّرٍ))[2]. والمعذّر بالتشديد: المقصر ((الـذي يعتـذر بـلا عذر))[3]. وهي من قوله تعالى: ﴿وَجَآءَ ٱلۡمُعَذِّرُونَ مِنَ ٱلۡأَعۡرَابِ﴾[4].

ثالثا: رحيله

إن روعة نهج البلاغة تبدو في عرض المسيرة التفصيلية على لسان صاحبها أمير المؤمنين مع ابن عمه النبي الأعظم من ولادته وضم الـنبي لـه إلى صـدره إلى لحظات وداعه ورحيله، لـذلك سـتبدو كلمـات تـأبين الإمـام (عليه السلام) للـنبي (صلى الله عليه وسلم)، والصور التي رسمها لرحيله في غاية الصدق والألم والفراق، إذ هي نهايـة رحلـة امتدت لأكثر من ثلاثة عقود لازمه فيها الإمام واتبعه اتباع الفصيل أثر أمه.

قال الإمام و هو يلي غسل رسول اللّه صلى اللّـه عليـه و آلـه و تجهيـزه: ((بِأَبِي أَنْتَ وَأُمِّي، لَقَدِ انْقَطَعَ بِمَوْتِكَ مَا لَـمْ يَنْقَطِـعْ بِمَـوْتِ غَيْـرِكَ، مِـنَ النُّبُـوَّةِ وَالْإِنْبَاءِ وَأَخْبَارِ السَّمَاءِ، خَصَّصْتَ حَتَّى صِـرْتَ مُسَـلِّياً عَمَّـنْ سِـوَاكَ وَ عَمَّمْـتَ

(1) المصدر نفسه.
(2) نهج البلاغة، الإمام علي (عليه السلام): 1/ 272.
(3) مفاتيح الغيب، الرازي: 16/ 158.
(4) التوبة: 90.

حَتَّى صَارَ النَّاسُ فِيكَ سَوَاءً، وَلَوْ لَا أَنَّـكَ أَمَـرْتَ بِالصَّـبْرِ وَنَهَيْـتَ عَـنِ الْجَـزَعِ، لَأَنْفَدْنَا عَلَيْكَ مَاءَ الشُّؤُونِ، وَلَكَانَ الدَّاءُ مُمَاطِلًا وَالْكَمَدُ مُحَالِفاً، وَقَلَّا لَكَ وَلَكِنَّهُ مَا لَا يُمْلَكُ رَدُّهُ، وَلَا يُسْتَطَاعُ دَفْعُهُ بِأَبِي أَنْتَ وَأُمِّي اذْكُرْنَا عِنْدَ رَبِّكَ وَاجْعَلْنَا مِـنْ بَالِكَ)) [1].

هذه كلمات من اكتوى بنـار العشـق فاسـتحالت لهيبـا مـن الألم والصـبر، نتلمسه بافتتاح الكلام بالفداء (بأبي وأنت وأمي) واختتامه به، ونجـده في إظهـار الانتهاء عن الجزع والائتمار بالصبر، ولاسيما حين يورد أمرا من النبي (ﷺ) نفسه في قوله (وَلَوْ لَا أَنَّكَ أَمَرْتَ بِالصَّبْرِ وَ نَهَيْتَ عَنِ الْجَزَعِ..).

وتبدو العاطفة متفجرة في طريقة انتظامها بشكل عفوي اتخذت من التنغيم المتنوع وسائل لها، فمن السجع قوله (من النبوة والإنباء وأخبار السـماء)، ومـن التوازن بين الجمل قوله (خَصَّصْتَ حَتَّى صِـرْتَ مُسَـلِّياً عَمَّـنْ سِـوَاكَ وَعَمَّمْـتَ حَتَّى صَارَ النَّاسُ فِيكَ سَوَاءً) ومعناه خصصنا برزئك فأنسانا كل مصـيبة. فضـلا عن الطباق مثل (انقطع، لم ينقطع) و(خصصت، عممت) و(أمرت، نهيت).

وفي صورة ثانية رسم الإمام فيها صورة رحيل النبي (ﷺ) على يديه فقـال: ((وَ لَقَدْ قُبِضَ رَسُولُ اللَّهِ (ﷺ) وَ إِنَّ رَأْسَهُ لَعَلَى صَدْرِي، وَ لَقَدْ سَالَتْ نَفْسُهُ فِـي كَفِّي فَأَمْرَرْتُهَا عَلَى وَجْهِي، وَلَقَدْ وُلِّيتُ غُسْلَهُ (ﷺ) وَالْمَلَائِكَةُ أَعْوَانِي، فَضَـجَّتِ الدَّارُ وَالْأَفْنِيَةُ، مَلَأٌ يَهْبِطُ وَمَلَأٌ يَعْرُجُ، وَمَا فَارَقَتْ سَـمْعِي هَيْنَمَـةٌ مِـنْهُمْ، يُصَـلُّونَ

(1) نهج البلاغة، الإمام علي (رضي الله عنه):2/ 63.

عَلَيْهِ حَتَّى وَارَيْنَاهُ فِي ضَرِيحِهِ، فَمَنْ ذَا أَحَقُّ بِهِ مِنِّي حَيّاً وَ مَيِّتاً))[1]، فهذا معنى شفيف يتجاوز المنظور ويستصعب على غير علي (رضي الله عنه)، ولا يمكن حمله على معنى آخر غير الحقيقة بدلالة سماعه (الهينمة)، وهي الصوت الخفي[2] للملائكة وهي تهبط وتعرج مصلين على الرسول ومفجوعين به.

ومن حق علي (رضي الله عنه) أن يبين أحقيته بالنبي (صلى الله عليه وسلم) حيا وميتا، لأنها صورة لا تتاح لأحد إطلاقا فمن يجرؤ غير علي (رضي الله عنه) أن يدعي أن نفس رسول الله (صلى الله عليه وسلم) سالت على يده وأنه ولي غسله مع الملائكة.

هذه صورة رحيل النبي (صلى الله عليه وسلم) كما رسمها الإمام علي (رضي الله عنه) وفصل فيها التاريخ مؤيدا، فالطبري قال ((...وعلي يغسله قد أسنده إلى صدره وعليه قميصه يدلكه من ورائه..))[3]. والشيخ المفيد ذكر أن النبي صلّى اللّه عليه وآله وسلم لّما قرب خروج نفسه قال له: ((ضع يا علي رأسي في حجرك، فقد جاء أمر اللّه تعالى. فإذا فاضت نفسي فتناولها بيدك، وامسح بها وجهك ثم وجّهني إلى القبلة، وتولّ أمري، وصلّ علي أوّل الناس، ولا تفارقني حتّى تواريني في رمسي، واستعن باللّه تعالى. فأخذ علي عليه السلام رأسه في حجره فأغمي عليه فأكبّت فاطمة عليها السلام تنظر في وجهه وتندبه وتبكي وتقول:

و أبيض يستسقى الغمام بوجهه ثمال اليتامي عصمة للأرامل

(1) نفسه:1/ 458.

(2) ظ.لسان العرب، ابن منظور: هنم.

(3) تاريخ الطبري، الطبري: 2/ 451، السيرة النبوية، ابن هشام: 4/ 1076.

ففتح النبي صلّى اللّه عليه و آله و سلم عينه و قال بصوت ضئيل: يا بنية هذا قول عمّك أبي طالب لا تقوليه، و لكن قولي: ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ ۚ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ ﴾ ([1])[2].

ويبدو أن المراد بقوله (سالت نفسه.. فأمررتها على وجهي) خروج الروح لأن النبي قبض ((ويد أمير المؤمنين تحت حنكه ففاضت نفسه فيها فرفعها الى وجهه فمسحه بها، فعبر بفيضان نفسه))[3]. والتعبير عن ذلك شائع في لغة العرب فهم يقولون (فاضت روحه) بمعنى خرجت[4].

ولا أظن المراد بقوله (سالت نفسه) ما ذكر من أن النبي (ﷺ) قاء دما يسيرا وقت موته، وأن الإمام (رضي الله عنه) مسح بذلك الدم وجهه.إذ ما الحكمة من ذلك طالما أن التكريم هنا مرتبط بنوع من الغيب؟ أليس يمكن ((أن يكون المراد إمرار الكف الّتي تأثرت من خروج الروح فيها على الوجه))[5].

ويمضي الإمام (رضي الله عنه) في رسم مزيد من تفاصيل رحيل النبي (ﷺ)، التي لا يستطيع سواه ذكرها فقال: ((ولقد ولّيت غسله والملائكة أعواني))، والإمام يلمح بالفعل (وليت) إلى إيصاء مسبق بذلك، فقد روي عن الإمام (رضي الله عنه) قوله ((أوصى النبي صلّى اللّه عليه وآله وسلم أن لا يغسّله أحد غيري، فإنّه لا يرى

---

(1) آل عمران: 144.

(2) الإرشاد، الشيخ المفيد: 1/ 186.

(3) الإرشاد، الشيخ المفيد: 1/ .

(4) ظ.لسان العرب،ابن منظور: فيض.

(5) بهج الصباغة، التستري: 4/ 105.

أحد عورتي إلّا طمست عيناه. قال علي عليه السلام: فكان الفضل وأسامة يناولاني الماء من وراء الستر وهما معصوبا العين. قال علي عليه السلام: فما تناولت عضوا إلّا كأنما يقلّبه معي ثلاثون رجلا حتّى فرغت من غسله))[1].

وفي صور الإمام (ﵜ) مؤثرات لافتة من الحركة وإمعان في الوقوف على دقائق الرحيل وقفا يمثل بؤرة الصورة في شدة التأثير، نحو صورة الملائكة وأصواتها الخفية (هينمة) التي لا يسمعها سواه. ونحو قوله (يصلون عليه) تعظيما وإجلالا، يرون ولا يرون، فقد جاء عن النبي (ﷺ) موصيا ((إذا غسلتموني وكفنتموني فضعوني على سريري في بيتي هذا على شفير قبري، ثم اخرجوا عنى ساعة، فإن أول من يصلى علي جليسي وخليلي جبريل ثم ميكائيل ثم إسرافيل ثم ملك الموت مع جنود كثيرة من الملائكة بأجمعها)) [2].

وقول الإمام (ﵜ): (حَتَّى وَارَيْنَاهُ فِي ضَرِيحِهِ) نهاية المشهد النبوي، وكانت تلك منقبة ظل أمير المؤمنين (ﵜ) يحسد عليها، وقد عبر النبي (ﷺ) عن هذه المواراة من قبل ضمن خلال عدها لعلي (ﵜ) بأنه ((ساتر عورتي ومسلمي إلى ربي)) [3]. صور الإمام (ﵜ) رحيل النبي (ﷺ) وغرضه من ذلك كله بيان منزلته وأحقيته من الرسول الأعظم.

وما ذكره الإمام (ﵜ) اتفقت عليه أكثر مصادر التاريخ، وجدير بالذكر أن

(1) الطبقات الكبرى، محمد بن سعد: 2/ 278. ظ. السيرة الحلبية، الحلبي: 3/ 476.

(2) تاريخ الطبري، الطبري: 2/ 436، الأمالي، الشيخ الصدوق: 737، الكامل، ابن الأثير: 2/ 320.

(3) ينابيع المودة، القندوزي: 2/ 175-176، شرح نهج البلاغة، ابن أبي الحديد: 9/ 173.

رجلا من الأنصار اسمه أوس بن خولي أحب أن يكون له شرف العهد بالنبي(ﷺ) في قبره فقال لأمير المؤمنين (ﷺ): ((أنشدك الله يا علي وحظنا من رسول الله وكان أوس من أصحاب بدر وقال ادخل فدخل فحضر غسل رسول الله صلى الله عليه وسلم))[1]. الأمر الذي التفت إليه ابن أبي الحديد في قوله: ((من تأمل هذه الأخبار علم ان عليا عليه السلام كان الأصل والجملة والتفصيل في أمر النبي صلّى اللّه عليه وآله وسلم وجهازه. ألا ترى أنّ أوس بن خولي لا يخاطب أحدا من الجماعة غيره، ولا يسأل غيره في حضور الغسل والنزول في القبر))[2].

ثم أضاف ابن أبي الحديد ملتقطا صورة لأخلاق أمير المؤمنين كأجمل ما يمكن التقاطه لندرة الموقف وانشغال المرء بالرزء في العادة، فقال: ((ثم انظر إلى كرم علي عليه السلام وسجاحة أخلاقه، وطهارة شيمته كيف لم يضنّ بمثل هذه المقامات الشريفة عن أوس، وهو رجل غريب من الأنصار. فعرف له حقه، واطلبه بما طلبه فكم بين هذه السجيّة الشريفة وقول من قال: لو استقبلت من أمري ما استدبرت ما غسّل النبي صلّى اللّه عليه وآله وسلم إلّا نساؤه، ولو كان في ذلك المقام غيره من أولي الطباع الخشنة، وأرباب الفظاظة والغلظة وقد سأل أوس ذلك، لزجر وانتهر، ورجع خائبا)) [3].

(1) تاريخ الطبري، الطبري: 2/ 451، مسند ابن حنبل: 1/ 260، أسد الغابة، ابن ألأثير: 1/ 145، السنن الكبرى، البيهقي: 4/ 53، الكامل في التاريخ، ابن الأثير: 2/ 333.
(2) شرح نهج البلاغة، ابن أبي الحديد: 13/ 40.
(3) شرح نهج البلاغة، ابن أبي الحديد: 13/ 40.

وجملة الأمر كان الإمام علي (﵁) خير مصور لمراحل حياة النبي (ﷺ) لامتلاكه سببين رئيسين:

الأول: شدة ملازمته لابن عمه (ﷺ) لقرابته القريبة ومنزلته الخصيصة التي حبي بها عليه السلام.

والثاني: إمكانات لغوية وبيانية قادرة على الرسم بالكلمات.

الخاتمة

توضح من رحلة البحث في صورة الـنبي (ﷺ) في نهـج البلاغـة جملـة مـن النتائج أعرض لها بالترتيب:

أولا:

يعد نهج البلاغة أصدق مصور قديم لمراحل حياة النبي الأعظـم (ﷺ) مـن الأسرة وحتى البعثة فالشهادة.

ثانيا:

لم يقتصر التصوير في لغة الإمام (رضي الله عنه) على أساليب المجاز والبيان، بل تعداه إلى استعمال لغة الحقيقة في الصورة في قدرة لافتة على التفـنن باللغـة والـتمكن من زمامها.

ثالثا:

تجلت قدرة الإمام (ﷺ) التصـويرية للموضـوعات المختلفـة للرسـول (ﷺ) بامتلاكه سببين رئيسين هما وضوح المعنى لديه، وتمكنه عليه السـلام مـن إسـباغ المؤثرات البيانية والموسيقية والحركية على تعبيراته.

المصادر والمراجع

- القرآن الكريم

- اتجاهات النقد الأدبي في القرن الخامس الهجري، منصور عبد الرحمن، مطبعة دار العلم، القاهرة-1977م.

- الأثر القرآني في نهج البلاغة، دراسة في الشكل والمضمون، الدكتور عباس علي الفحام. دار الرافدين، الطبعة الأولى، بيروت – 2010م.

- الاستيعاب، ابن عبد البر، تحقيق:علي محمد البجاوي، الطبعة الأولى، 1412، مطبعة دار الجيل- بيروت.-الإصابة، ابن حجر، تحقيق: الشيخ عادل أحمد عبد الموجود، الشيخ علي محمد معوض.الطبعة الأولى- 1415هـ. دار الكتب العلمية. بيروت.

- الأصفى في تفسير القرآن، الفيض الكاشاني (1091هـ)، تحقيق: محمد حسين درايتي ومحمد رضا نعمتي، مطبعة مركز الإعلام الإسلامي، قم، الطبعة الأولى، 1418هـ.

- الأمالي، الشيخ الصدوق (ت381هـ)، تحقيق: قسم الدراسات الإسلامية- مؤسسة البعثة- قم، الطبعة الأولى، 1417هـ. - الأمالي، الشيخ الطوسي (ت460هـ)، تحقيق: قسم الدراسات الإسلامية - مؤسسة البعثة، الطبعة الأولى، 1414هـ، دار الثقافة للطباعة والنشر والتوزيع- قم.- إعلام الورى بأعلام الهدى، الشيخ الطبرسي (ت 548هـ)، تحقيق: مؤسسة آل البيت عليهم السلام لإحياء التراث، الطبعة الأولى، مطبعة ستارة - قم، 1417هـ.

- بحار الأنوار الجامعة لدرر أخبار الأئمة الأطهار، الشيخ محمد باقر المجلسي (ت1111هـ)، مؤسسة الوفاء، بيروت - لبنان، الطبعة الثانية، 1983.

- بهج الصباغة في شرح نهج البلاغة، محمد تقي التستري.دار أمير كبير للنشر، طهران، الطبعة الأولى، 1376هـ.

- البيان والتبيين، الجاحظ، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، مكتبة الخانجي، الطبعة الخامسة، القاهرة - 1985م.

- تاج العروس من جواهر القاموس، محمد مرتضى الزبيدي (ت1205هـ)، دار الفكر- بيروت، 1994م.

- تاريخ الإسلام، الذهبي (ت 748)، تحقيق: د. عمر عبد السلام تدمرى، الطبعة الأولى، 1987م، لبنان، بيروت- دار الكتاب العربي.

- تاريخ الطبري (تاريخ الرسل والملوك)، أبو جعفر محمد بن جرير (ت310هـ)، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، الطبعة الخامسة، دار المعارف- مصر، 1987م.

- التاريخ وحركة التقدم البشري ونظرة الإسلام، محمد مهدي شمس الدين، بدون ذكر المطبعة وسنة التاريخ.

- تحف العقول عن آل الرسول، ابن شعبة الحراني، تحقيق: تصحيح وتعليق: علي أكبر الغفاري، الطبعة الثانية، 1404 هـ، مؤسسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرسين بقم المشرفة.- تفسير أبي السعود (إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم)، محمد بن محمد بن مصطفى الحنفي

(ت 951هـ). وضح حواشيه عبد اللطيف عبد الرحمن، الطبعة الأولى- 1999م، دار الكتب العلمية- بيروت.

- تفسير القمي، علي بن إبراهيم القمي، تصحيح وتعليق وتقديم: السيد طيب الموسوي الجزائري، مطبعة النجف، منشورات مكتبة الهدى.
- التفسير الكبير (أو مفاتيح الغيب)، فخر الدين محمد بن عمر الرازي (ت 606هـ)، المطبعة البهية- مصر، بدون تاريخ.
- تمهيد في النقد الحديث، روز غريب، دار المكشوف، بيروت- لبنان، الطبعة الأولى، 1971م.
- الجامع الصغير في أحاديث البشير النذير، جلال الدين عبد الرحمن بن بكر السيوطي (ت911هـ). دار الفكر، الطبعة الأولى، بيروت. 1981م. - رجال ابن داوود، ابن داوود الحلي (ت740هـ)، تحقيق وتقديم: السيد محمد صادق آل بحر العلوم، - 1972م، المطبعة الحيدرية - النجف الأشرف. -روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، أبو الفضل شهاب الدين محمود الآلوسي (ت 1270هـ). إدارة الطباعة المنيرية، القاهرة، بدون تاريخ.
- حقائق التأويل في متشابه التنزيل، الشريف الرضي، شرحه الأستاذ محمد الرضا آل كاشف الغطاء، دار المهاجر للطباعة والنشر والتوزيع.
- حياة أمير المؤمنين في عهد النبي، السيد إسماعيل الصدر، مطبعة المعارف- بغداد، 1944م.

- الخصائص، أبو الفتح عثمان بن جني، تحقيق: محمد علي النجار، الطبعة الأولى، مطبعة دار الكتب المصرية- 1956م.

- سبل الهدى والرشاد، الصالحي الشامي، تحقيق وتعليق: الشيخ عادل أحمد عبد الموجود، الشيخ علي محمد معوض، الطبعة الأولى، 1414 - 1993م، مطبعة دار الكتب العلمية- بيروت- لبنان.- سنن الترمذي، الترمذي، تحقيق وتصحيح: عبد الرحمن محمد عثمان، الطبعة الثانية، 1403 - 1983م- دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع- بيروت- لبنان.

- سنن الدارمي. أبو محمد، عبد الله بن عبد الرحمن (ت 255هـ). طبع بعناية: محمد أحمد دهمان، دمشق، بدون تاريخ.

- السنن الكبرى، أبو بكر، أحمد بن الحسين البيهقي (ت 458هـ). دار الفكر- بيروت.

- السيرة الحلبية، الحلبي (ت 1044هـ)، مطبعة دار المعرفة- بيروت، 1400هـ. - السيرة النبوية. ـ ابن هشام، عبد الملك بن هشام المعافري (213هـ). قدم لها وعلق عليها وضبطها: طه عبد الرؤوف سعد، دار الجيل- بيروت 1975م.

- شرح نهج البلاغة، ابن أبي الحديد المدائني (ت 656 هـ).تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء التراث العربي، القاهرة، 1959م.

- شرح نهج البلاغة، ميثم بن علي بن ميثم البحراني (ت 679هـ). (المصباح شرح الكبير) مطبعة خدمات، الطبعة الثانية، طهران 1404هـ.

- الشعر والتجربة، أرشيبالد مكليش، ترجمة سلمى الخضراء الجيوسي، مؤسسة فرنكلين للطباعة والنشر، بيروت- نيويورك، 1963م.
- شواهد التنزيل، الحاكم الحسكاني، تحقيق: الشيخ محمد باقر المحمودي، الطبعة الأولى، 1990م.
- صحيح البخاري، البخاري (ت256هـ)، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، 1981م.-الصحيح من سيرة النبي (ﷺ)، جعفر مرتضى، الطبعة الرابعة- 1995م، دار الهادي للطباعة والنشر والتوزيع، ودار السيرة - بيروت.- الطبقات الكبرى، محمد بن سعد، دار صادر - بيروت، دار صادر - بيروت.
- غريب الحديث، ابن قتيبة، الدكتور عبد الله الجبوري.الأولى، دار الكتب العلمية- قم. 1408هـ.
- في ظلال نهج البلاغة، محاولة لفهم جديد، محمد جواد مغنية. دار العلم للملايين، الطبعة الأولى، بيروت 1972م.
- الكامل في التاريخ، ابن الأثير (ت 630هـ)، المطبعة: دار صادر- دار بيروت، دار صادر للطباعة والنشر، دار بيروت للطباعة والنشر- 1966م.
- الكافي، الشيخ الكليني (ت 329هـ)، تصحيح وتعليق: علي أكبر الغفاري، الطبعة: الخامسة- 1363 هـ، مطبعة الحيدري- طهران.
- كشف الغمة، ابن أبي الفتح الإربلي، الطبعة الثانية، 1405 - 1985م، مطبعة دار الأضواء، بيروت- لبنان- كنز العمال في سنن الأقوال والأفعال،

المتقي الهندي، علاء الدين بن حسام الدين (ت 975هـ)، ضبطه وفسر غريبه: الشيخ بكري حياني، مؤسسة الرسالة، بيروت- لبنان 1989م.

- لسان العرب، جمال الدين محمد بن مكرم بن منظور المصري (ت 711هـ). دار صادر ودار بيروت، لبنان 1379هـ- 1955م.

- المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، ابن الأثير، تحقيق:أحمد الحوفي وبدوي طبانة، الطبعة الأولى، نهضة مصر- القاهرة، 1959م.

- المجازات النبوية، الشريف الرضي (ت406هـ). تحقيق: محمود مصطفى، مطبعة البابي الحلبي، مصر، 1356هـ- 1937م.

- مجمع البيان في تفسير القرآن، الفضل بن الحسين الطبرسي (ت 548هـ). حقق وعلق عليه: لجنة من العلماء والمثقفين، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، 1415هـ- 1995م.

- مجمع الزوائد، الهيثمي، مطبعة دار الكتب العلمية- بيروت- لبنان، 1408- 1988م.

- المراجعات، السيد شرف الدين، تحقيق: حسين الراضي، الطبعة الثانية، سنة الطبع: 1402- 1982م.

- المستدرك، الحاكم النيسابوري، إشراف: يوسف عبد الرحمن المرعشلي. بدون ذكر المطبعة والتاريخ.

- مسند أحمد، أحمد بن حنبل (ت241هـ)، دار صادر، بيروت.

- المعارف، عبد الله بن مسلم بن قتيبة (ت276هـ)، تحقيق: ثروت عكاشة، القاهرة، دار المعارف.

- معجم رجال الحديث، أبو القاسم الخوئي، الطبعة الخامسة، 1992م.

-المعجم الكبير، الطبراني، تحقيق وتخريج: حمدي عبد المجيد السلفي الطبعة: الثانية، دار إحياء التراث العربي.- معجم البلدان. ياقوت الحموي، (ت626هـ). دار إحياء التراث العربي، بيروت، 1979م.

- مغني اللبيب عن كتب الأعاريب، ابن هشام الأنصاري (ت761هـ)، تحقيق وفصل وضبط: محمد محيي الدين عبد الحميد، مطبعة المدني- القاهرة، 1404هـ.

- مناقب آل أبي طالب، محمد بن علي بن شهر آشوب (ت588هـ)، مصحح من لجنة من أساتذة النجف الأشرف، المطبعة الحيدرية، 1956م.

- منهاج البراعة في شرح نهج البلاغة، حبيب الله الخوئي، طهران، المكتبة الإسلامية، الطبعة الرابعة- 1405هـ.

- الميزان في تفسير القرآن- محمد حسين الطباطبائي. مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، الطبعة الثانية، بيروت- لبنان 1972م.

- النهاية في غريب الحديث، ابن الأثير، 606، تحقيق:طاهر أحمد الزاوي، محمود محمد الطناحي، الطبعة الرابعة، 1364 هـ، مؤسسة إسماعيليان للطباعة والنشر والتوزيع، قم.

- نهج البلاغة، محمد عبده، مطبعة بابل- بغداد 1984م.

- نهج البلاغة، علي بن أبي طالب عليه السلام (ت36هـ)، بجمع الشريف الرضي (ت406هـ). تحقيق وشرح: محمد أبو الفضل ابراهيم، بيروت- لبنان، دار الجيل، الطبعة الثانية 1416 هـ.

- ينابيع المودة لذوي القربى، سليمان بن إبراهيم القندوزي (ت1294هـ)، تحقيق سيد علي جمال أشرف الحسيني، مطبعة الأسوة، قم، الطبعة الأولى 1416هـ.

الرسائل والدوريات:

- التصوير الفني في خطب الإمام علي (ﷺ). عباس علي الفحام. (رسالة ماجستير)، كلية التربية للبنات، جامعة الكوفة 1999م.
- أسلوب الإمام علي في التصريح باسمه والكناية عنه في نهج البلاغة، د.عباس علي الفحام، مجلة مركز دراسات الكوفة، العدد التاسع، 2010م.

الفصل الثاني
البصرة في نهج البلاغة
مواقف وأحداث

المقدمة

التمهيد: البصرة..النشأة والمكانة

المبحث الأول: حرب الجمل واسشفاف المستقبل

المبحث الثاني: رجال البصرة

المبحث الثالث: ولاة البصرة

أولاً: عثمان بن حنيف

ثانياً: عبد الله بن عباس

ثالث: زياد بن أبيه

المقدمة

لا شك في أن حديث البصرة حديث التاريخ الإسلامي بأبعاده العلمية والسياسية والاقتصادية والحضارية والثقافية، وهو بعد حديث الفن والأدب. والمؤتمرات الأكاديمية فيه فرص لإظهار قيمة هذا التاريخ إظهارا فيه الشيء الكثير من الجدة أو هكذا ينبغي على الأقل، ومن هنا سرني الانضمام إلى المشاركين في الكتابة عن هذه الحاضرة العريقة، وقد اخترت البحث في البصرة في خلال وثيقة تاريخية وأدبية هي (نهج البلاغة) عاصر صاحبها وهو الإمام علي عليه السلام نشأة هذه المدينة ورقيها وزامن أحداثها، فجاء عنوان البحث (البصرة في نهج البلاغة مواقف وأحداث). ووقع اختياري لنهج البلاغة لأسباب عدة منها،

أولا: بسبب تخصصي- بكل تواضع- بهذا الأثر الخالد.

وثانيا: لأن البصرة أخذت حيزا كبيرا من كلام أمير المؤمنين عليه السلام المجموع في نهج البلاغة.

وثالثا: لواقعية التعبير وصدقه لأن صاحبه هو صاحب الحدث وليس ناقلا عنه. ورابعا: لروعة التعبيرات الفنية وأدبيتها على الرغم من مضامينها الحقيقية.

وجاءت خطة الدراسة بتمهيد وثلاثة مباحث حاولت بشكل مكثف استيعاب موضوعات البصرة التي وردت على لسان أمير المؤمنين عليه السلام وهي على النحو الآتي: شمل التمهيد موضوع البصرة من جهة النشاة والمكانة، وتضمن المبحث الأول حرب الجمل واستشفاف المستقبل. بينما ضم المبحث

الثاني رجال البصرة. أما المبحث الثالث فقد اشتمل على ولاة البصرة على وفق التسلسل الزمني. ولكل مبحث فروعه وتفصيلاته في طيات البحث.

وقد اعتمت مصادر التاريخ والأدب وتراجم الرجال والسيرة كثيرا في البحث والتحليل فضلا عن مراجع النقد والبلاغة والأدب بشكل عام. أما استخراج نص كلام الإمام علي عليه السلام فقد اعتمدت نسخة نهج البلاغة المحققة بقلم الشيخ محمد عبده ليسرها وتعليقات الشيخ عليها.

البحث محاولة لتجلية حقائق بصرية كثيرة، عسى أن يوفقنا الله تعالى في الكشف عنها.

التمهيد

البصرة.. النشأة والمكانة

لم يكن العرب المسلمون يعرفون البصرة من قبل لا اسما ولا مكانا، حتى العام الرابع عشر للهجرة، أيام حكم الخليفة عمر بن الخطاب، وأدركوا أهمية هذه البقعة لأنها تمثل ثغرا بحريا يمكن أن تؤتى منه الدولة الإسلامية، وفعلا كان المسلمون قد غزوا من قبل البحرين توج ونوبندجان وطاسان[1]، فلما فتحوها كتبوا إلى الخليفة يسألونه الإقامة فيها [2].

ويبدو أن الذي شجع على تمصيرها واتخاذها مصرا جديدا للدولة الإسلامية نجاح فتوح بقاع مختلفة في العراق ضد الفرس، فأخبار الفتوح مسرة في الحيرة بقيادة المثنى بن حارثة. وكان سويد ابن قطبة الذهلي، وبعضهم يقول قطبة بن قتادة، يغير في ناحية الخريبة من البصرة على العجم، وفتح الأبلة على يد عتبة بن غزوان [3]، وكانت حينئذ مدينة فيها مسالح من قبل كسرى، قال فيها خالد بن صفوان: ((ما رأيت أرضا مثل الأبلة مسافة، ولا أغذى نطفة، ولا أوطأ

(1) مدن من أرض فارس، والنوبندجان مدينة من أرض فارس قريبة من شعب بوان الموصوف بالحسن من المتنبي.ينظر: معجم البلدان، للحموي، بأسمائها.

(2) ظ. تاريخ الطبري، الطبري: 3/ 92، معجم البلدان، الحموي: 1/ 430– 432.

(3) ظ. تاريخ الطبري، الطبري: 2/ 3،556/ 92، معجم البلدان، الحموي: 1/ 73، والأبلة: بضم أوله وثانيه وتشديد اللام وفتحها: بلدة على شاطئ دجلة البصرة العظمى، في زاوية الخليج الذي يدخل إلى مدينة البصرة، وهي أقدم من البصرة.

مطية، ولا أربح لتاجر، ولا أخفى لعائذ. وقال الأصمعي: جنان الدنيا ثلاث: غوطة دمشق، ونهر بلخ، ونهر الأبلة))[1].

وفوق ذلك أهمية الموقع البحري الجديد، وعلى حد تعبير رجل من بني سدوس يصف للخليفة هذا الموقع بقوله: ((إني مررت بمكان دون دجلة فيه قصر وفيه مسالح للعجم يقال له الخريبة ويسمى أيضا البصيرة، بينه وبين دجلة أربعة فراسخ، له خليج يجري فيه الماء إلى أجمة قصب))[2]، وتم فعلا تأمين الممر المائي، قال الطبري ((إن الله عز وجل لما أظفر سعد بن أبي وقاص بأرض الحيرة وما قاربها كتب إليه عمر بن الخطاب أن ابعث عتبة بن غزوان إلى أرض الهند، فإن له من الإسلام مكانا وقد شهد بدرا، وكانت الأبلة يومئذ تسمى أرض الهند، فلينزلها ويجعلها قيروانا للمسلمين ولا يجعل بيني وبينهم بحرا، فخرج عتبة من الحيرة في ثمانمائة رجل حتى نزل موضع البصرة، فلما افتتح الأبلة ضرب قيروانه وضرب للمسلمين أخبيتهم، وكانت خيمة عتبة من أكسية، ورماه عمر بالرجال فلما كثروا بنى رهط منهم فيها سبع دساكر من لبن، منها في الخريبة اثنتان وفي الزابوقة واحدة وفي بني تميم اثنتان))[3]، ولما نزلها عتبة بن غزوان عرف أهميتها فعمل على تمصيرها، إذ لابد من منزل إذا أشتى شتوا فيه وإذا رجعوا من غزوهم لجأوا إليه[4]، فهي أرض كثيرة القضة[5] في طرف البر إلى الريف

(1) معجم البلدان، الحموي: 1/ 76- 78.

(2) المصدر نفسه.

(3) تاريخ الطبري، الطبري: 3/ 90.

(4) فتوح البلدان، البلاذري: 2/ 425-431.

(5) القضة: بالكسر والتشديد: الحصى الصغار، والقضة أيضا أرض ذات حصى، ينظر: لسان العرب: قضض.

ودونها مناقع فيها ماء وفيها قصباء كما ذكر عتبة ذلك، ولما وصلت الأخبار إلى الخليفة قال: ((هذه أرض بصرة قريبة من المشارب والمرعى والمحتطب، فكتب إليه أن أنزلها، فنزلها وبنى مسجدها من قصب وبنى دار إمارتها دون المسجد في الرحبة التي يقال لها رحبة بني هاشم، وكانت تسمى الدهناء، وفيها السجن والديوان وحمام الأمراء بعد ذلك لقربها من الماء، فكانوا إذا غزوا نزعوا ذلك القصب ثم حزموه ووضعوه حتى يعودوا من الغزو فيعيدوا بناءه كما كان)) [1]. ومن هنا جاء اسم البصرة، وتعني في كلام العرب الأرض الغليظة، وقيل أن المسلمين حين وافوا مكان البصرة للنزول بها نظروا إليها من بعيد وأبصروا الحصى عليها فقالوا: إن هذه أرض بصرة، يعنون حصبة، فسميت بذلك.

وقد تسمى البصرة بالرعناء، قال الجاحظ: ((من عيوب البصرة اختلاف هوائها في يوم واحد لأنهم يلبسون القميص مرة والمبطنات مرة والجباب مرة لاختلاف جواهر الساعات، ولذلك سميت الرعناء)) [2]. قال الفرزدق:

لولا أبو مالك المرجو نائله ما كانت البصرة الرعناء لي وطنا

وقد وصف هذه الحال ابن لنكك البصري، فرد البصرة وبدر ظرفائها [3]، فقال:

نحن بالبصرة في لو ن من العيش ظريف
نحن ما هبت شمال بين جنات وريف

---

(1) معجم البلدان،الحموي: 1/ 432- 435.

(2) معجم البلدان، الحموي: 1/ 435- 439، معجم مقاييس اللغة، ابن فارس: 2/ 402.

(3) ظ. يتيمة الدهر، الثعالبي: 2/ 419.

فـــــإذا هبـــــت جنـــــوب فكأنـــــــــــــا في كنيـــــــــــــف

أما ولاة البصرة من بدء النشأة حتى تولي الإمام علي عليه السلام الحكـم فهم:

أولا: على عهد عمر بن الخطاب: عتبة بن غزوان بن جابر بن وهيب بن نسيب، أحد بني مازن بن منصور بن عكرمة بـن خصـفة، حليـف بـني نوفل بن عبد مناف، وكان من المهاجرين الأولين.

المغيرة بن شعبة

أبو موسى الأشعري

ثانيا: على عهد عثمان بن عفان: وال واحد هو قريبه عبد الله بن عامر بن كريز، وبقي فيها إلى تولية عثمان بن حنيف من قبل الإمام علـي عليـه السلام سنة 36 للهجرة.

وهكذا نشأت البصرة مصرا ناهضا بشر بثقافـة جديـدة ومـدارس علميـة رائدة في علوم العربية المختلفة في مستقبل عمرها، على الرغم مما وقع عليها مـن محن وفتن. ولأهميتها كانت تسمى البصرتان يعنـون بهـا الكوفـة والبصـرة كمـا قالوا كوفان.

المبحث الأول

حرب الجمل واستشفاف المستقبل

تسلم الإمام علي عليه السلام مقاليد الخلافة بشكل جماهيري عريض بغية إصلاح ما يمكن إصلاحه من فساد في إدارة الحكم واستئثار بالسلطة، انتهت بمجزرة مريعة للخليفة الثالث عثمان بن عفان، غير أن الإصلاح الذي وجه الإمام عليه السلام طاقته إلى الداخل لم يعجب الكثيرين من الطامحين إلى التسلط على رقاب الناس، فنشأت اصطفافات لكثير ممن ضربت مصالحهم، فعملوا على تأليب عامة الناس، وتحريك الساكن من شرارة ما أعقب الثورة الدموية، فكان الطلب بدم عثمان شعارا لكل خارج على القانون الذي عمل الإمام عليه السلام على تطبيقه على السوية بين الناس من دون تمييز. ذكر أن طلحة والزبير طلبا من علي عليه السلام أن يوليهما المصرين: البصرة والكوفة، فقال: حتى أنظر. ثم استشار المغيرة بن شعبة، فقال له: أرى أن توليهما إلى أن يستقيم لك أمر الناس. فخلا بابن عباس، وقال: ما ترى ؟ قال: يا أمير المؤمنين، إن الكوفة والبصرة عين الخلافة، وبهما كنوز الرجال، ومكان طلحة والزبير من الإسلام ما قد علمت، ولست آمنهما إن وليتهما أن يحدثا أمرا. فأخذ علي عليه السلام برأي ابن عباس.[1]

---

(1) شرح نهج البلاغة، ابن أبي الحديد: 1/ 231– 232.

وكان حظ البصرة سيئا لذلك، إذ شهدت أول ذلك الخروج على حكم الإمام علي عليه السلام فكانت حرب الجمل، وهي المعركة التي قادها كبار صحابة الرسول (ﷺ) وهما الزبير بن العوام ابن عمة النبي (ﷺ)، وطلحة بن عبيد الله مغررين بالسيدة عائشة التي كانت على جمل في تلك المعركة التي انتهت لصالح الإمام علي (ع). وفيها تفاصيل مريعة أترك للقارئ مراجعتها في مصادرها من التاريخ [1].

ويبدو أن البصرة كانت منقسمة على نفسها بشأن الولاء للإمام علي عليه السلام وتقديم الطاعة تحت سلطة الإشاعات المختلفة، التي تشوه الحقيقة وتعمي البصر والبصيرة، ولهذا السبب اختيرت أول مدينة للخروج على الطاعة، وقد كان الإمام علي (رضي الله عنه) على علم بذلك فقد روي أن رجلا عليه زي السفر قال: ((يا أمير المؤمنين، إني أتيتك من بلدة ما رأيت لك بها محبا، قال: من أين أتيت؟ قال: من البصرة، قال: أما إنهم لو يستطيعون أن يحبوني لأحبوني، إني وشيعتي في ميثاق الله لا يزاد فينا رجل لا ينقص إلى يوم القيامة)).[2]

وقد صور الإمام الأحداث المروعة التي سبقت المعركة من سفك للدم وهتك للحرمات فقال:

---

(1) ظ.تاريخ الطبري، الطبري: 7/ 561، الكامل، ابن الأثير: 7/ 206، أنساب الأشراف، البلاذري: 227–228، مروج الذهب، المسعودي: 2/ 377– 367.

(2) شرح نهج البلاغة، ابن أبي الحديد: 4/ 94

((فخرجوا يجرون حرمة رسول الله صلى الله عليه وآله كما تجر الأمة عند شرائها، متوجهين بها إلى البصرة، فحبسا نساءهما في بيوتهما، وأبرزا حبيس رسول الله صلى الله عليه وآله لهما ولغيرهما، في جيش ما منهم رجل إلا وقد أعطاني الطاعة وسمح لي بالبيعة طائعا غير مكره فقدموا على عاملي بها وخزان بيت مال المسلمين وغيرهم من أهلها. فقتلوا طائفة صبرا، وطائفة غدرا. فوالله لو لم يصيبوا من المسلمين إلا رجلا واحدا معتمدين لقتله بلا جرم جره، لحل لي قتل ذلك الجيش كله إذ حضروه فلم ينكروا ولم يدفعوا عنه بلسان ولا يد. دع ما أنهم قد قتلوا من المسلمين مثل العدة التي دخلوا بها عليهم))[1].

وفي موضع آخر كرر الإمام هذه الصورة فقال: ((فقدموا على عمالي وخزان بيت مال المسلمين الذي في يدي، وعلى أهل مصر كلهم في طاعتي وعلى بيعتي، فشتتوا كلمتهم، وأفسدوا علي جماعتهم. ووثبوا على شيعتي فقتلوا طائفة منهم غدرا، وطائفة عضوا على أسيافهم فضاربوا بها حتى لقوا الله صادقين))[2]. والعض على الأسياف كناية عن الصبر في الحرب وترك الاستسلام، وهي كناية فصيحة شبه قبضهم على السيوف بالعض. وقد مر ذكر ما جرى ((أن عسكر الجمل قتلوا طائفة من شيعة أمير المؤمنين عليه السلام

(1) نهج البلاغة: 2/ 85– 86.

(2) نفسه: 2/ 202– 203.

بالبصرة بعد أن آمنوهم غدرا وأن بعض الشيعة صبر في الحرب ولم يستسلم وقاتل حتى قتل مثل حكيم بن جبلة العبدي وغيره))[1].

ومن جدير ما يذكر هنا في حديث حذيفة بن اليمان- الذي توفي أيام عثمان بن عفان- عن النبي (ﷺ) في شأن خروج السيدة عائشة قوله: ((تقاتل معها مضر مضرها الله في النار وأزد عمان سلت الله أقدامها، وإن قيسا لن تنفك تبغى دين الله شرا حتى يركبها الله بالملائكة فلا يمنعوا ذنب تلعة))[2].

البصرة- إذن- غلبت على أمرها في شأن محاربة الإمام (ﷺ) بسبب هذا الإرهاب الذي مورس على أهلها، وترويعهم على هذا النحو الذي صوره الإمام (ﷺ) بالقتل غدرا أو صبرا، وهو أشد الترويع وأعنفه، إذ يربط الرجل أسيرا ويجرح ليترك على هذا النحو حتى يهلك.

والذي يؤيد ما نذهب إليه من فطرة أهل البصرة على حب أمير المؤمنين(ﷺ) قول أمير المؤمنين الآنف الذكر: ((أما إنهم لو يستطيعون أن يحبوني

---

(1) شرح نهج البلاغة، ابن أبي الحديد: 11/ 121- 122.

(2) قال ابن الأثير في شرحه للحديث: أي جعلها في النار فاشتق لذلك لفظا من اسمها يقال مضرنا فلانا فتضمر اي صيرناه كذلك اي نسبناه إليها وقال الزمخشري مضرها جمعها كما يقال جند الجنود وقيل مضرها أهلكها من قولهم ذهب دمه خضرا مضرا اي هدرا.

ينظر: النهاية في غريب الحديث: 2/ 174. و(سلت الله أقدامها) أي قطعها. التلاع: مسايل الماء من علو إلى أسفل واحدها تلعة وذنب التلعة أسفلها. قال الزمخشري (اي يذلها الله حتى لا تقدر على أن تمنع ذنب تلعة). ينظر: الفائق: 3/ 247، المصنف، الصنعاني: 11/ 54، غريب الحديث، ابن قتيبة: 2/ 43.

لأحبوني))، ففيه إشارة إلى التعمية على الحقيقة التي شوهت كثيرا، ولا ننسى أننا بصدد تعمية استمرت لأكثر من عقدين من الزمن أي تغير جيل كامل من الناس. فضلا عن ذلك ما ذكر أن أهل البصرة بعثوا من يستطلع لهم موقفهم من هذه الحرب عن كثب بالاحتكاك بعلي عليه السلام نفسه، كما حدث مع مبعوثهم الجرمي[1].

ومن هنا كانت خطب الإمام علي عليه السلام في البصرة وأهلها، من هذا الظرف المحكوم بالمآسي والمؤامرات والدسائس، وهو ظرف احتل كثيرا من تاريخه عليه السلام وحكمه، ومن ثم في خطبه وأقواله، كقوله عليه السلام ذاما: ((كنتم جند المرأة، وأتباع البهيمة، رغا فأجبتم، وعقر فهربتم، أخلاقكم دقاق وعهد كم شقاق، ودينكم نفاق، وماؤكم زعاق. والمقيم بين أظهركم مرتهن بذنبه، والشاخص عنكم متدارك برحمة من ربه. كأني بمسجدكم كجؤجؤ سفينة، قد بعث الله عليها العذاب من فوقها ومن تحتها وغرق من في ضمنها. وأيم الله لتغرقن بلدتكم حتى كأني أنظر إلى مسجدها كجؤجؤ سفينة أو نعامة جاثمة))[2].

ومثله قوله عليه السلام: ((أرضكم قريبة من الماء، بعيدة من السماء،

(1) شرح نهج البلاغة، ابن أبي الحديد: 9/ 299- 300

(2) نهج البلاغة: 1/ 44- 46.

خفت عقولكم وسفهت حلومكم، فأنتم غـرض لنابـل، وأكلـة لآكـل، وفريسـة لصائل))[1].

وينبغي هنا- أولا- أن نفهم أن العبارات التي تتردد كثيرا في نهج البلاغـة من قبيل (قال في ذم أهل البصرة وغيرها) أن المقصود بها القـوم الـذين حـاربوه وانتهكوا الحرمات ولم يردعهم شخص الإمام علي عليه السلام المعروف بدوران الحق معه على لسان النبي صلى الله عليه وآله، ولا يمكن فهم هذه العبارات على غير هذا الأساس، إذ مـن غـير المعقـول أن يشـمل الـذم عامـة النـاس مجـرمهم وبريئهم، بل من الغريب ما يتردد اليوم من الإيغال في تعميم هذه الذموم، وهـي عبارات تتكرر على أهل العراق وعلى أهـل الكوفـة. والحـال، إن الإمـام عليـه السلام تارة يحمد لموقف الفضيلة وأخرى يذم لموقف السـوء، وهـو أمـر طبيعـي انطلق به من مبدأ الثواب والعقاب.

ولا يخفى ما في عبـارات الخطبـة مـن تقريـع وذم، شمـل وصـفا لجـانبين أحدهما معنوي والآخر مادي. أما الأول فيتعلق بالأخلاق وهي:

الانقياد الأعمى: إذ وصفهم بأتباع البهيمة التي يعـني بهـا (الجمـل) الـذي استقتلوا في الدفاع عنه كما يستقتل المحارب في الدفاع عن الراية.

الخلق السيئ: ووصفه باللؤم بقوله (أخلاقكـم دقـاق)، وفـى الحـديث أن

(1) نهج البلاغة: 1/ 44- 46.

رجلا قال له: يا رسول الله إني أحب أن أنكح فلانة، إلا أن في أخلاق أهلها دقة، فقال له: " إياك وخضراء الدمن، إياك والمرأة الحسناء في منبت السوء "[1].

الغدر: وهو في قوله: "وعهدكم شقاق" يقول: ((عهدكم وذمتكم لا يوثق بها، بل هي وإن كانت في الصورة عهدا أو ذمة، فإنها في المعنى خلاف وعداوة))[2].

أما الصفات المادية التي استغلها الإمام عليه السلام مناسبة تتوافق وذم هؤلاء القوم الذين ظاهروه وخرجوا عليه فهي في صفات تتعلق بالطبيعة الخشنة للمدينة، فقال:

- "وماؤكم زعاق"، أي ملح، ((وهذا وإن لم يكن من أفعالهم إلا أنه مما تذم به المدينة، كما قال:

بلاد بها الحمى وأسد عرينة   وفيها المعلى يعتدى ويجور
فإني لمن قد حل فيها لراحم   وإني لمن لم يأتها لنذير

ولا ذنب لأهلها في أنها بلاد الحمى والسباع))[3].

السكن والإقامة: ووصف المقيم بين أظهرهم بأنه مرتهن بذنبه، لأنه إما أن يشاركهم في الذنوب أو يراها فلا ينكرها. وهذا ما يؤيد كلامنا الآنف الذكر من

(1) غريب الحديث، ابن سلام: 3/ 99.
(2) شرح نهج البلاغة، ابن أبي الحديد: 1/ 252- 253.
(3) شرح نهج البلاغة، ابن أبي الحديد: 1/ 252- 253.

قصد الإمام بالذم لمن حاربوه في وقتها، وليس كما يبدو من ظاهر العبارة مثل (قال في ذم أهل البصرة).

الموقع الجغرافي: وأعني به القرب من الماء الذي أراد به الإمام عليه السلام القرب من الغرق، بدليل ما جاء بعده من تنبؤ بالمستقبل أخبر عنه، وإلا فمدن العالم كلها إنما أقيمت على أساس قربها من الماء، بل وذلك سر تطورها في كثير من الأحيان.

أما بعدها عن السماء فهو من أعجب ما يتخيل في التعبير، لأنه مزج بين المعنى المجازي الذي يعني بعدهم عن رحمة الله تعالى- وإن كان ابن أبي الحديد يرى المعنى العلمي هنا- والمعنى الحقيقي في كونها واقعة علمية ((فإن أرباب علم الهيئة وصناعة التنجيم يذكرون أن أبعد موضع في الأرض عن السماء الأبلة، وذلك موافق لقوله عليه السلام. ومعنى البعد عن السماء هاهنا هو بعد تلك الأرض المخصوصة عن دائرة معدل النهار والبقاع، والبلاد تختلف في ذلك. وقد دلت الأرصاد والآلات النجومية على أن أبعد موضع في المعمورة عن دائرة معدل النهار هو الأبلة، والأبلة هي قصبة البصرة.

وهذا الموضع من خصائص أمير المؤمنين عليه السلام، لأنه أخبر عن أمر لا تعرفه العرب، ولا تهتدي إليه، وهو مخصوص بالمدققين من الحكماء. وهذا من أسراره وغرائبه البديعة)) [1].

(1) نفسه: 1/ 268.

وارتبط إخبار الإمام عليه السلام عن مستقبل البصرة بهذه الحادثة- معركة الجمل- فغالبا ما يعقب ذكرها ذكر ما ستؤول إليه البصرة من نكبات وكوارث مختلفة حدث عنها بشكل تفصيلي أحيانا أو بإيماءة أحيانا أخرى، ومنها ما جاء ذكره في شاهدنا هذا فقد تحدث عليه السلام عن غرق البصرة بقوله: ((كأني بمسجدكم كجؤجؤ سفينة، قد بعث الله عليها العذاب من فوقها ومن تحتها وغرق من في ضمنها. وأيم الله لتغرقن بلدتكم حتى كأني أنظر إلى مسجدها كجؤجؤ سفينة أو نعامة جاثمة))(1)، والجؤجؤ هو عظم الصدر، وجؤجؤ السفينة: صدرها. قال ابن أبي الحديد: ((فأما إخباره عليه السلام أن البصرة تغرق عدا المسجد الجامع بها، فقد رأيت من يذكر أن كتب الملاحم تدل على أن البصرة تهلك بالماء الأسود ينفجر من أرضها، فتغرق ويبقى مسجدها. والصحيح أن المخبر به قد وقع، فإن البصرة غرقت مرتين، مرة في أيام القادر، بالله ومرة في أيام القائم بأمر الله، غرقت بأجمعها ولم يبق منها إلا مسجدها الجامع بارزا بعضه كجؤجؤ الطائر، حسب ما أخبر به أمير المؤمنين عليه السلام، جاءها الماء من بحر فارس من جهة الموضع المعروف الآن بجزيرة الفرس، ومن جهة الجبل المعروف بجبل السنام، وخربت دورها، وغرق كل ما في ضمنها، وهلك كثير من أهلها. وأخبار هذين الغرقين معروفة عند أهل البصرة، يتناقلها خلفهم عن سلفهم))(2).

(1) نهج البلاغة: 1/ 44- 46.

(2) شرح نهج البلاغة، ابن أبي الحديد: 1/ 268.

وقال عليه السلام في إخبار آخر: ((ويل لسكككم العامرة والدور المزخرفة، التي لها أجنحة كأجنحة النسور، وخراطيم كخراطيم الفيلة، من أولئك الذين لا يندب قتيلهم، ولا يفقد غائبهم. إنا كاب الدنيا لوجهها، وقادرها بقدرها، وناظرها بعينها))[1].

يومئ الإمام عليه السلام إلى الخراب الذي يصيب البصرة في سككها العامرة وهي الطرق المستوية إذ يأتي على ترفها في العمران وتزيين الدور بالزخرف والذهب، فأجنحة الدور وهي الرواشن شبهها بأجنحة النسور، والخراطيم هي ميازيبها ((وقيل إن الجناح والروشن يشتركان في إخراج الخشب من حائط الدار إلى الطريق بحيث لا يصل إلى جدار آخر يقابله وإلا فهو الساباط، ويختلفان في أن الجناح توضع له أعمدة من الطريق بخلاف الروشن، وخراطيمها ما يعمل من الأخشاب والبواري بارزة عن السقوف لوقاية الغرف عن الأمطار وشعاع الشمس. أو الخراطيم هي الميازيب تطلى بالقار على طول نحو خمسة أذرع أو أزيد))[2].

وأنذر بالويل بضمير الإشارة البعيد (أولئك) إلى (الزنج)، وفصل الكلام في صفاتهم فقال:

---

(1) نهج البلاغة: 1/ 44- 46.

(2) نفسه: 2/ 9- 10.

" لا يندب قتيلهم": ((وذلك لان أكثر الزنج الذين أشار إليهم، كانوا عبيدا لدهاقين البصرة وبناتها، ولم يكونوا ذوي زوجات وأولاد، بل كانوا على هيئة الشطار عزابا فلا نادبة لهم))[1].

وقال: "ولا يفقد غائبهم" ويريد به كثرتهم وأنهم كلما قتل منهم قتيل سد مسده غيره، فلا يظهر أثر فقده[2].

وفتنة صاحب الزنج معروفة في تاريخ البصرة، وهو علي بن محمد ابن عبد الرحيم من بني عبد القيس ادعى أنه علوي من أبناء محمد بن أحمد بن عيسى ابن زيد بن علي بن الحسين، وكان يسمى بالبرقعي لأنه كان يمشي متبرقعا[3]، ولد ونشأ في ورزنين، إحدى قرى الري، والتف حوله سودان أهل البصرة ورعاعها، الذين كانوا يسكنون السباخ في نواحي البصرة، فامتلكها واستولى على الأبلة عنوة وفتك بأهلها، واستفحل أمره وانتشرت أصحابه في أطراف البلاد للسلب والنهب، وخرج بهم على المهتدي العباسي في سنة خمس وخمسين ومائتين واستولى على عبادان والأهواز وأغار على واسط، وبلغ عدد جيشه ثمانمائة ألف مقاتل، وجعل مقامه في قصر اتخذه بالمختارة، وتتابعت لقتاله

(1) شرح نهج البلاغة، ابن أبي الحديد: 8/ 125– 128.

(2) ظ.المصدر نفسه.

(3) شرح مئة كلمة لأمير المؤمنين، ابن ميثم البحراني: 244.

الجيوش، فكان يظهر عليها ويشتتها، وعجز عن قتاله الخلفاء، حتى ظفر به الموفق بالله- أخو الخليفة المعتمد- فقتله، وبعث برأسه إلى بغداد سنة سبعين ومائتين، وفرح الناس بقتله لانكشاف رزئه عنهم[1].

وأما قوله: " أنا كاب الدنيا لوجهها " فهو يشبه الكلمات المحكية عن عيسى عليه السلام: ((إني أكببت الدنيا لوجهها وقعدت على ظهرها فليس لي ولد يموت ولا بيت يخرب قالوا له أفلا نتخذ لك بيتا قال ابنوا لي على سبيل الطريق بيتا قالوا لا يثبت قالوا أفلا نتخذ لك زوجة قال ما أصنع بزوجة تموت))[2].

وفي إشارة إلى ملحمة أخرى قال الإمام عليه السلام: ((فتن كقطع الليل المظلم، لا تقوم لها قائمة، ولا ترد لها راية، تأتيكم مزمومة مرحولة يحفزها قائدها، ويجهدها راكبها، أهلها قوم شديد كلبهم، قليل سلبهم، يجاهدهم في الله قوم أذلة عند المتكبرين، في الأرض مجهولون، وفي السماء معروفون، فويل لك يا بصرة عند ذلك من جيش من نقم الله! لا رهج له ولا حس، وسيبتلى أهلك بالموت الأحمر، والجوع الأغبر)) [3].

وقد بين الإمام صفات هذه الفتنة فهي:

---

(1) ظ.تاريخ الطبري، الطبري: 7/ 561، الكامل في التاريخ، ابن الأثير: 7/ 206، عمدة الطالب، ابن عنبة: 291، الأعلام، الزركلي: 4/ 324.

(2) الدر المنثور، جلال الدين السيوطي: 2/ 27، بحار الأنوار،العلامة المجلسي: 14/ 327، شرح نهج البلاغة ،ابن أبي الحديد: 8/ 125- 128.

(3) شرح نهج البلاغة، ابن أبي الحديد: 7/ 102- 104.

- فتن مظلمة كقطع الليل لا يبين منها الحق من الباطل. ولشدة الخفاء وصفها بذلك وهو كقوله تعالى: ﴿ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ ﴾[1].
- وهي شديدة الفتك لا يقوى أحد على الثبات بوجهها كما في قوله عليه السلام: " لا تقوم لها قائمة "، ((أي لا تنهض بحربها فئة ناهضة، أو لا تقوم لتلك الفتن قائمة من قوائم الخيل، يعنى لا سبيل إلى قتال أهلها، ولا يقوم لها قلعة قائمة أو بنية قائمة بل تنهدم))[2]. وهي بعد: " لا يرد لها راية "، أي لا تنهزم ولا تفر، لأنها إذا فرت فقد ردت على أعقابها.
- وهي كاملة العدة " مزمومة مرحولة "، أي تامة الأدوات كاملة الآلات، كالناقة التي عليها رحلها وزمامها قد استعدت لان تركب.
- وهذه الفتنة يجتهد أربابها في إضرام نارها. ويحمل عليها في السير فوق طاقتها، رجلا وفرسانا، فالرجل كنى عنهم بالقائد، والفرسان كنى عنهم بالراكب.
- وهؤلاء " قليل سلبهم " أي همهم القتل لا السلب مبالغة في شدة أذاها ونكالها.

كما قال أبو تمام:

إن الأسود أسود الغاب همتها   يوم الكريهة في المسلوب لا السلب

ثم ذكر عليه السلام أن هؤلاء أرباب الفتن يجاهدهم قوم أذلة، كما قال

(1) هود: 81.

(2) شرح نهج البلاغة، ابن أبي الحديد: 7/ 102- 104.

الله تعالى: ﴿أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾[1]، وذلك من صفات المؤمنين. ثم قال: هم مجهولون عند أهل الأرض لخمولهم قبل هذا الجهاد، ولكنهم معروفون عند أهل السماء، وهذا إنذار بملحمة تجرى في آخر الزمان، وقد أخبر النبي صلى الله عليه وآله بنحو ذلك.

ثم أخبر بهلاك البصرة بجيش من نقم الله لا رهج له ولا حس، الرهج: الغبار، وكنى بهذا الجيش عن جدب وطاعون يصيب أهلها حتى يبيدهم. والموت الأحمر، كناية عن الوباء والجوع. الأغبر: كناية عن المحل، وسمى الموت الأحمر لشدته، ومنه الحديث: كنا إذا احمر البأس اتقينا برسول الله، ووصف الجوع بأنه أغبر، لان الجائع يرى الآفاق كأن عليها غبرة وظلاما، وفسر قوم هذا الكلام بوقعة صاحب الزنج، وهو بعيد، لان جيشه كان ذا حس ورهج، ولأنه أنذر البصرة بهذا الجيش عند حدوث تلك الفتن، ألا تراه قال: " فويل لك يا بصرة عند ذلك "، ولم يكن قبل خروج صاحب الزنج فتن شديدة على الصفات التي ذكرها أمير المؤمنين عليه السلام[2].

وأما على سبيل الإخبار إجمالا من دون تفصيل فقد وقع في قوله عليه السلام مخاطبا أهل البصرة على جهة اقتصاص الملاحم: ((فمن استطاع عند ذلك أن يعتقل نفسه على الله عز وجل فليفعل. فإن أطعتموني فإني حاملكم إن شاء الله على سبيل الجنة، وإن كان ذا مشقة شديدة ومذاقة مريرة))[3].ومعنى

(1) المائدة: 54.

(2) ظ.شرح نهج البلاغة، ابن أبي الحديد: 7/ 102- 104.

(3) نهج البلاغة: 2/ 47- 48.

قوله (يعتقل نفسه على الله) أي يحبسها على طاعته. ووصف (سبيل الجنة) بالمذاقة المريرة لأن الباطل محبوب النفوس، فإنه اللهو واللذة، وسقوط التكليف، وأما الحق فمكروه النفس، لان التكليف صعب وترك الملاذ العاجلة، شاق شديد المشقة.

وإخبارات الإمام عليه السلام ليست من الغيب في شيء بحسب ما ذكر الإمام نفسه، بل هي (تعلم من ذي علم) أي من علم ابن عمه الرسول صلى الله عليه وآله بلغه إياه، فقد أثر عنه قوله مرارا: ((فاسألوني قبل أن تفقدوني، فو الذي نفسي بيده لا تسألونني عن شئ فيما بينكم وبين الساعة، ولا عن فئة تهدى مائة وتضل مائة إلا أنبأتكم بناعقها وقائدها وسائقها، ومناخ ركابها، ومحط رحالها، ومن يقتل من أهلها قتلا، ومن يموت منهم موتا))[1]. وقد سجل ابن أبي الحديد للإمام عليه السلام كثيرا من تلك المناقب ما استحق أن ينقل بنصه: ((وهذه الدعوى ليست منه عليه عليه السلام ادعاء الربوبية، ولا ادعاء النبوة، ولكنه كان يقول: إن رسول الله صلى الله عليه وآله أخبره بذلك، ولقد امتحنا إخباره فوجدناه موافقا، فاستدللنا بذلك على صدق الدعوى المذكورة، كإخباره عن الضربة التي يضرب بها في رأسه فتخضب لحيته، وإخباره عن قتل الحسين ابنه عليهما السلام، وما قاله في كربلاء حيث مر بها، وإخباره بملك معاوية الامر من بعده، وإخباره عن الحجاج، وعن يوسف بن عمر، وما أخبر به من أمر الخوارج بالنهروان، وما قدمه إلى أصحابه من إخباره بقتل من يقتل منهم، وصلب من يصلب، وإخباره بقتال الناكثين والقاسطين والمارقين، وإخباره

(1) شرح نهج البلاغة، ابن أبي الحديد: 7/ 44.

بعدة الجيش الوارد إليه من الكوفة لما شخص عليه السلام إلى البصرة لحرب أهلها، وإخباره عن عبد الله بن الزبير، وقوله فيه: " خب ضب، يروم أمرا ولا يدركه، ينصب حبالة الدين لاصطياد الدنيا، وهو بعد مصلوب قريش". وكإخباره عن هلاك البصرة، بالغرق وهلاكها تارة أخرى بالزنج، وهو الذي صحفه قوم فقالوا: بالريح، وكإخباره عن ظهور الرايات السود من خراسان، وتنصيصه على قوم من أهلها يعرفون ببني رزيق، بتقديم المهملة، وهم آل مصعب الذين منهم طاهر بن الحسين وولده وإسحاق بن إبراهيم، وكانوا هم وسلفهم دعاة الدولة العباسية، وكإخباره عن الأئمة الذين ظهروا من ولده بطبرستان، كالناصر والداعي وغيرهما، في قوله عليه السلام: " وإن لآل محمد بالطالقان لكنزا سيظهره الله إذا شاء دعاؤه حق يقوم بإذن الله فيدعو إلى دين الله، وكإخباره عن مقتل النفس الزكية بالمدينة، وقوله: " إنه يقتل عند أحجار الزيت"، وكقوله عن أخيه إبراهيم المقتول بباب حمزة: " يقتل بعد أن يظهر، ويقهر بعد أن يقهر"، وقوله فيه أيضا: " يأتيه سهم غرب يكون فيه منيته فيا بؤسا للرامي! شلت يده، ووهن عضده"، وكإخباره عن قتلى وجّ، وقوله فيهم: " هم خير أهل الأرض". وكإخباره عن المملكة العلوية بالغرب، وتصريحه بذكر كتامة، وهم الذين نصروا أبا عبد الله الداعي المعلم. وكقوله وهو يشير إلى أبى عبد الله المهدى: وهو أولهم ثم يظهر صاحب القيروان الغض البض، ذو النسب المحض، المنتجب من سلالة ذي البداء، المسجى بالرداء، وكان عبيد الله المهدى أبيض مترفا مشربا بحمرة، رخص البدن، تار الأطراف. وذو البداء إسماعيل بن جعفر بن محمد عليهما السلام، وهو المسجى بالرداء، لان أباه أبا عبد الله جعفرا سجاه بردائه لما مات، وأدخل إليه وجوه الشيعة يشاهدونه، ليعلموا موته، وتزول عنهم

الشبهة في أمره. وكإخباره عن بنى بويه وقوله فيهم: " ويخرج من ديلمان بنو الصياد "، إشارة إليهم. وكان أبوهم صياد السمك يصيد منه بيده ما يتقوت هو وعياله بثمنه، فأخرج الله تعالى من ولده لصلبه ملوكا ثلاثة، ونشر ذريتهم حتى ضربت الأمثال بملكهم. وكقوله عليه السلام فيهم: " ثم يستشري أمرهم حتى يملكوا الزوراء، ويخلعوا الخلفاء ". فقال له قائل: فكم مدتهم يا أمير المؤمنين؟ فقال: " مائة أو تزيد قليلا ". وكقوله فيهم: و"المترف ابن الأجذم، يقتله ابن عمه على دجلة "، وهو إشارة إلى عز الدولة بختيار بن معز الدولة أبى الحسين، وكان معز الدولة أقطع اليد، قطعت يده للنكوص في الحرب، وكان ابنه عز الدولة بختيار مترفا، صاحب لهو وشرب، وقتله عضد الدولة فناخسرو، ابن عمه بقصر الجص على دجلة في الحرب، وسلبه ملكه، فأما خلعهم للخلفاء فإن معز الدولة خلع المستكفي، ورتب عوضه المطيع، وبهاء الدولة أبا نصر بن عضد الدولة، خلع الطائع ورتب عوضه القادر، وكانت مدة ملكهم كما أخبر به عليه السلام. وكإخباره عليه السلام لعبد الله بن العباس رحمه الله تعالى عن انتقال الامر إلى أولاده، فإن علي بن عبد الله لما ولد، أخرجه أبوه عبد الله إلى علي عليه السلام، فأخذه وتفل في فيه وحنكه بتمرة قد لاكها، ودفعه إليه، وقال: خذ إليك أبا الأملاك))[1].

ويبدو أن البصرة لم تهدأ بعد حرب الجمل، إذ ظلت الأخبار التي تصل الإمام عليه السلام غير مطمئنة بذلك، الأمر الذي حمل الإمام عليه السلام على إبلاغ أهلها بتطبيق مبدأ الثواب للمطيعين والعقاب للعاصين بأسلوب صريح،

(1) الغارات، الثقفي: 2/ 679، شرح نهج البلاغة، ابن أبي الحديد: 7/ 44.

فمن كتاب له عليه السلام إلى أهل البصرة ذكر فيه ((وقد كان من انتشار حبلكم وشقاقكم ما لم تغبوا عنه، فعفوت عن مجرمكم، ورفعت السيف عن مدبركم، وقبلت من مقبلكم، فإن خطت بكم الأمور المردية، وسفه الآراء الجائرة، إلى منابذتي وخلافي، فهأنذا قد قربت جيادي، ورحلت ركابي. ولئن ألجأتموني إلى المسير إليكم لأوقعن بكم وقعة لا يكون يوم الجمل إليها إلا كلعقة لاعق، مع أني عارف لذي الطاعة منكم فضله، و لذي النصيحة حقه، غير متجاوز متهما إلى بري، ولا ناكثا إلى وفي))[1].

وفي كلام الإمام حدة واضحة سبقتها تقريرات بينة للخارجين عليه، تمثلت بتذكيرهم بما فعلوا من شق للصف وسفك للدم، وما قابلهم عليه السلام من عفو، ويمكن تبيان ما يخفى وراء التعبير باستعمال الفعل (تغبوا)- من الغباوة والتغافل- من تعريض وإدانة واضحين. مثلما توضح المقابلات التعبيرية من عظمة التسامح التي انطوت عليها نفس الإمام عليه السلام، وقبح نفوس الخارجين عليه من إلحاح على الجرم (عفوت، رفعت، قبلت) مقابل (مجرمكم، مدبركم، مقبلكم أي المعتذر غير الفار). وغالبا ما تأتي استعمالات أساليب الشرط في تعبيرات الإمام بمعاني التهديد والوعيد كما في قوله (فإن خطت... فهاأنذا قد قربت..) وتعني الاستعداد بخطوة للخروج على الطاعة مرة ثانية وفي المقابل كان جواب الشرط أنه سيقرب جياده ويرحل إبله وهي كنايات واضحة عن الحرب والردع. وأما قوله (ولئن ألجأتموني.. لأوقعن). فهو من أشد التعبيرات تهديدا، لذلك جاء جواب الشرط قويا في الردع والعقوبة في حال

(1) نهج البلاغة: 3/ 36.

وقوع شرطه (لأوقعن بكم وقعة لا يكون يـوم الجمـل إليهـا إلا كلعقـة لاعـق) ولعقة لاعق، مثل يضرب للشئ الحقير التافه، ويروى بضم اللام، وهي ما تأخذه الملعقة.

والتصريح بهذه الشدة له ما يـبرره، لأنـه كـان دقيـق الاسـتعمال بالفعـل (ألجأتموني) التي لا تبقي خيارا آخر للإمام عليه السلام غير الشدة.

ولكن الإمام عليه السـلام خـتم كلامـه بإيثـار طبعـه اللـين فعـاد ليمـزج الخشـونة بـاللين فقـال (مـع أنـي عـارف فضـل ذي الطاعـة مـنكم، وحـق ذي النصيحة، ولو عاقبت لما عاقبت الـبرئ بالسـقيم، ولا أخـذت الـوفي بالناكـث). ومن طريف ما يذكر هنا مقارنة ابـن أبـي الحديـد موقـف الإمـام عليـه السـلام بموقف زياد بن ابيه وتهديده في خطبته المشهورة بالبصرة، وقال فيها: (("لآخـذن الولي بالولي، والمقيم بالظاعن، والمقبل بالمدبر، والصحيح بالسقيم، حتـى يلقـى الرجل منكم أخاه فيقول: انج سعد فقد هلك سـعيد، أو تسـتقيم لـي قنـاتكم". فقام أبو بلال مرداس ابن أدية يهمس، وهو حينئذ شيخ كبير، فقال: أيها الأمـير، أنبأنا الله بخلاف ما قلت، وحكم بغير ما حكمت، قال سبحانه: (ولا تـزر وازرة وزر أخرى)، فقال زياد: يا أبا بلال، إني لم أجهل ما علمت، ولكنا لا نخلص إلى الحق منكم حتى نخوض إليه الباطل خوضا))[1].

(1) شرح نهج البلاغة، ابن أبي الحديد: 16/ 3- 5.

المبحث الثاني

رجال البصرة

ثمة شخصيات بصرية ذكرت ضمنا أوتصريحا في نهج البلاغة، ولكل منهما شاهد وهما:

أولا: كليب الجرمي

وهو منسوب إلى بنى جرم بن ربان بن حلوان بن عمران بن الحاف ابن قضاعة، من حمير. وكان هذا الرجل بعثه قوم من أهل البصرة إلى الإمام عليه السلام يستعلم حاله: أهو على حجة أم على شبهة؟ فلما رآه عليه السلام، وسمع لفظه، علم صدقه وبرهانه، فكان بينهما هذا الحوار الذي مهد له بهذه المقدمة في نهج البلاغة ((من كلام له عليه السلام كلم به بعض العرب وقد أرسله قوم من أهل البصرة لما قرب عليه السلام منها، ليعلم لهم منه حقيقة حاله مع أصحاب الجمل لتزول الشبهة من نفوسهم، فبين له عليه السلام من أمره معهم ما علم به أنه على الحق، ثم قال له: بايع، فقال: إني رسول قوم ولا أحدث حدثا حتى أرجع إليهم. فقال عليه السلام: أرأيت لو أن الذين وراءك بعثوك رائدا تبتغي لهم مساقط الغيث فرجعت إليهم وأخبرتهم عن الكلأ والماء فخالفوا إلى المعاطش والمجادب ما كنت صانعا ؟ قال: كنت تاركهم ومخالفهم إلى الكلأ والماء. فقال عليه السلام: فامدد إذا يدك. فقال الرجل: فوالله ما استطعت أن أمتنع عند قيام الحجة علي، فبايعته عليه السلام))[1]. ولا شئ ألطف

(1) نهج البلاغة: 2/ 83.

ولا أوقع ولا أوضح من المثال الـذي ضـربه عليـه السـلام، وهـو حجـة لازمـة لا مدفع لها [1].

ومن الواضح الذي لا لبس فيه أن الإمام عليه السلام يـؤثر الحـوار دائمـا قبل الالتجاء إلى القوة، ذلك بين في خطب صفين والنهروان أيضا، وفي الواقع ما إن تجد كلماته آذانا صاغية حتى تؤمن بالحجة التي تلقى وتنصاع عن الغـي كمـا حدث في فتنة النهروان مع الخوارج حين رجع كثير منهم عن غيهم، وكما حدث في البصرة مع الزبير حين حاججه الإمام عليه السلام، الأمر الذي لم يملـك معـه الزبير سوى اعتزال الحرب بعد أن كان زعيمها.

ثانيا: بنو تميم

ذكرهم الإمام صراحة في كتاب بعثه إلى عامله علـى البصـرة عبـد الله بـن عباس يحذره: ((اعلم أن البصرة مهبط إبلـيس ومغـرس الفـتن، فحـادث أهلـها بالاحسان إليهم، واحلل عقدة الخوف عن قلوبهم وقد بلغـني تنمـرك لـبني تمـيم وغلظتك عليهم، وإن بني تميم لم يغب لهم نجم إلا طلع لهم آخر، وإنهم لم يسبقوا بوغم في جاهلية ولا إسلام. وإن لهم بنا رحما ماسة وقرابة خاصة نحن مـأجورون على صلتها ومأزورون على قطيعتها. فأربع أبا العبـاس رحمـك الله فيمـا جـرى على لسانك ويدك من خير وشر فإنا شريكان في ذلك، وكـن عنـد صـالح ظـني بك، ولا يفيلن رأيي فيك. والسلام)).[2]

---

(1) ظ.شرح نهج البلاغة، ابن أبي الحديد: 9/ 299- 300.

(2) نهج البلاغة: 3/ 18.

وفي كلام الإمام عليه السلام إشارة واضحة إلى طبيعة ما تخلفه الفتن من عقد الخوف وتكميم الأفواه، والفتن عادة ما تستعر في المجتمعات الحية والمؤثرة مثل الكوفة والبصرة، فهي محل الحراك الاجتماعي والغليان الفكري، ومن هنا اجتهد الطغاة على مر العصور من أجل تفرق الشمل وصدع الصف بإحداث الفتن في هذه المدن المتنوعة الفكر والتوجهات والطيف الاجتماعي، ولذلك يوصي الإمام عليه السلام عامله بالتلطف في معاملة أهل البصرة (فحادث أهلها بالإحسان إليهم) ليكون ذلك مدعاة لبث الطمأنينة في النفس والتعبير بحرية عن الرأي (واحلل عقدة الخوف عن قلوبهم).

ثم خلص من ذلك إلى ذكر بني تميم ونهى عامله عن الغلظة معهم وعبر عنه (بالتنمر) لما في هذا الحيوان من جرأة ووثوب، وخصهم بالذكر في حسن المعاملة لما لهم من ثقل اجتماعي في البصرة ولخص مزاياهم بما يأتي:

كثرة العدد:

وعبر عنه الإمام بقوله: (وإن بني تميم لم يغب لهم نجم إلا طلع لهم آخر): وهو كناية عن كثرة العدد وقوة الحضور الاجتماعي وثقل شخصيات هذه الأسرة، حتى قيل إنها عدلت مضر بذلك وملأت السهل والجبل، ومنهم بنو كعب بن سعد بن زيد الذي يسمى بسعد الأكثرين الذي قيل المثل فيه (في كل واد سعد)[1]، وفيهم قال الفرزدق[2]:

لو كنت تعلم ما برمل مويسل ... فقرى عمان إلى ذوات حجور

(1) ظ. مجمع الأمثال، الميداني: 2/ 83.

(2) ديوان الفرزدق: 85.

لعلمت أن قبائـــــلا وقبـائلا مـــن آل سعـــــــــد لم تـــدن لأمـــير

ولهم مفاخر كثيرة سجلها لهم التاريخ والأدب فقد ذكر أن المنذر بن المنذر بن ماء السماء قال ذات يوم وعنده وفود العرب ودعا ببردي أبيه محرق بن المنذر فقال ليلبس هذين أعز العرب وأكرمهم حسبا. فأحجم الناس، فقال أحيمـر بـن خلف بن بهدلة بن عوف بن كعب بن سعد بن زيد مناه بن تميم: أنا لهمـا، قـال: الملك: بماذا؟ قال: بأن مضر أكـرم العـرب وأعزهـا وأكثرهـا عديـدا، وأن تميمـا كاهلها وأكثرها، وأن بيتها وعددها في بني بهدلة بن عوف، وهـو جـدي. فقـال: هذا أنت في أصلك وعشيرتك، فكيف أنت في عترتـك وأدانيـك! قـال: أنـا أبـو عشرة، وأخو عشرة، وعم عشرة. فدفعهما إليه[1].

الشجاعة والحمية:

وكنى عنها الإمام بقوله (وإنهم لم يسبقوا بـوغم في جاهليـة ولا إسـلام)، والوغم هو الترة وجمعه أوغام أي ترات، ومراد الإمـام أنهـم لم يهـدر لهـم دم في جاهلية ولا إسلام شجاعة منهم وحمية فيما بينهم. ذكر أن الفرزدق دخـل علـى سليمان بن عبد الملك، وكان يشـنؤه لكثـرة بـأوه وفخـره، فتهجمـه وتنكـر لـه، وأغلظ في خطابه حتى قـال: مـن أنـت لا أم لـك! قـال: أومـا تعـرفني يـا أمـير المؤمنين؟ أنا من حي هم من أوفـى العـرب، وأحلـم العـرب، وأسـود العـرب، وأجود العرب وأشجع العرب، وأشعر العرب. فقال سليمان: والله لتحـتجن لمـا ذكرت أو لأوجعن ظهرك، ولأبعدن دارك. قال: أما أوفى العـرب فحاجـب بـن

(1) ظ. شرح نهج البلاغة، ابن أبي الحديد: 15/ 127، تاج العروس، الزبيدي: 4/ 352.

زرارة، رهن قوسه عن العرب كلها وأوفى. وأما أحلم العرب فالأحنف بن قيس يضرب به المثل حلما، وأما أسود العرب فقيس بن عاصم، قال له رسول الله صلى الله عليه وآله: "هذا سيد أهل الوبر"، وأما أشجع العرب فالحريش بن هلال السعدي، وأما أجود العرب فخالد بن عتاب ابن ورقاء الرياحي، وأما أشعر العرب فها أنا ذا عندك ! قال سليمان: فما جاء بك ؟ لا شئ لك عندنا، فارجع على عقبك، وغمه ما سمع من عزه، ولم يستطع له ردا [1]، فقال الفرزدق في أبيات [2]:

أتيناك لا من حاجة عرضت لنا   إليك ولا من قلة في مجاشع

صلة الرحم:

وعبر عنها الإمام عليه السلام بقوله (وإن لهم بنا رحما ماسة وقرابة خاصة نحن مأجورون على صلتها ومأزورون على قطيعتها)، ويبدو أن الرحم التي يعنيها الإمام عليه السلام من جهات عدة وليس من جهة واحدة كما ذكر ابن أبي الحديدد، فمن جهة المطلب بن عبد مناف، زواجه من أم الحارث بنت الحارث بن سليط اليربوعية،[3] ومن جهة خديجة بنت خويلد عليها السلام، لأنها ((كانت قبل النبي صلى الله عليه وآله تحت أبي هالة- نباش بن زرارة أحد بني عمرو بن تميم- فولدت له هندا، ثم تزوجها رسول الله صلى الله عليه وآله

(1) ظ. شرح نهج البلاغة، ابن أبي الحديد: 15/ 125- 132.

(2) ديوان الفرزدق: 112.

(3) ظ. قبيلة تميم ودورها في التاريخ العربي قبل الإسلام (أطروحة دكتوراه)، سعيد جبار: 68.

وهند بن أبي هالة غلام صغير، فتبناه النبي صلى الله عليه وآله، ثم ولدت خديجة من رسول الله صلى الله عليه وآله القاسم والطاهر وزينب ورقية وأم كلثوم وفاطمة، فكان هند بن أبي هالة أخاهم لأمهم، ثم أولد هند بن أبي هالة هند بن هند، فهند الثاني أكرم الناس جدا وجدة، يعني رسول الله صلى الله عليه وآله وخديجة، وأكرم الناس عما وعمة- يعني بني النبي صلى الله عليه وآله وبناته))[1]. وتعبير الإمام عليه السلام (مازورون) عدول صرفي ليقابل به (مأجورون)، وهو مأخوذ من قول النبي صلى الله عليه وآله ((ارجعن مأجورات غير مأزورات))[2].

ومن رائع ما يذكر بشأن مراسلات الإمام عليه السلام لعماله على الأمصار مراقبته لهم- كما سيتضح- نتلمسه بقوله (وقد بلغني)، الذي يتعمد الإمام عليه السلام في إشعار عامله بذلك.

وما أحوج عالمنا السياسي اليوم بتمثل هذه القيم الرفيعة لاسيما في قوله عليه السلام: " فأربع أبا العباس "، أي ((قف وتثبت في جميع ما تعتمده فعلا وقولا من خير وشر، ولا تعجل به فإني شريكك فيه إذ أنت عاملي والنائب عني. ويعني بالشر هاهنا الضرر فقط، لا الظلم والفعل القبيح))[3].

ومن جديد التعبيرات الفنية عند الإمام عليه السلام قوله: "وكن عند

(1) ظ. شرح نهج البلاغة، ابن أبي الحديد: 15/ 125- 132.

(2) المثل السائر، ابن الأثير: 1/ 274.

(3) شرح نهج البلاغة، ابن أبي الحديد: 15/ 125- 132.

صالح ظني فيك"، أي كن واقفا عنده كأنك تشاهده فتمنعك مشاهدته عن فعل ما لا يجوز[1].

ثالثا: العلاء بن زياد الحارثي

وهو من أصحاب الإمام علي عليه السلام، ويبدو أنه من الموسرين من أهل البصرة، فقد جاء في نهج البلاغة أنه عليه السلام ((دخل على العلاء بن زياد الحارثي في البصرة يعوده فلما رأى سعة داره قال ما كنت تصنع بسعة هذه الدار في الدنيا. أما أنت إليها في الآخرة كنت أحوج، وبلى إن شئت بلغت بها الآخرة تقري فيها الضيف وتصل فيها الرحم، وتطلع منها الحقوق مطالعها، فإذا أنت قد بلغت بها الآخرة. فقال له العلاء: يا أمير المؤمنين أشكوا إليك أخي عاصم بن زياد. قال: وما له ؟ قال: لبس العباءة وتخلى عن الدنيا. قال علي به. فلما جاء قال: يا عدي نفسه لقد استهام بك الخبيث، أما رحمت أهلك وولدك. أترى الله أحل لك الطيبات وهو يكره أن تأخذها ؟ أنت أهون على الله من ذلك. قال: يا أمير المؤمنين هذا أنت في خشونة ملبسك وجشوبة مأكلك. قال: ويحك إني لست كأنت، إن الله فرض على أئمة العدل أن يقدروا أنفسهم بضعفة الناس كيلا يتبيغ بالفقير فقره))[2].

وفي هذه الحوارية مضامين في غاية الأهمية، تتعلق بفلسفة الإمام عليه السلام إزاء الحياة الدنيا، أهي كما يشاع التخلي الواضح عما أنعم الله على

---

(1) نفسه.

(2) نهج البلاغة: 2/ 187- 188.

الناس من حق التنعم بالحياة وعمارتها كما فعل عاصم بن زياد؟ من إجابة الإمام عليه السلام واستنكاره لهذا العزوف عن الدنيا عزوفا غير بناء نستطيع تبيان الفلسفة الإسلامية الحقة لطبيعة التعاطي مع قصة الحياة، تلك الطبيعة التي شوهت بشكل أعمى إلى هذا اليوم الذي يعد كثير من المسلمين مثل فعل عاصم هو التقرب الحقيقي إلى الله تعالى. ولذلك مثل هذا الفهم المغلوط التبس على عاصم فظن أن فعل الإمام عليه السلام في زهده هو نتاج الإعراض السلبي عن الحياة. والإمام عليه السلام، في الوقت الذي أشار فيه إلى الترف في سعة دار العلاء في الدنيا التي ينبغي أن تكون في الحياة الأبدية وهنا يعني بسعة الدار المعنى المجازي أو الذي يسبق هذا الاستحقاق من العمل الصالح والفوز برضوان الله تعالى، أقول في الوقت ذاته استدرك عليه السلام ولم ينكر مثل امتلاك دار واسعة بتعبير (بلى) بل جعلها سبيلا للنجاة والفوز بدار الآخرة الأبدي بشروط هي: إقراء الضيف وصلة الرحم وإخراج الحقوق في خلالها وهو معنى عام يمكن تخيله لقيم الفضيلة كلها كحل معضلات الناس بجمعهم في الدار بروح الأسرة الواحدة.

وأحسب أن هذا النظرة العميقة والعملية لشؤون الحياة هي التي أتاحت للعلاء أن يطرق موضوع أخيه الذي (لبس العباءة) كناية عن شدة الزهد واعتزال الحياة، لأنها جاءت مطابقة لمقتضى الحال الذي تكلم فيه الإمام عليه السلام عن سعة الدار. لذلك فجأ الإمام عليه السلام هذا الزاهد المتشدد على نفسه بغير هدى فقال عنه: (ياعدي نفسه) بصيغة التصغير التي تحمل أكثر من معنى كالتحقير أو التعظيم لعداوته لنفسه أو يفيد الشفقة والتحنن كما يقال يابني. ثم أردف هذا النداء بخطاب أكثر شدة ومفاجأة فقال (لقد استهام بك

الخبيث، أما رحمت أهلك وولدك) بمعنى ضلك الشيطان، وهي مفاجأة شديدة الوقع عليه كما يبدو لأنها مخالفة لفهمه للحياة معتقدا أن ذلك هو السبيل الصحيح في التقرب إلى الله، فكيف يقول له الإمام (أما رحمت أهلك وولدك). لذلك، كأن الإمام عليه السلام أشفق عليه فبين له بما لا يدع مجالا للريبة في الفهم، بصيغة إيقاظية ترج العقل رجا وتنبه منافذه تنبيها، فقال مبتدئا بالاستفهام الإنكاري (أترى الله أحل لك الطيبات وهو يكره أن تأخذها؟ أنت أهون على الله من ذلك) لأن الله تعالى حين أحل النعم للبشر لم تكن عن مجاملة أو محاباة مع الإضمار بعدمها كما يفعل الناس.

ولكن سلوك الإمام عليه السلام في الزهد باللباس الجيد والأكل المترف بمثابة تعبير واقعي مؤيد لسلوك عاصم، لذلك تجرأ في ضرب المثل بالإمام عليه السلام، فقال: (هذا أنت) أي كيف تحتج علي وأنت تعمل أكثر مني في خشونة الملبس وجشوبة المطعم أي الذي لا أدم معه. وبتعبير آخر (كيف تنهى عن شيء أنت تفعله). وهنا أعطى الإمام عليه السلام درسا للإنسانية عبر عصورها كلها حين قال (ويحك إني لست كأنت، إن الله فرض على أئمة العدل أن يقدروا أنفسهم بضعفة الناس كيلا يتبيغ بالفقير فقره) أي يشتبهوا ويمثلوا ((أي يجب على الإمام العادل أن يشبه نفسه في لباسه وطعامه بضعفة الناس- جمع ضعيف- لكيلا يهلك الفقراء من الناس فإنهم إذا رأوا امامهم بتلك الهيئة وبذلك المطعم كان ادعى لهم إلى سلوان لذات الدنيا والصبر عن شهوات النفوس))[1]. وذلك هو المثل الأعلى للقادة في تاريخ الإنسانية.

(1) شرح نهج البلاغة، ابن أبي الحديد: 11/ 33- 34.

المبحث الثالث

ولاة البصرة

ولى الإمام عليه السلام طوال مدة حكمه ذات الأربع سنوات ثلاثة أشخاص على البصرة، هم عثمان بن حنيف وعبد الله بن عباس وزياد بن أبيه على التوالي:

أولا: عثمان بن حنيف

هو أبو عمرو- وقيل أبو عبد الله- عثمان بن حنيف- بضم الحاء- بن وهب بن العكم بن ثعلبة بن الحارث الأنصاري ثم الأوسي، وهو أخو سهل بن حنيف، عامل الإمام عليه السلام على المدينة.

كان عاملا على الصدقة والجباية أيام عمر بن الخطاب إذ ولاه مساحة الأرض وجبايتها بالعراق، وضرب الخراج والجزية على أهلها. وفي خلافة الإمام علي عليه السلام هو أول عامل ولاه الإمام على البصرة، فأخرجه طلحة والزبير منها حين قدماها، وسكن عثمان الكوفة بعد وفاة علي عليه السلام، ومات بها في زمن معاوية سنة إحدى وأربعين للهجرة.

ارتبط اسمه كثيرا بالأحداث التي سبقت حرب الجمل كونه واليا للبصرة، إذ لم يسلمها متخاذلا ضعيفا، بل تفانى في الدفاع عنها وحماية خزينة المدينة- بيت المال- التي اجتهد الناكثون في الاستيلاء عليها وقتل الكثير من أصحاب عثمان بن حنيف، ذكر المسعودي في مروج الذهب ((بعد قدوم القوم إلى البصرة وما فعلوه بعثمان بن حنيف، قال: وأرادوا بيت المال فمانعهم الخزان والموكلون به

وهم السيابجة، فقتل منهم سبعون رجلا غير من جرح، وخمسون من السبعين ضرب رقابهم صبرا من بعد الأسر، وهؤلاء أول من قتل ظلما في الإسلام وصبرا، وقتلوا حكيم بن جبلة العبدي، وكان من سادات عبد القيس وزهاد ربيعة ونساكها))[1].

والسيابجة قوم جلداء من السند استعملوا في البصرة للحراسة أبوا أن يسلموا بيت المال دون الإمام علي عليه السلام فقتلوا جميعا مع رئيسهم أبي سالمة الزطي وكان عبدا صالحا[2]، والزط: جيل أسود من السند إليهم تنسب الثياب الزطية. وقيل: هو معرب "جت" بالهندية، وهم جيل من أهل الهند. وقيل: هم جنس من السودان والهنود، والواحد: زطي، مثل الزنج والزنجي والروم والرومي. وقيل: الزط: السيابجة، وهم قوم من السند كانوا بالبصرة.[3]

واتفق الطرفان على هدنة لحين وصول الإمام علي عليه السلام، ثم كانت ليلة ذات ريح وظلمة، فأقبل أصحاب طلحة، فقتلوا حرس عثمان بن حنيف ودخلوا عليه، فنتفوا لحيته وحاجبيه وجفون عينيه، وكادوا يقتلونه لولا أنه هددهم بأخيه سهل بن حنيف بقوله: ((إن أخي وال لعلي على المدينة، ولو

---

(1) مروج الذهب، المسعودي: 2/ 377- 367.

(2) ظ. أنساب الأشراف، البلاذري: 227 – 228، فتوح البلدان، البلاذري: 2/ 463، العين، الفراهيدي: 6/ 59.

(3) ظ.لسان العرب، ابن منظور: زطط ، الصحاح، الجوهري: زطط، ابن السكيت، ترتيب إصلاح المنطق.

قتلتموني لقتل من بالمدينة من أقارب طلحة والزبير))[1] فسجنوه وأخذوا بيت المال ثم أطلقوا سراحه على هذه الهيأة التي لقي بها أمير المؤمنين في ذي قار أثناء توجهه للبصرة فقال له: بعثتني شيخا وجئتك أمردا.[2]

ويبدو أن بيت المال في البصرة هدف مطموع فيه لما يضم من ثروة تمويلية قد يحتاجها الناكثون في قابل الأيام لتغطية نفقات حرب أعد لها جيدا وربما طالت أيامها، قال أبو الأسود الدؤلي- وهو من خلص أصحاب الإمام علي عليه السلام من أهل البصرة-: ((لما ظهر علي عليه السلام يوم الجمل، دخل بيت المال بالبصرة في ناس من المهاجرين والأنصار وأنا معهم، فلما رأى كثرة ما فيه، قال: غري غيري، مرارا، ثم نظر إلى المال، وصعد فيه بصره وصوب، وقال: اقسموه بين أصحابي خمسمائة، فقسم بينهم، فلا والذي بعث محمدا بالحق ما نقص درهما ولا زاد درهما، كأنه كان يعرف مبلغه ومقداره، وكان ستة آلاف ألف درهم، والناس اثنا عشر ألفا. حبه العرني، قسم علي عليه السلام بيت مال البصرة على أصحابه خمسمائة خمسمائة، وأخذ خمسمائة درهم كواحد منهم، فجاءه إنسان لم يحضر الوقعة، فقال: يا أمير المؤمنين، كنت شاهدا معك بقلبي، وإن غاب عنك جسمي، فاعطني من الفئ شيئا. فدفع إليه الذي أخذه لنفسه وهو خمسمائة درهم، ولم يصب من الفئ شيئا))[3].

(1) سير أعلام النبلاء، الذهبي: 2/ 322، وينظر: المعارف، ابن قتيبة: 208-209. الكامل، ابن الأثير: 3/ 219.

(2) ظ.سير أعلام النبلاء، الذهبي: 2/ 322، وينظر: المعارف، ابن قتيبة: 208-209، الأعلام، خير الدين الزركلي: 4/ 205، الجمل، ضامن بن شدقم المدني: 109- 110.

(3) شرح نهج البلاغة، ابن أبي الحديد: 1/ 249 – 250.

ووقع اسم عثمان بن حنيف في نهج البلاغة في كتاب أرسله الإمام عليه السلام إليه يقرعه على مخالفة تعليماته التي تقتضي المساواة بضعفة الناس. ويبدو من سياق الأحداث أن هذا الكتاب قبل حرب الجمل، ومناسبته وليمة دعي إليها ابن حنيف من اثرياء البصرة وكل ذنبه أنه أجاب الدعوة. ولكنه لم يتهنأ بها، فسرعان ما أرسل إليه الإمام عليه السلام بهذا التقريع، الذي يدل على شدة مراقبته لولاته في الصغيرة والكبيرة. قال الإمام عليه السلام:

((أما بعد يا ابن حنيف فقد بلغني أن رجلا من فتية أهل البصرة دعاك إلى مأدبة فأسرعت إليها تستطاب لك الألوان وتنقل إليك الجفان، وما ظننت أنك تجيب إلى طعام قوم عائلهم مجفو. وغنيهم مدعو. فانظر إلى ما تقضمه من هذا المقضم، فما اشتبه عليك علمه فالفظه، وما أيقنت بطيب وجوهه فنل منه. ألا وإن لكل مأموم إماما يقتدى به ويستضئ بنور علمه، ألا وإن إمامكم قد اكتفى من دنياه بطمريه، ومن طعمه بقرصيه. ألا وإنكم لا تقدرون على ذلك ولكن أعينوني بورع واجتهاد، وعفة وسداد. فوالله ما كنزت من دنياكم تبرا، ولا ادخرت من غنائمها وفرا، ولا أعددت لبالي ثوبي طمرا. بلى كانت في أيدينا فدك من كل ما أظلته السماء، فشحت عليها نفوس قوم وسخت عنها نفوس آخرين. ونعم الحكم الله. وما أصنع بفدك وغير فدك والنفس مظانها في غد جدث تنقطع في ظلمته آثارها، وتغيب أخبارها، وحفرة لو زيد في فسحتها وأوسعت يدا حافرها لأضغطها الحجر والمدر، وسد فرجها التراب المتراكم، وإنما هي نفسي أروضها بالتقوى لتأتي آمنة يوم الخوف الأكبر، وتثبت على جوانب المزلق. ولو شئت لاهتديت الطريق إلى مصفى هذا العسل ولباب هذا القمح ونسائج هذا القز، ولكن هيهات أن يغلبني هواي ويقودني جشعي إلى تخير

الأطعمة. ولعل بالحجاز أو اليمامة من لا طمع له في القرص ولا عهد له بالشبع، أو أبيت مبطانا وحولي بطون غرثى وأكباد حرى؟ أو أكون كما قال القائل:

وحسبك داء أن تبيت ببطنة وحولك أكباد تحن إلى القد

أأقنع من نفسي بأن يقال: أمير المؤمنين، ولا أشاركهم في مكاره الدهر، أو أكون أسوة لهم في جشوبة العيش. فما خلقت ليشغلني أكل الطيبات كالبهيمة المربوطة همها علفها، أو المرسلة شغلها تقممها، تكترش من أعلافها وتلهو عما يراد بها. أو أترك سدى أو أهمل عابثا، أو أجر حبل الضلالة، أو أعتسف طريق المتاهة. وكأني بقائلكم يقول: إذا كان هذا قوت ابن أبي طالب فقد قعد به الضعف عن قتال الاقران ومنازلة الشجعان. ألا وإن الشجرة البرية أصلب عودا، والروائع الخضرة أرق جلودا، والنباتات البدوية أقوى وقودا وأبطأ خمودا، وأنا من رسول الله كالصنو من الصنو والذراع من العضد. والله لو تظاهرت العرب على قتالي لما وليت عنها، ولو أمكنت الفرص من رقابها لسارعت إليها، وسأجهد في أن أطهر الأرض من هذا الشخص المعكوس والجسم المركوس حتى تخرج المدرة من بين حب الحصيد. إليك عني يا دنيا فحبلك على غاربك، قد انسللت من مخالبك، وأفلت من حبائلك، واجتنبت الذهاب في مداحضك. أين القرون الذين غررتهم بمداعبك أين الأمم الذين فتنتهم بزخارفك. هاهم رهائن القبور ومضامين اللحود. والله لو كنت شخصا مرئيا وقالبا حسيا لأقمت عليك حدود الله في عباد غررتهم بالأماني وأمم ألقيتهم في المهاوي، وملوك أسلمتهم إلى التلف وأوردتهم موارد البلاء إذ لا ورد ولا صدر. هيهات من وطئ دحضك زلق، ومن ركب لجحك غرق، ومن أزور

عن حبائلك وفق. والسالم منك لا يبالي إن ضاق به مناخه والدنيا عنده كيوم حان انسلاخه. اعزبي عني. فوالله لا أذل لك فتستذليني، ولا أسلس لك فتقوديني. وأيم الله يمينا أستثني فيها بمشيئة الله لأروضن نفسي رياضة تهش معها إلى القرص إذا قدرت عليه مطعوما، وتقنع بالملح مأدوما، ولأدعن مقلتي كعين ماء نضب معينها مستفرغة دموعها. أتمتلئ السائمة من رعيها فتبرك، وتشبع الربيضة من عشبها فتربض ويأكل علي من زاده فيهجع؟. قرت إذا عينه إذا اقتدى بعد السنين المتطاولة بالبهيمة الهاملة والسائمة المرعية طوبى لنفس أدت إلى ربها فرضها، وعركت بجنبها بؤسها. وهجرت في الليل غمضها حتى إذا غلب الكرى عليها افترشت أرضها وتوسدت كفها في معشر أسهر عيونهم خوف معادهم، وتجافت عن مضاجعهم جنوبهم. وهمهمت بذكر ربهم شفاههم، وتقشعت بطول استغفارهم ذنوبهم " أولئك حزب الله ألا إن حزب الله هم المفلحون " فاتق الله يا ابن حنيف ولتكفك أقراصك ليكون من النار خلاصك))[1].

الرسالة- إذن- حافلة بمعاني الزهد بالحياة، وهي بعد من قمم الفصاحة العربية وبلاغتها في هذه المعاني، وسنقف على بعض مضامينها ولغتها بما ينفع البحث:

أولا: ذكرت البصرة في موضعين:

الأول: في مقدمة الرسالة بقول الإمام عليه السلام: (فقد بلغني أن رجلا من

(1) نهج البلاغة: 3/ 70- 75.

فتية أهل البصرة) ويبدو أن المراد من لفظ (الفتية) الأسخياء، والعرب تعبر عن السخي بالفتى.[1]

والموضع الثاني: في قوله عليه السلام: ((وما ظننت أنك تجيب إلى طعام قوم عائلهم مجفو. وغنيهم مدعو)) قدحا بهذه الدعوة التي يبدو من مجملها أنها دعوة مجاملة أو هي دعوة أثرياء لا مكان للضعفاء من الناس فيها، ومثل هذه الدعوة لوال على مدينة يقطنها الغني والفقير لابد من أن تكون على حساب الفقراء في المستقبل، ولنا في عالم اليوم أمثلة كثيرة لمثل هذه المآدب التي هي بمثابة انزلاق نحو مهاوي الفساد الإداري كما يعبر عنه في لغة عصرنا، ولا ريب في أننا لم تصلنا تفاصيل هذه الدعوة ومقدماتها التي بحسب مراقبة الإمام عليه السلام لعامله أدرى بها إذ هو الذي امتلك الصورة الكلية، ومن هنا يجيء تقريع الإمام ونهيه عن مثل هذه المآدب وليس كما ذهب إليه ابن أبي الحديد من أن المراد بقوله (قوم عائلهم مجفو. وغنيهم مدعو) ذم لأهل البصرة[2]، بل الصحيح هو ذم لهؤلاء القوم الذين يستزلون الحكام بهذه الطريقة. لذلك عد هذا الأكل شبهة فأمر عامله بتركها. وعبر الإمام عليه السلام عن هذه المأدبة بألفاظ صغرت من شأنها وحقرتها مثل (القضم والمقضم) لأن القضم هو الأكل بطرف الفم لا كله وعادة للأكل اليابس، وهذا المعنى يدل على الزهد فيه والرغبة عنه. وفي

(1) ظ. شرح نهج البلاغة،ابن أبي الحديد: 16/ 205- 211.
(2) ظ. المصدر نفسه.

هذا المعنى تفهم عبارة أبـي ذر الغفـاري رضـي الله عنـه في شـأن بـني أميـة (تأكلون خضما ونأكل قضما والموعد الله)[1].

ثانيا: القدوة الحسنة

ضرب الإمام عليه السلام بنفسه المثل، وأمره بالاقتداء بسـيرته، لأنـه هـو القائد الأعلى ومثل الولاة، لذلك قال: (ألا وإن لكـل مـأموم إمامـا يقتـدى بـه ويستضئ بنور علمه، ألا وإن إمامكم قد اكتفى من دنيـاه بطمريـه، ومـن طعمـه بقرصيه). وذكر لفظ (إمامكم) من باب التوبيخ لهم والتقرير، وجاءت التثنيـة في لفظ (طمريه، قرصيه) لأن الطمر- وهو الثوب البالي- من قطعتين لابـد منهمـا هما الإزار والرداء للجسد والرأس. والقرصان همـا اللـذان يفطـر عليهمـا ولا ثالث لهما.

ثالثا: فدك

الذي جر الحديث إلى ذكر فدك هو قسم الإمام عليه السلام بعدم امتلاكـه شيئا من الدنيا في قوله: (فـوالله مـا كنـزت مـن دنيـاكم تـبرا، ولا ادخـرت مـن غنائمها وفرا، ولا أعددت لبالي ثوبي طمرا. بلى كانت في أيدينا فدك من كل ما أظلته السماء، فشحت عليها نفوس قوم وسخت عنها نفوس آخرين). وحـديث فدك يحمل حسرة في النفس وشكاية عظيمة من الظلم الـذي لحـق بأهـل البيـت عليهم السلام، يمكن قراءته بتأن بين الكلمات (من كل ما أظلته السماء) وقولـه (شحت نفوس قوم وسخت عنها نفوس آخرين). والمقابلـة التعبيريـة بـين لفـظ

(1) ظ. الفائق، الزمخشري: 1/ 331.

(نفوس) قد انطوت على كثير من المعاني التي أشرنا إليها، إذ (نفوس) الأولى كناية عن الحكام السابقين الذين هضموا حق فاطمة الزهراء عليها السلام والإمام علي عليه السلام في فدك، أما (نفوس) الثانية فهي كناية عنه عليه السلام. وقوله (سخت عنها) أراد معنى الإغضاء والمسامحة، أي سامحت وأغضت ((لا السخاء الحقيقي، لأنه عليه السلام وأهله لم يسمحوا بفدك إلا غصبا وقسرا))[1].

وفدك أرض زراعية غنية قريبة من خيبر استسلمت للنبي صلى الله عليه وآله من دون قتال بعد أن سمع أهلها استسلام أهل خيبر، لذا كانت له صلى الله عليه وآله خاصة، لأنه لم يوجف عليها بخيل ولا ركاب ونحلها إلى ابنته فاطمة عليها السلام، غير أنها حرمت منها بعد ذلك بحجة أن الأنبياء لا يورثون.

رابعا: عظمة الهمة

في تعبير الإمام عليه السلام (وما أصنع بفدك وغير فدك والنفس مظانها في غد جدث تنقطع في ظلمته آثارها...) تجسيد رائع لعظمة الهمة وعمق الزهد بالحياة.

وقد سبقه قوله في هذا المعنى (ولا أعددت لبالي ثوبي طمرا) فهو لم يعد لبالي ثوبه طمرا أي ثوبا باليا، لأن العادة- كما يفعل الناس- إعداد الثوب القشيب بدل الثوب البالي لا الطمر.

وجسده عليه السلام برفض الألقاب التي تبعث على الزهو إلا أن يكون

---

(1) شرح نهج البلاغة، ابن أبي الحديد: 16/ 205- 211.

لها أهلا فقال: ((أأقنع من نفسي بأن يقال: أمير المؤمنين، ولا أشاركهم في مكاره الدهر، أو أكون أسوة لهم في جشوبة العيش...)). وقوله ((وكأني بقائلكم يقول: إذا كان هذا قوت ابن أبي طالب فقد قعد به الضعف عن قتال الأقـران ومنازلـة الشجعان)). وقوله: ((وأيـم الله يمينـا أسـتثني فيهـا بمشـيئة الله لأروضـن نفسـي رياضة تهش معها إلى القرص إذا قدرت عليه مطعومـا، وتقنـع بـالملح مأدومـا، ولأدعن مقلتي كعين ماء نضب معينها مستفرغة دموعهـا. أتمتلـئ السـائمة مـن رعيها فتبرك، وتشبع الربيضة من عشبها فتربض ويأكل علي من زاده فيهجـع؟. قـرت إذا عينـه إذا اقتـدى بعـد السـنين المتطاولـة بالبهيمـة الهاملـة والسـائمة المرعية...))، والملاحظ أن الإمام عليه السلام استعمل مرة لفظ (أمـير المـؤمنين) في موضع وفي آخر استعمل (ابن أبي طالب)، وفي ثالثة استعمل اسمـه الصـريح (علي) بحسب مناسبة السياق، فالأول نداء بالإمرة، والثـاني غالبـا مـا تسـتعمل هذه الكناية في الشجاعة ومواطن الحرب، والثالثة جـيء بالاسـم مجـردا لمناسـبته لمعنى الزهد الذي هو في حديثه[1].

خامسا: المؤثرات اللغوية

وأعني بها الشكل الإبداعي لفنون التعبير المختلفة للمضامين التي قـدمت، وهي كثيرة جدا، تستحق بحد ذاتها بحثا، مثل

1- إقامة الكلام على الموازنة وقد ملأ الرسالة، مثل (إليك عني يا دنيا فحبلـك على غاربك، قد انسـللت مـن مخالبـك، وأفلـت مـن حبائلـك، واجتنبـت

---

(1) ظ. أسـلوب الإمـام علـي في التصـريح باسمـه والكنايـة عنـه، عبـاس علـي الفحـام: 6- 12-14.

الذهاب في مداحضك. أين القرون الذين غررتهم بمداعبك أين الأمم الذين فتنتهم بزخارفك. هاهم رهائن القبور ومضامين اللحود. والله لو كنت شخصا مرئيا وقالبا حسيا لأقمت عليك حدود الله في عباد غررتهم بالأماني وأمم ألقيتهم في المهاوي، وملوك أسلمتهم إلى التلف وأوردتهم موارد البلاء إذ لا ورد ولا صدر).

2- السجع: وقد أسبغ على الكلام مزيدا من الإيقاعات النغمية اللافتة للانتباه وهي كثيرة مثل (وطئ دحضك زلق، ومن ركب لججك غرق، ومن أزور عن حبائلك وفق) وقوله (ألا وإن الشجرة البرية أصلب عودا، والروائع الخضرة أرق جلودا، والنباتات البدوية أقوى وقودا وأبطأ خمودا) وقوله (تستطاب لك الألوان وتنقل إليك الجفان، وما ظننت أنك تجيب إلى طعام قوم عائلهم مجفو. وغنيهم مدعو) وقوله (ألا وإن إمامكم قد اكتفى من دنياه بطمريه، ومن طعمه بقرصيه).

3- الجناس: مثل (وسأجهد في أن أطهر الأرض من هذا الشخص المعكوس والجسم المركوس) وقوله (وما أصنع بفدك وغير فدك والنفس مظانها في غد جدث).

4- المقابلة: مثل (بلى كانت في أيدينا فدك من كل ما أظلته السماء، فشحت عليها نفوس قوم وسخت عنها نفوس آخرين) فقابل بين (شحت) و(سخت).

وينبغي القول هنا: إن هذه المؤثرات اللغوية المختلفة هي نتاج المعنى ومقتضاه، وليست حلية طارئة عليه، وإنما قصدها الإمام بغية لفت الانتباه أكثر وشد المسامع إليه.

ثانيا: عبد الله بن عباس

هو عبد الله بن العباس بن عبد المطلب، ابن عم النبي صلى الله عليه وآله، وتلميذ هذه المدرسة العظيمة، وحبر الأمة، لازم بعد وفاة الرسول صلى الله عليه وآله ابن عمه الإمام علي عليه السلام، فحمل منه علمه وخلقه. ولد في الشعب أيام مقاطعة قريش لبني هاشم قبل عام الهجرة بثلاث سنين[1]، ومات سنة ثمان وستين للهجرة.

وقد ولاه الإمام عليه السلام البصرة بعد حرب الجمل، وله كلام كثير يوصيه بحسن إدارة هذه المدينة والتلطف في معاملة أهلها، ومنها قوله: ((سع الناس بوجهك ومجلسك وحكمك، وإياك والغضب فإنه طيرة من الشيطان. واعلم أن ما قربك من الله يباعدك من النار، وما باعدك من الله يقربك من النار))[2].

ووصيته في أن يسع الناس بالوجه والمجلس والحكم تستبطن ثلاثة معان هي على التوالي: سماحة المحيا وطلاقته، وتنوع الحاضرين فلا يقتصر المجلس على طبقة دون أخرى، والثالثة: الحكمة في الحكم والفصل بين الناس. وأفرد الغضب بالنهي عنه كونه مفسدة لما تقدم من الوسع كله، وهو بعد طيرة من الشيطان أي خفة وطيش. والقرب من الله، هو القرب من ثوابه، ولا شبهة أن ما قرب من الثواب باعد من العقاب، وبالعكس لتنافيهما[3].

---

(1) ظ. سير أعلام النبلاء، الذهبي: 3/ 331- 332.

(2) نهج البلاغة: 3/ 136.

(3) شرح نهج البلاغة، ابن أبي الحديد: 18/ 70.

ويبدو أن آثار حرب الجمل ألقت بظلالها على البصرة، فلم تهدأ النفوس بعد، وقد كتب بذلك ابن عباس إلى الإمام علي عليه السلام[1]، وهذا هو الذي يفسر بعض الغلظة التي بدت من ابن عباس إلى بعض أهل البصرة كما مر في شأن بني تميم في قوله: ((فحادث أهلها بالاحسان إليهم، واحلل عقدة الخوف عن قلوبهم وقد بلغني تنمرك لبني تميم وغلظتك عليهم))، وربما يفسر أيضا سبب إيصائه عليه السلام بهذه الوصايا الأخلاقية ونهيه عن الغضب، وهي وإن كانت قد تبدو وصايا عامة كثيرا ما ينبه الإمام عليه السلام الناس إليها، إلا أن لها ثمة ارتباطا بسياق الأحداث في البصرة.

ومن كتاب آخر أختلف في شأنه قال الإمام عليه السلام: ((أما بعد فإني كنت أشركتك في أمانتي، وجعلتك شعاري وبطانتي، ولم يكن رجل من أهلي أوثق منك في نفسي لمواساتي وموازرتي، وأداء الأمانة إلي. فلما رأيت الزمان على ابن عمك قد كلب، والعدو قد حرب، وأمانة الناس قد خزيت، وهذه الأمة قد فنكت وشغرت قلبت لابن عمك ظهر المجن ففارقته مع المفارقين، وخذلته مع الخاذلين، وخنته مع الخائنين. فلا ابن عمك آسيت، ولا الأمانة أديت. وكأنك لم تكن الله تريد بجهادك. وكأنك لم تكن على بينة من ربك. وكأنك إنما كنت تكيد هذه الأمة عن دنياهم وتنوي غرتهم عن فيئهم. فلما أمكنتك الشدة في خيانة الأمة أسرعت الكرة، وعاجلت الوثبة، واختطفت ما قدرت عليه من أموالهم المصونة لأراملهم وأيتامهم اختطاف الذئب الأزل دامية

(1) نفسه: 3/ 183.

المعزى الكسيرة، فحملته إلى الحجاز رحيب الصدر بحمله غير متأثم من أخذه كأنك لا أبا لغيرك حدرت إلى أهلك تراثا من أبيك وأمك. فسبحان الله! أما تؤمن بالمعاد؟ أو ما تخاف نقاش الحساب؟ أيها المعدود كان عندنا من ذوي الألباب كيف تسيغ شرابا وطعاما وأنت تعلم أنك تأكل حراما وتشرب حراما؟ وتبتاع الإماء وتنكح النساء من مال اليتامى والمساكين والمؤمنين والمجاهدين الذين أفاء الله عليهم هذه الأموال وأحرز بهم هذه البلاد. فاتق الله واردد إلى هؤلاء القوم أموالهم، فإنك إن لم تفعل ثم أمكنني الله منك لأعذرن إلى الله فيك، ولأضربنك بسيفي الذي ما ضربت به أحدا إلا دخل النار. ووالله لو أن الحسن والحسين فعلا مثل الذي فعلت ما كانت لهما عندي هوادة ولا ظفرا مني بإرادة حتى آخذ الحق منهما وأزيح الباطل من مظلمتهما. وأقسم بالله رب العالمين ما يسرني أن ما أخذت من أموالهم حلال لي أتركه ميراثا لمن بعدي. فضح رويدا فكأنك قد بلغت المدى ودفنت تحت الثرى وعرضت عليك أعمالك بالمحل الذي ينادي الظالم فيه بالحسرة، ويتمنى المضيع الرجعة ولات حين مناص))[1].

قيل في مناسبة هذا الكتاب إقدام ابن عباس على أخذ أموال من بيت مال البصرة والفرار بها إلى مكة وقيل قدرها أربعمئة ألف درهم تزيد أو تنقص[2]، الأمر الذي حمل أبا الأسود الدؤلي على إبلاغ أمير المؤمنين عليه السلام بذلك، فكان هذا الكتاب تأنيبا وعظة.

(1) نهج البلاغة: 3/ 65– 67.

(2) ظ.أنساب الأشراف، البلاذري: 227، تاريخ اليعقوبي، اليعقوبي: 2/ 205.

ومن هنا وقع الاختلاف في المرسل إليه، فمنهم من نسبه إلى عبيد الله بن عباس ومنهم من نسبه إلى واحد من أهل أمير المؤمنين عليه السلام، وذلك كله من أجل دفع هذا الكتاب عن ابن عباس لما فيه من شدة وقساوة عليه لا يصدقها من عرف تاريخ ابن عباس ووفاءه لأمير المؤمنين عليه السلام وشدة ملازمته له. وهو أمر حير ابن أبي الحديد المعروف بتثبته فقال: ((وقد أشكل على أمر هذا الكتاب، فإن أنا كذبت النقل وقلت: هذا كلام موضوع على أمير المؤمنين عليه السلام، خالفت الرواة، فأنهم قد أطبقوا على رواية هذا الكلام عنه، وقد ذكر في أكثر كتب السير. وإن صرفته إلى عبد الله بن عباس صدني عنه ما أعلمه من ملازمته لطاعة أمير المؤمنين عليه السلام في حياته وبعد وفاته. وإن صرفته إلى غيره لم أعلم إلى من أصرفه من أهل أمير المؤمنين عليه السلام، والكلام يشعر بأن الرجل المخاطب من أهله وبنى عمه، فأنا في هذا الموضع من المتوقفين!))[1].

وسياق الكلام ولغته تشير بما لا يدع مجالا للريبة أن الكتاب مرسل إلى ابن عباس مثل قوله (أشركتك في أمانتي، وجعلتك بطانتي وشعاري، وأنه لم يكن في أهلي رجل أوثق منك)، وقوله: (على ابن عمك قد كلب)، ثم قال ثانيا: (قلبت لابن عمك ظهر المجن) ثم قال ثالثا: (ولابن عمك آسيت)، وقوله: (لا أبا

(1) شرح نهج البلاغة، ابن أبي الحديد: 16/ 169- 172.

لغيرك)، وهذه كلمة لا تقال إلا لمثله، فأما غيره من أفناء الناس، فإن عليا عليه السلام كان يقول: لا أبا لك. وقوله: (أيها المعدود كان عندنا من أولى الألباب). وقوله: (لو أن الحسن والحسين).

وقد جرت بعد ذلك مكاتبات بين الإمام علي عليه السلام وابن عباس بعضها لا يمكن قبوله، وأحسب أن هذا الأمر هو الذي شوه حقيقة هذا الكتاب، إذ مما لاينكر أمر هذا الكتاب ووقوع هذه الحادثة ورجوع ابن عباس عنها وتوبته منها [1]، ((وإنكار أخذ ابن عباس المال من البصرة، وإنكار كتاب أمير المؤمنين عليه السلام إليه المقدم ذكره صعب جدا بعد ملاحظة ما تقدم، ولا يحتاج فيه إلى تصحيح روايات الكشي. وبعد ما ذكرناه من الشواهد على اشتهار الأمر في ذلك. كما إن إخلاص ابن عباس لأمير المؤمنين عليه السلام وتفوقه في معرفة فضله لا يمكن إنكاره، والذي يلوح لي إن ابن عباس، لما ضايقه أمير المؤمنين عليه السلام في الحساب عما اخذ، ومن أين اخذ، وفيما وضع، كما يقتضيه عدله ومحافظته على أموال المسلمين، وعلم أنه محاسب على ذلك أدق حساب وغير مسامح في شئ سولت له نفسه أخذ المال من البصرة، والذهاب إلى مكة، وهو ليس معصوما، وحب الدنيا مما طبعت عليه النفوس، فلما كتب إليه أمير

(1) ظ. الفايق في غريب الحديث، الزمخشري: 3 / 170، نهج السعادة، الشيخ المحمودي: 5/ 335- 337.

المؤمنين عليه السلام ووعظه وطلب منه التوبة تاب وعـاد سـريعا. وعـدم نـص المؤرخين على عوده، لا يضر، بل يكفي ذكرهم أنه كان بالبصرة عند وفـاة أمـير المؤمنين عليه السلام كما دل عليه كتابه السابق إلى معاوية، أمـا الجـواب الأخـير الذي زعموا أنه أجاب به أمير المؤمنين عليه السلام فمعاذ الله أن يصدر منه والله العالم)) [1].

ويؤيد ذلك تفسير كتاب الإمام عليه السلام إليه في قوله: ((أمـا بعـد فـإن المرء، قد يسره درك ما لم يكن ليفوته، ويسوءه فوت مـا لم يكـن ليدركـه. فلـيكن سرورك بما نلت من آخرتك. وليكن أسفك على ما فاتك منهـا. ومـا نلـت مـن دنياك فلا تكثر فيه فرحا. وما فاتك منها فلا تأس عليه جزعا. وليكن همك فيما بعد الموت)) [2]. لذلك كان يقول عبد الله بن عباس إنابة منه: ((ما انتفعت بكلام بعد كلام رسول الله كانتفاعي بهذا الكلام)).

وبهذا السياق التاريخي واللغوي لكتب أمير المؤمنين عليـه السـلام نطمـئن إلى ما وصلنا إليه من حل لعقدة هذا الكتاب ونسبة إرساله إلى ابن عباس.

ثالثا: زياد بن أبيه

هو زياد المطعون في نسبه، سمي لأبيه على جهة المجهول، أو لخمول نسـب أبيه، إذ قيل إن أباه كان عبدا واسمه عبيد وينسب إلى ثقيف، وبقي عبدا إلى أيـام

(1) نهج البلاغة: 3/ 20.

(2) أعيان الشيعة، محسن الأمين: 1/ 528.

زياد فابتاعه وأعتقه، وربما نسب إلى أمه فقيل زياد بن سمية وهي أمة كانت للحارث بن كلدة بن عمرو بن علاج الثقفي، طبيب العرب، وكانت تحت عبيد، و لما استلحق زمن معاوية قال له أكثر الناس: زياد بن أبي سفيان [1].

ولا أعرف سبب توليته على البصرة مرة وبعض أعمال فارس مرة ثانية في زمن الإمام علي عليه السلام، وربما كان ذلك بسبب الإخلاص الذي كان يبديه لأمير المؤمنين عليه السلام، فقد قيل إنه لما ولي فارسا أو بعض أعمالها ضبطها ضبطا صالحا، وجبى خراجها وحماها.

وكثيرا ما كان يصد محاولات معاوية لحمله على الانسلاخ من جبهة الإمام علي عليه السلام[2]، وهو أمر لم يكن يخاف على أمير المؤمنين فكان يحذره دائما كقوله من كتاب له عليه السلام وقد بلغه أن معاوية كتب إليه يريد خديعته باستلحاقه: ((وقد عرفت أن معاوية كتب إليك يستزل لبك ويستفل غربك، فاحذره فإنما هو الشيطان يأتي المؤمن من بين يديه ومن خلفه وعن يمينه وعن شماله، ليقتحم غفلته ويستلب غرته، وقد كان من أبي سفيان في زمن عمر فلتة من حديث النفس ونزغة من نزغات الشيطان لا يثبت بها نسب ولا يستحق بها إرث، والمتعلق بها كالواغل المدفع والنوط المذبذب. فلما قرأ زياد الكتاب قال:

---

(1) ظ. شرح نهج البلاغة، ابن أبي الحديد: 16/ 196- 197.

(2) ظ. شرح نهج البلاغة، ابن أبي الحديد: 16/ 196-197.

شهد بها ورب الكعبة، ولم يزل في نفسه حتى ادعاه معاوية))[1]، ولكن معاوية ظل يلاحقه، فالتحق به بعد أربعة أعوام من اسشهاد الإمام علي عليه السلام.

ويبدو أن ابن عباس استخلفه على البصرة، ومن هنا ارتفع شأنه. وجاء استخلاف زياد لأن ابن عباس كان يومئذ عاملا عليها وعلى كور الأهواز وفارس وكرمان.

وفي هذه المدة ربما بلغ أمير المؤمنين عليه السلام هنات عن ابن زياد فيما يخص بيت المال، وحين نقول بيت المال فإننا نعني بها ثروة كبيرة لواردات الدولة الإسلامية لأن خراج العراق وحده وصل إلى أكثر من (120) مليون درهم[2]. ولذلك أرسل إليه من يحمل أموال البصرة إلى الكوفة، فحملت وحمل معها أخبار تجبره وترفهه في النعم الأمر الذي أنكره زياد لأمير المؤمنين عليه السلام حين حوسب عليه.

وهذا الكتاب من الإمام عليه السلام إليه بسبب تلك الهنات: ((وإني أقسم بالله قسما صادقا لئن بلغني أنك خنت من فئ المسلمين شيئا صغيرا أو كبيرا لأشدن عليك شدة تدعك قليل الوفر ثقيل الظهر ضئيل الأمر. والسلام))[3].

(1) نهج البلاغة: 3/ 69.

(2) ظ. أنساب الأشراف، البلاذري: 227 – 228

(3) نهج البلاغة: 3/ 19

واستعمل الإمام عليه السلام أقسى عبارات التهديد بهذا الشأن، الشأن المالي، مبتدئا بقسم عظيم يندر أن يقسمه في هذه المواضع "لأشدن عليك شدة"، والمراد تهديده بالأخذ واستصفاء المال. ثم وصف تلك الشدة فقال: "إنها تتركك قليل الوفر"، أي أفقرك بأخذ ما احتجت من بيت مال المسلمين. وثقيل الظهر: أي مسكين لا تقدر على مئونة عيالك. ((وضئيل الامر: أي حقير، لأنك إنما كنت نبيها بين الناس بالغنى والثروة، فإذا افتقرت صغرت عندهم، واقتحمتك أعينهم)). [1]

ومن العجيب أن يظهر زياد بأبشع صوره الدموية بعد الالتحاق بمعاوية ذلك الالتحاق الذي حذر منه علي عليه السلام من قبل، فكشف عن دناءة خلقه مع الإمام الحسن عليه السلام وأتباعه لاسيما حين سلطه معاوية على رقاب الناس واليا على أهل البصرة وضم إليه بعد ذلك الكوفة.

ومجمل الأمر إن البصرة مثلت تاريخا غنيا بالأحداث والفتن في حياة الإمام علي عليه السلام إبان مدة خلافته البالغة أربع سنين، بان على كلامه عليه السلام خطبة ورسالة وموقفا، فكان لذاك وثيقة لغوية وتاريخية في غاية الأهمية من وثائق تاريخ هذه الحاضرة الكبيرة.

---

(1) شرح نهج البلاغة، ابن أبي الحديد: 15/ 138.

الخاتمة

نخلص من الدراسة إلى جملة من النتائج المحددة بنقاط هي:

أولا: بينت الدراسة حجم الأهمية التي مثلتها البصرة في أحداث الدولة الإسلامية منذ النشأة وحتى الفتن التي استعرت في حكم الإمام علي عليه السلام.

ثانيا: تبدو أهمية نهج البلاغة من جهة عده وثيقة تاريخية دامغة في كشف الحقائق التاريخية لأحداث البصرة ومواقف بعض رجالاتها وتفاصيل ولاتها أثناء مدة حكم الإمام علي عليه السلام.

ثالثا: شدة مراقبة الإمام عليه السلام لولاته بشكل عام والبصرة على وجه الخصوص لحساسية الموقف وآثار حرب الجمل.

رابعا: المكانة الاقتصادية العظيمة للبصرة في وفرة وارداتها للدولة الإسلامية جعلت منها محلا لطمع الولاة على مر العصور.

خامسا: أظهرت الدراسة الإمكانات التعبيرية في نهج البلاغة وقدرة الإمام عليه السلام على الربط بين المعنى الحقيقي والأداء الفني المميز.

سادسا: لفتت الدراسة إلى عمق الحقائق التي تتعلق بالبصرة متمثلة بالأخذ المباشر من صاحب الحدث نفسه بدون نقولات وتزيدات.

المصادر

أولاً: القرآن الكريم

- أنساب الأشراف، البلاذري (ت 279هـ)، تحقيق وتعليق: الشيخ محمد باقر المحمودي، الطبعة الأولى، 1974م.
- الأعلام، خير الدين الزركلي، دار العلم للملايين، بيروت- الطبعة الأولى، 1980م.
- أعيان الشيعة، محسن الأمين (ت1371هـ)، تحقيق وتخريج: السيد حسن الأمين، دار التعارف للمطبوعات، بيروت- لبنان.
- أسلوب الإمام علي (ﷺ) في التصريح باسمه والكناية عنه، الدكتور عباس علي الفحام، مجلة مركز دراسات الكوفة، العدد (9)، 2010.
- بحار الأنوار الجامعة لدرر أخبار الأئمة الأطهار، الشيخ محمد باقر المجلسي (ت1111هـ)، مؤسسة الوفاء، بيروت- لبنان، الطبعة الثانية، 1983.
- تاريخ الطبري، الطبري (ت310هـ)، مراجعة وتصحيح وضبط: نخبة من العلماء الأجلاء، الطبعة الرابعة، 1983م، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات- بيروت- لبنان.- تاريخ اليعقوبي، اليعقوبي (ت284هـ) بدون ذكر مكان الطبع وتاريخه.
- ترتيب إصلاح المنطق، إبن السكيت الأهوازي (ت244هـ)، تحقيق: محمد

حسن بكائي، الطبعة الأولى، مؤسسة الطبع والنشر في الاستانة الرضوية، 1412هـ.

- الدر المنثور، جلال الدين السيوطي (ت911هـ)، مطبعة دار المعرفة، بيروت- لبنان.

- ديوان الفرزدق، همام بن غالب (ت111هـ)، جمع وتعليق: عبد الله اسماعيل العادي، بيروت- 1936م.

- سير أعلام النبلاء، شمس الدين الذهبي (ت 748هـ)، تحقيق: شعيب الأرناؤوط وحسين الأسد، الطبعة التاسعة، 1993م.

- الصحاح (تاج اللغة وصحاح العربية)، اسماعيل بن عباد الجوهري (ت 393هـ)، تحقيق: أحمد عبد الغفور عطار، الطبعة الرابعة، دار العلم للملايين- بيروت، 1987م.

- شرح مئة كلمة لأمير المؤمنين، ابن ميثم البحراني (ت679هـ)، تحقيق: مير جلال الدين الحسيني الأرموي، منشورات جماعة المدرسين في الحوزة العلمية، قم- ايران.

- شرح نهج البلاغة، ابن أبي الحديد، المدائني (ت 656 هـ). تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء التراث العربي، القاهرة، 1959م.

- عمدة الطالب في أنساب آل أبي طالب، جمال الدين الحسيني المعروف بابن عنبة (ت828هـ)، عني بتصحيحه السيد محمد حسن الطالقاني، الطبعة الثانية، المطبعة الحيدرية، النجف الأشرف-1961م.

- العين، الخليل بن أحمد الفراهيدي (ت175هـ)، تحقيق: الدكتور مهدي المخزومي والدكتور إبراهيم السامرائي، مؤسسة دار الهجرة- الطبعة الثانية، ايران- 1409هـ.

- الغارات، ابراهيم بن محمد الثقفي (ت283هـ)، تحقيق: السيد جلال الدين الحسيني الأرموي، بدون تاريخ الطبع ومكانه.

- غريب الحديث، ابن سلام الهروي (ت224هـ)، تحقيق: محمد عبد المعيد خان، مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية، الهند، الطبعة الأولى، 1384هـ.

- غريب الحديث، ابن قتيبة الدينوري (ت276هـ)، وضع فهارسه: نعيم زرزور، دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى، بيروت، 1988م.

- الفائق في غريب الحديث، جار الله الزمخشري (ت539هـ)، وضع حواشيه: ابراهيم شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، 1996م.

- فتوح البلدان، أحمد بن يحيى المعروف بالبلاذري (ت 279هـ)، تحقيق: الدكتور صلاح المنجد، مطبعة لجنة البيان العربي، القاهرة، 1956م.

- قبيلة تميم ودورها في التاريخ العربي قبل الإسلام (أطروحة دكتوراه)، سعيد جبار، كلية التربية، ابن رشد، جامعة بغداد، 2007م.

- الكامل في التاريخ، ابن الأثير (ت631هـ)، مطبعة دار صادر ودار بيروت، 1966م، لبنان.

- لسان العرب، جمال الدين محمد بن مكرم بن منظور المصري (ت 711هـ).دار صادر ودار بيروت، لبنان 1379هـ- 1955م.

- المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، ضياء الدين نصر الله بن محمد بن الأثير الجزري (ت 637 هـ)، تحقيق: الدكتور احمد الحوفي والدكتور بدوي طبانه، الطبعة الاولى، نهضة مصر، الفجالة- القاهرة 1379هـ- 1959م.

- مجمع الأمثال، الميداني، لأبي الفضل احمد بن محمد النيسابوري الميداني (ت 518هـ)، مطبعة السعادة- مصر، 1959م.

- مروج الذهب ومعادن الجوهر، أبو الحسن عليّ بن الحسين بن عليّ المسعودي (ت 346هـ)، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، مطبعة السعادة- مصر، الطبعة الثانية 1367هـ-1948م.

- المصنف، عبد الرزاق الصنعاني (ت211هـ)، تحقيق حبيب الرحمن الأعظمي بدون ذكر مكان الطبع وتاريخه.

- المعارف، ابن قتيبة الدينوري (ت276هـ)، تحقيق: الدكتور ثروت عكاشة، مطبعة دار المعارف، القاهرة.

- معجم البلدان، ياقوت الحموي (ت 626هـ)، دار إحياء التراث العربي، لبنان- 1979م.

- معجم مقاييس اللغة، أحمد بن فارس (ت395هـ)، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، مطبعة الإعلام الإسلامي، 1404هـ.

- نهج البلاغة، تحقيق و شرح: الشيخ محمد عبده، الطبعة الأولى، 1412هـ، مطبعة النهضة- قم. - نهج السعادة في مستدرك نهج البلاغة، الشيخ المحمودي، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت- لبنان

- النهاية في غريب الحديث، ابن الأثير (ت606هـ)، تحقيق: طاهر أحمد الزاوي ومحمود محمد الطناحي، الطبعة الرابعة.

- وقعة الجمل، ضامن بن شدقم المدني (ت 1082هـ)، تحقيق: السيد تحسين آل شبيب الموسوي، مطبعة محمد، الطبعة الأولى، 1999م.

- يتيمة الدهر، الثعالبي (ت429هـ)، شرح وتحقيق: الدكتور مفيد قمحية، الطبعة الأولى، دار الكتب العلمية، 1983م، بيروت- لبنان.

الباب الثاني

الدراسات الأسلوبية واللغوية

الباب الثاني

الدراسات الأسلوبية واللغوية

الفصل الأول: أسلوب الإمام علي (رضي الله عنه) في التصريح باسمه والكناية عنه.

الفصل الثاني: فن التقسيم.

الفصل الثالث: دلالة الأبنية النادرة.

الفصل الأول

أسلوب الإمام علي (رضي الله عنه)

في التصريح باسمه والكناية عنه

مدخل

المبحث الأول (أسلوب الإمام في التصريح)

موضوعات التصريح

أولا: الكتب والرسائل

ثانيا: الزهد

ثالثا: ذكر فضائله

رابعا: الايصاء

خامسا: الاحتجاج

سادسا: مواقف الحرب والضمان

المبحث الثاني (أسلوبه في الكناية)

أشكال التعبير الكنائي

أولا: ابن أبي طالب

ثانيا: أمير المؤمنين

ثالثا: ابن أبيك

رابعا: أبو حسن

خامسا: ابن خالك

سادسا: المهاجر، الصريح، المحق، المؤمن

سابعا: صيغ أخر

المصادر

مدخل:

ثمة ظاهرة أسلوبية لافتة للانتباه في نهج البلاغة تتعلق بالتصريح والتكنية عن اسم الإمام علي عليه السلام على لسانه، إذ يعمد الإمام عليه السلام الى استعمال كنايات عن اسمه لغايات قد لا يحققها التصريح، وقد يصرح في مواطن من أجل الكشف عن معان مخبوءة قد لا تبين مع الكناية لو كنى.

فمتى يصرح عن اسمه ومتى يكني؟

وقبل الشروع بالبحث والإجابة على هذا السؤال، لابد من الوقوف على التعريف بالتصريح والكناية، تمهيدا للدخول في الموضوع.

التصريح:

في اللغة يعني الإظهار وعدم الستر، قال ابن منظور: ((صرح فلان ما في نفسه تصريحا اذا أبداه))(1).

وهنا نعني به ذكر الاسم من دون لازمة لغرض يقصد إليه المصرح.

وللتصريح بالاسم المجرد بلاغته، بخاصة إذا أحسن المصرح التأتي إليه والدخول إلى المعنى، فالإبداع ليس حكرا على لغة المجاز، فقد تكون اللغة المباشرة أبلغ في قوة التأثير والإبلاغ متى ما طابق اللفظ المعنى في طريقة التركيب، فالعبرة في كل ذلك في طريقة إقامة العلاقات بين عناصر اللغة داخل الوحدات اللغوية (الجمل).

ومن هنا تتضح صعوبة الإبداع في لغة التصريح والحقيقة، لأن على المبدع

(1) لسان العرب، ابن منظور: 2/ 511.

تخطي المسرب الواحد الذي قد يفرضه المعنى الحقيقي المباشر، أو بعبارة ثانية، إن الإبداع يكمن في الطريقة التي يستطيع بها المتكلم شق طرق جديدة داخل المعنى الحقيقي الذي قد يوحي لغير المبدعين أنه منغلق أو باتجاه واحد يصعب تغييره.

إذن بلاغة التصريح هي في الكيفية التي يتحقق بها التطابق التام بين الأداء والمضمون، من خلال صناعة علاقات تركيبية جديدة بين مفردات اللغة.

الكناية:

الكناية في اللغة ((مصدر كنيت بكذا عن كذا، أو كنوت، إذا تركت التصريح به))[1]، وهي فيما يبدو تحمل لهجتين من هذا المصدر (كنوت وكنيت)[2]، وأصل مادتها التستر[3]، وكل ما يتفرع عن هذه المفردة من نحو (الأكنة، مكنون، كنية، كان...) لا تنفك من معنى الستر، إذن هي ضد التصريح.

وفي الاصطلاح حدها الشيخ عبد القاهر الجرجاني بقوله: ((المراد بالكناية أن يريد المتكلم إثبات معنى من المعاني، فلا يذكره باللفظ الموضوع له في اللغة، ولكن يجيء إلى معنى هو تاليه وردفه في الوجود فيومىء به إليه ويجعله دليلا عليه))[4]. إذن هي العدول عن ذكر الاسم إلى لازمه، تحقيقا لغرض يقصد إليه المكني.

وتبدو روعة الكناية بانزياحاتها اللغوية وقدرتها على إثارة فضول المتلقي

(1) مختصر المعاني، التفتازاني: 257.

(2) ظ.غريب الحديث، ابن سلام:1/ 303.

(3) ظ. لسان العرب، ابن منظور: 15/ 233.

(4) دلائل الإعجاز، الجرجاني: 53، ظ.نهاية الإيجاز، الرازي: 135.

بانحرافه عن الغرض المقصود مباشرة، فتبرز له جانبا من المعنى وتخفي عنه جانبا آخر، مما يعني استلذاذ المتلقي في إعمال الذهن بالوصول إلى المعنى المطلوب[1].

ومن سمات لغة الكناية قوة الإيحاء فيها، فهي في جوهرها مبتناة على معنيين الأول حقيقي يوحي إلى الثاني المجازي، وهو الذي عبر عنه عبد القاهر الجرجاني بقوله: ((يومئ به إليه))[2]، ومن هنا عدت العرب ((الكناية من البراعة والبلاغة، وهي عندهم أبلغ من التصريح))[3] لما فيها من فضل قوة في الإيحاء والتأثير.

وطالما نحن بصدد مستوى رفيع من الأداء الإبداعي البلاغي، فلابد من أن مستعمل اللغة- وهو هنا أمير البيان العربي الإمام علي عليه السلام- قاصد إلى التصريح والتكنية بشكل يحقق فيه مطابقة الكلام لمقتضى الحال وعلى نحو يتطابق فيه اللفظ أيما تطابق مع المعنى.

ولذلك سنحاول دراسة التصريح بالاسم والكناية عنه ضمن سياقه الفني التركيبي الذي سيكشف لنا أبعاده وأسباب إيثار هذا على ذاك في الاستعمال.

---

(1) ظ.الصورة الفنية، جابر عصفور: 78.

(2) دلائل الأعجاز، الجرجاني: 53.

(3) البرهان، الزركشي: 2/ 300.

المبحث الأول

أسلوب الإمام (رضي الله عنه) في التصريح

موضوعات التصريح:

سأتناول فنية التصريح في أسلوب الإمام عليه السلام عن نفسه من جهة الدلالة والأثر الموضوعي، محاولا الوصول من هذا الطريق إلى ما خبأ من معنى توخاه الإمام عليه السلام عن عمد حين صرح باسمه.

وهي بحسب كثرتها نجدها في الآتي:

أولا: الكتب والرسائل:

لن أقف طويلا عند الكتب والرسائل إلى الولاة والعمال، فذلك أسلوب متبع من قبل في اقتضاء التصريح بالاسم منذ عهد النبوة والرسائل التي بعث بها إلى الملوك لنشر الدعوة الإسلامية، وأصبحت تلك سنة متبعة في التصريح بالاسم مثلما هو حاصل مع الإمام علي عليه السلام في رسائله إلى ولاته وعماله وأعدائه.

مثل كتابه إلى أهل الكوفة عند مسيره من المدينة إلى البصرة، وصدره بقوله:

((مِنْ عَبْدِ اللَّهِ عَلِيٍّ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ إِلَى أَهْلِ الْكُوفَةِ- جَبْهَةِ الْأَنْصَارِ وَ سَنَامِ الْعَرَبِ))[1]، والجبهة والسنام استعارات للعظمة وعلو القدر.

(1) نهج البلاغة، الإمام علي (رضي الله عنه): 2/ 127 .

وعهده إلى مالك بن الحارث الأشتر [1] لما ولاه على مصر وصدره بقوله:

((هَذَا مَا أَمَرَ بِهِ عَبْدُ اللَّهِ عَلِيٌّ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ مَالِكَ بْنَ الْحَارِثِ الْأَشْتَرَ فِي عَهْدِهِ إِلَيْهِ- حِينَ وَلَّاهُ مِصْرَ جِبَايَةَ خَرَاجِهَا وَ جِهَادَ عَدُوِّهَا- وَاسْتِصْلَاحَ أَهْلِهَا وَ عِمَارَةَ بِلَادِهَا، أمره بتقوى الله..)) [2].

وأمثلة ذلك كثيرة في نهج البلاغة فقد جمعها الشريف الرضي وأفرد لها بابا أسماه باب الرسائل والوصايا [3].

ثانيا: الزهد:

يتفق التصريح بالاسم من دون تكنية مع معاني الزهد، خاصة حين يرد السياق التركيبي بمحاور تلك الدلالات فيجيء الاسم معرى من كل معنى جانبي قد تسبغه عليه الكناية، وقد وقع اسم (علي) صريحا مرتين في هذه المعاني، نحو قوله من خطبة في الزهد:

((وَ اللَّهِ لَوْ أُعْطِيتُ الْأَقَالِيمَ السَّبْعَةَ بِمَا تَحْتَ أَفْلَاكِهَا، عَلَى أَنْ أَعْصِيَ اللَّهَ فِي نَمْلَةٍ أَسْلُبُهَا جُلْبَ شَعِيرَةٍ مَا فَعَلْتُهُ، وَإِنَّ دُنْيَاكُمْ عِنْدِي لَأَهْوَنُ مِنْ وَرَقَةٍ فِي فَمِ جَرَادَةٍ تَقْضَمُهَا، مَا لِعَلِيٍّ وَ لِنَعِيمٍ يَفْنَى وَلَذَّةٍ لَا تَبْقَى...)) [4]

(1) تنظر ترجمته: رجال ابن داوود الحلي: 157، معجم رجال الحديث، الخوئي: 15/ 167-168.

(2) نهج البلاغة، الإمام علي(ﷺ):2/ 240.

(3) ظ. نهج البلاغة، الإمام علي(ﷺ): باب الرسائل .

(4) نهج البلاغة، الإمام علي(ﷺ):2/ 48.

وقسم الإمام يشير إلى سعة عدله والأقاليم السبعة هي أقسام الأرض، أما قوله الثاني فهو ((دليل على غاية الزهد منه في الدنيا)). [1]

وجلب الشعيرة قشرها، ويشير بها إلى قلة القيمة إلا أن تكون في معصية الله.

وقوله (ما لعلي..))هو استفهام على سبيل الإنكار ((لملامته لنعيم الدنيا ولذاتها الفانية)) [2] فحال الإمام علي عليه السلام من الإعراض عن الدنيا والإقبال على الله تعالى مما يتنافى مع ذلك النعيم وتلك اللذات الفانية.

وقد ناسب في كل ذلك إيراد اسمه صريحا متسقا مع سياقه في تلك المعاني.

وكلمة الإمام هذه تذكر بكلمته في الشقشقية مزهدا:

((وَ لَأَلْفَيْتُمْ دُنْيَاكُمْ هَذِهِ أَزْهَدَ عِنْدِي مِنْ عَفْطَةِ عَنْزٍ)) [3].

وفي موضع آخر من حديث الزهد صرح الإمام عليه السلام باسمه فقال من كتاب لأحد عماله:

((لَأَرُوضَنَّ نَفْسِي رِيَاضَةً تَهِشُّ مَعَهَا إِلَى الْقُرْصِ، إِذَا قَدَرْتُ عَلَيْهِ مَطْعُوماً، وَ تَقْنَعُ بِالْمِلْحِ مَأْدُوماً، وَ لَأَدَعَنَّ مُقْلَتِي كَعَيْنِ مَاءٍ نَضَبَ مَعِينُهَا، مُسْتَفْرِغَةً دُمُوعَهَا، أَ تَمْتَلِئُ السَّائِمَةُ مِنْ رِعْيِهَا فَتَبْرُكَ، وَ تَشْبَعُ الرَّبِيضَةُ مِنْ عُشْبِهَا

(1) شرح نهج البلاغة ،ابن ميثم البحراني: 4/ 87 .

(2) المصدر نفسه.

(3) نهج البلاغة، الإمام علي (رضي الله عنه):1/ 34.

فَتَرْبِضَ، وَ يَأْكُلُ عَلِيٌّ مِنْ زَادِهِ فَيَهْجَعَ، قَرَّتْ إِذاً عَيْنُهُ إِذَا اقْتَدَى بَعْدَ السِّنِينَ الْمُتَطَاوِلَةِ، بِالْبَهِيمَةِ الْهَامِلَةِ وَ السَّائِمَةِ الْمَرْعِيَّةِ)) [1].

والترويض هو التدريب والتعويد [2]، وفي الكلام معان كثيرة تدل على الزهادة بملذات الدنيا وعدم التشبه بالاقتداء بالبهائم ((فلابد من حفظ الامتياز، وهو ملازمة الجوع والخوف من الله والعبادة في جوف الليل)) [3]، لذلك أورده الإمام بلسان الإنكار مصرحا باسمه بعد كل ذلك مقرونا بالجهاد في سبيل الله تعالى، دليلا على زهده بالدنيا.

ثالثا: ذكر فضائله:

وأعني بها الفضائل التي خصه الرسول (ﷺ) بها، من مثل تبيان منزلته أو إعلامه بأمور مستقبلية، والإمام عليه السلام يرويها عنه على لسانه (ﷺ)، وأكثرها تأتي بصيغة الخطاب المباشر باسم علي عليه السلام وهي صيغة تكاد تتفق على أسلوبها اغلب كتب الحديث النبوي في فضائل علي عليه السلام [4].

من ذلك ما ذكره الإمام في إحدى أقواله:

((لَوْ ضَرَبْتُ خَيْشُومَ الْمُؤْمِنِ بِسَيْفِي هَذَا، عَلَى أَنْ يُبْغِضَنِي مَا أَبْغَضَنِي، وَلَوْ صَبَبْتُ الدُّنْيَا بِجَمَّاتِهَا عَلَى الْمُنَافِقِ، عَلَى أَنْ يُحِبَّنِي مَا أَحَبَّنِي، وَ ذَلِكَ أَنَّهُ

(1) نهج البلاغة، الإمام علي (رضي الله عنه): 2/ 226.

(2) ظ.لسان العرب، ابن منظور: روض.

(3) منهاج البراعة، حبيب الخوئي: 20/ 124.

(4) الفصول المهمة،ابن الصباغ :2/ 1179، ينابيع المودة، القندوزي :2/ 311-312.

قُضِيَ فَانْقَضَى عَلَى لِسَانِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ (ﷺ)، أَنَّهُ قَالَ يَا عَلِيُّ لَا يُبْغِضُكَ مُؤْمِنٌ وَلَا يُحِبُّكَ مُنَافِق)). [1]

وقد علق على هذا ابن أبي الحديد من جهة اعتقاده الاعتزالي فقال: ((وهي كلمة حق، وذلك لأن الإيمان وبغضه عليه السلام لا يجتمعان، لأن بغضه كبيرة، وصاحب الكبيرة عندنا لا يسمى مؤمنا، وأما المنافق فهو الذي يظهر الإيمان ويبطن الكفر، والكافر بعقيدته لا يحب عليا عليه السلام لأن المراد من الخبر، ومن لا يعتقد الإسلام لا يحب أحدا من أهل الإسلام، لإسلامه وجهاده في الدين، فقد بان أن الكلمة حق)).[2] وقد ذكرت هذا الحديث كتب الأحاديث والتفسير[3].

وفي مقام آخر من ذكر التصريح باسم الإمام علي عليه السلام، جاء في نهج البلاغة أنه قام إلى الإمام عليه السلام رجل فقال: يا أمير المؤمنين أخبرنا عن الفتنة وهل سألت رسول الله (ﷺ) عنها؟ فقال عليه السلام: ((لَمَّا أَنْزَلَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ قَوْلَهُ: ﴿ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمۡ لَا يُفۡتَنُونَ ﴾[4]، عَلِمْتُ أَنَّ الْفِتْنَةَ لَا تَنْزِلُ بِنَا، وَرَسُولُ اللَّهِ (ﷺ) بَيْنَ أَظْهُرِنَا. فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ مَا هَذِهِ الْفِتْنَةُ الَّتِي أَخْبَرَكَ اللَّهُ بِهَا؟ فَقَالَ: يَا عَلِيُّ إِنَّ أُمَّتِي سَيُفْتَنُونَ بَعْدِي. فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَوَ لَيْسَ قَدْ قُلْتَ لِي يَوْمَ أُحُدٍ، حَيْثُ اسْتُشْهِدَ مَنِ اسْتُشْهِدَ مِنَ

(1) نهج البلاغة، الإمام علي (عليه السلام): 2/ 317.
(2) شرح نهج البلاغة، ابن أبي الحديد: 18/ 173.
(3) ظ.مسند أحمد، أحمد بن حنبل: 6/ 292، كنز العمال، المتقي الهندي: 11/ 622، مجمع البيان، الطبرسي: 6/ 455، روح المعاني، الآلوسي: 16/ 143.
(4) العنكبوت: 2، وينظر في تفسيرها: الأصفى، للفيض الكاشاني: 4/ 110.

الْمُسْلِمِينَ، وَحِيزَتْ عَنِّي الشَّهَادَةُ فَشَقَّ ذَلِكَ عَلَيَّ، فَقُلْتَ لِي أَبْشِرْ فَإِنَّ الشَّهَادَةَ مِنْ وَرَائِكَ. فَقَالَ لِي: إِنَّ ذَلِكَ لَكَذَلِكَ فَكَيْفَ صَبْرُكَ إِذاً؟ فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ لَيْسَ هَذَا مِنْ مَوَاطِنِ الصَّبْرِ، وَلَكِنْ مِنْ مَوَاطِنِ الْبُشْرَى وَالشُّكْرِ. وَقَالَ: يَا عَلِيُّ إِنَّ الْقَوْمَ سَيُفْتَنُونَ بَعْدِي بِأَمْوَالِهِمْ، وَ يَمُنُّونَ بِدِينِهِمْ عَلَى رَبِّهِمْ، وَيَتَمَنَّوْنَ رَحْمَتَهُ وَ يَأْمَنُونَ سَطْوَتَهُ، وَيَسْتَحِلُّونَ حَرَامَهُ بِالشُّبُهَاتِ الْكَاذِبَةِ، وَالْأَهْوَاءِ السَّاهِيَةِ فَيَسْتَحِلُّونَ الْخَمْرَ بِالنَّبِيذِ، وَالسُّحْتَ بِالْهَدِيَّةِ وَالرِّبَا بِالْبَيْعِ، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، فَبِأَيِّ الْمَنَازِلِ أُنْزِلُهُمْ عِنْدَ ذَلِكَ، أَبِمَنْزِلَةِ رِدَّةٍ أَمْ بِمَنْزِلَةِ فِتْنَةٍ؟ فَقَالَ: بِمَنْزِلَةِ فِتْنَة)).[1]

وهذا مما أخبر النبي (ﷺ) به عليا عليه السلام مما سيجري عليه من فتن من بعده[2].

وجاء التصريح لأنه في معرض الخطاب من النبي (ﷺ) في ذكر ما خصه الله تعالى من فضائل، وكثيرا ما يكون ذلك صادرا من النبي (ﷺ) باسم الإمام الصريح.

رابعا: الايصاء:

والوصية تقتضي التصريح لما تحمل من معاني الوضوح التي يتوخاها الموصي تجنبا للاحتمالات التي قد ترد في الكنايات.

نحو وصية الإمام عليه السلام في قوله: ((وَإِنَّ لِبَنِى فَاطِمَةَ مِنْ صَدَقَةِ عَلِيٍّ

(1) نهج البلاغة، الإمام علي (رضي الله عنه): 1/ 346.

(2) ظ.شرح نهج البلاغة، ابن أبي الحديد: 9/ 208.

مِثْلَ الَّذِي لِبَنِي عَلِيٍّ، وَإِنِّي إِنَّمَا جَعَلْتُ الْقِيَامَ بِذَلِكَ، إِلَى ابْنَيْ فَاطِمَةَ ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللَّهِ، وَ قُرْبَةً إِلَى رَسُولِ اللَّهِ، وَ تَكْرِيماً لِحُرْمَتِهِ وَ تَشْرِيفاً لِوُصْلَتِهِ..)). (1)

وفي هذه الوصية فوض الإمام عليه السلام ولده الحسن ومن بعده الحسين ولاية صدقات أمواله، وساوى الإمام بحصتهما من الصدقات مع سائر أولاده ((وإنما قال ذلك لأنه قد يتوهم متوهم أنهما لكونهما قد فوض إليهما النظر في هذه الصدقات، قد منعا أن يسهما فيها بشيء، وأن الصدقات إنما يتناولها غيرهما من بني علي ممن لا ولاية له مع وجودهما))(2).

وبين الإمام عليه السلام السبب في أن خصهما بالولاية فقال:

((وإني إنما جعلت القيام بذلك إلى ابني فاطمة ابتغاء وجه الله، وقربة إلى رسول الله، وتكريما لحرمته..)) (3).

وفي هذا ((رمز وإزراء بمن صرف الأمر عن أهل بيت رسول الله (ﷺ)، مع وجود من يصلح للأمر، وكان الأليق بالمسلمين والأولى أن يجعلوا الرياسة بعده لأهله قربة إلى رسول الله)) (4).

ومن المعلوم أن الوصية تقتضي التصريح بالاسم لخطورتها في نفوس السامعين، ولأن في الكناية معاني ثانوية قد يتخذها مطية للشبهات من يريد التلبيس على نفسه أو على الآخرين، أقول لأن فيها كل ذلك يؤثر الموصي

---

(1) نهج البلاغة، الإمام علي (﵁): 2/ 140.

(2) شرح نهج البلاغة، ابن أبي الحديد: 15/ 149.

(3) نهج البلاغة، الإمام علي (﵁): 2/ 140.

(4)شرح نهج البلاغة، ابن أبي الحديد: 15/ 149.

التصريح بالاسم بدلا من التكنية مثلما فعل أمير المؤمنين في وصيته.

خامسا: الاحتجاج:

وقد يورد الإمام عليه السلام اسمه صريحا على لسان الخصوم بغية الحجاج ودحض كلامهم، مثل قوله:

((وَ لَقَدْ بَلَغَنِي أَنَّكُمْ تَقُولُونَ عَلِيٌّ يَكْذِبُ قَاتَلَكُمُ اللَّهُ فَعَلَى مَنْ أَكْذِبُ أَعَلَى اللَّهِ فَأَنَا أَوَّلُ مَنْ آمَنَ بِهِ، أَمْ عَلَى نَبِيِّهِ فَأَنَا أَوَّلُ مَنْ صَدَّقَه!)). [1]

وسبب ذلك التكذيب أن الإمام عليه السلام كان ((كثيرا ما يخبرهم بما لا يعرفون، ويعلمهم ما لم يكونوا يعلمون، فيقول المنافقون من أصحابه إنه يكذب، كما يقولون مثل ذلك للنبي (ﷺ)، فيرد عليهم قولهم بأنه أول من آمن بالله وصدق برسوله، فكيف يجتريء على الكذب على الله أو على رسوله مع قوة إيمانه وكمال يقينه ولا يجتمع كذب وإيمان صحيح))[2].

فلأن هؤلاء المتقولين على الإمام في معرض الافتراء والإساءة إليه حكى في تصريحه باسمه عما انطوت عليه نفوسهم من تعد على مقامه، إذ لا يصح في سياق الكلام - وهم يرمونه بالكذب- أن يأتي اسمه بالكناية كأن يقولوا: أبو الحسن أو أمير المؤمنين وغيرها.

سادسا: مواقف الحرب والضمان:

وقع اسم الإمام (عليه السلام) مصرحا به في موضع واحد في ساحة

(1) نهج البلاغة، الإمام علي (رضي الله عنه): 1/ 138.

(2) نهج البلاغة، محمد عبده: 1/ 129.

الحرب، وذلك في قوله من خطبة له: ((وَفِرُّوا إِلَى اللَّـهِ مِـنَ اللَّـهِ، وَامْضُـوا فِـي الَّذِي نَهَجَهُ لَكُمْ، وَقُومُوا بِمَا عَصَبَهُ بِكُـمْ، فَعَلِـيٌّ ضَـامِنٌ لِفَلْجِكُـمْ آجِلًـا إِنْ لَـمْ تُمْنَحُوهُ عَاجِلًا)). [1]

وذكر التصريح هنا لإرادة الوضوح، لأن الضامن لابد له من إبانة وكشف لا يحتمل معه أكثر من معنى ثان، ولأن اسم (علـي) عليـه السـلام علـى وجـه الخصوص في هذا المقام يحمل دلالات كـثيرة، يعيـد إلى الأذهـان مـا خاطبـه بـه النبي(ﷺ) من أحاديث تبين وقوفه إلى جانب الحق مثل قوله صلى الله عليه وآله:

((علي مع الحق والحق معه))[2]، و((اللهم أدر الحق معه حيث دار))[3].

ولذلك يذكر الإمام اسمه صريحا للتذكير، واستعادة ارتباطات ذهنية لـدى السامع بغية التأثير فيه.

(1) نهج البلاغة، الإمام علي (ﷺ): 1/ 68.

(2) الأمالي، الشيخ الصدوق: 150، الخصال، الشيخ الصدوق: 496، الإمامـة والسياسـة، ابن قتيبة: 1/ 73.

(3) المستدرك ،الحاكم النيسابوري: 3/ 124، الجامع الصغير، السيوطي: 2/ 9.

المبحث الثاني

أسلوبه في الكناية

أشكال التعبير الكنائي:

تتعدد صيغ التعبير الكنائي عن اسم الإمام علي عليه السلام، في ظاهرة أسلوبية فريدة، اقتضاها السياق، واستوجبها المعنى، وسنوردها بحسب كثرة استعمالها في نهج البلاغة على ما يأتي:

أولا: ابن أبي طالب

استعمل الإمام هذه الكناية في معاني الشدة والحرب وأوحى بها للتعظيم وعلو القدر قاصدا بها انتسابه إلى تلك المعاني وأصالة أرومته فيها، فأبو طالب شيخ الأباطح وعظيم قريش الذي لا ينازع في الزعامة والسيادة والشجاعة[1].

وتعد هذه الكناية من أكثر الصيغ إيرادا في نهج البلاغة فقد جاءت في سبعة مواضع مختلفة [2] من كلام الإمام علي كلها تصب في سياق الشجاعة والتعظيم.

منها قوله في ساحة الحرب:

((وَالَّذِي نَفْسُ ابْنِ أَبِي طَالِبٍ بِيَدِهِ، لَأَلْفُ ضَرْبَةٍ بِالسَّيْفِ أَهْوَنُ عَلَيَّ، مِنْ مِيتَةٍ عَلَى الْفِرَاشِ فِي غَيْرِ طَاعَةِ اللَّهِ)) [3].

(1) ظ. تاريخ الطبري، الطبري: 2/ 323.

(2) ظ.الكاشف عن ألفاظ نهج البلاغة، جواد مصطفوي: 259.

(3) نهج البلاغة، الإمام علي(عليه السلام): 1/ 285.

وقوله: ((وَ اللَّهِ لَابْنُ أَبِي طَالِبٍ آنَسُ بِالْمَوْتِ، مِنَ الطِّفْلِ بِثَدْيِ أُمِّهِ)) [1].

ويعني بذلك الموت في سبيل الله في ساحات الجهاد ونيل شرف الشهادة التي عبر عنها ساعة ضرب في مسجد الكوفة واستشهد على إثرها:

((فزت ورب الكعبة)) [2].

وقسم الإمام عليه السلام في قوله الأول قسم إسلامي جديد، وهو من الابتكارات التركيبية التي جاء بها الرسول (ﷺ)[3] من قبل، واستعملها الإمام والناس من بعده.

وقال الإمام عليه السلام في معنى آخر:

((وَ ايْمُ اللَّهِ، إِنِّي لَأَظُنُّ بِكُمْ أَنْ لَوْ حَمِسَ الْوَغَى، وَاسْتَحَرَّ الْمَوْتُ، قَدِ انْفَرَجْتُمْ عَنِ ابْنِ أَبِي طَالِبٍ انْفِرَاجَ الرَّأْس)) [4]، أي انفراجا لا التئام بعده تعريضا بجبنهم وفرارهم.

وقوله (لأظن) بمعنى العلم، ويؤكد ذلك السياق في قوة التأكيد بلام القسم فيها، واستعمال (قد) التحقيقية والفعل المزيد (انفرجتم)، واشتقاق المصدر منه (انفراج) على سبيل التشبيه البليغ.

---

(1) المصدر نفسه: 1/ 40.

(2) خصائص الأئمة، الشريف الرضي: 63 ،مناقب آل أبي طال، ابن شهرآشوب: 1/ 385، بحار الأنوار، المجلسي :41/ 2.

(3) ظ. البيان والتبيين، الجاحظ: .

(4) نهج البلاغة، الإمام علي(ﷺ): 1/ 92.

ويشير أسلوب الإمام عليه السلام في توخي استعمال التشبيه البليغ (انفرجتم انفراج) إلى غلواء العاطفة عنده وصدقها بخاصة في خطب الحرب [1].

وفي موضع آخر يعيد الإمام هذه الصورة بالأسلوب ذاته ولكن بتعريض أشد، في قوله:

((وَ اللَّهِ لَكَأَنِّي بِكُمْ فِيمَا إِخَالُ، أَنْ لَوْ حَمِسَ الْوَغَى وَ حَمِيَ الضِّرَابُ، قَدِ انْفَرَجْتُمْ عَنِ ابْنِ أَبِي طَالِبٍ، انْفِرَاجَ الْمَرْأَةِ عَنْ قُبُلِهَا)) [2].

فذكر انفراج المرأة هنا عن قبلها قصد به الإهانة ودناءة من يقترف هذا العمل في الفرار من ساحة الحرب وساعة الشدة، التي كنى عن اشتدادها بـ (حمس الوغى وحمي الضراب).

ويحرص الإمام عليه السلام في استعمال هذه الكناية بمعاني الشجاعة والتعظيم حتى في حكاية القول عن الآخرين، فمن خطبة له لائما:

((قَاتَلَكُمُ اللَّهُ لَقَدْ مَلَأْتُمْ قَلْبِي قَيْحاً، وَ شَحَنْتُمْ صَدْرِي غَيْظاً، وَجَرَّعْتُمُونِي نُغَبَ التَّهْمَامِ أَنْفَاساً، وَأَفْسَدْتُمْ عَلَيَّ رَأْيِي بِالْعِصْيَانِ وَالْخِذْلَانِ، حَتَّى قَالَتْ قُرَيْشٌ: إِنَّ ابْنَ أَبِي طَالِبٍ رَجُلٌ شُجَاعٌ، وَ لَكِنْ لَا عِلْمَ لَهُ بِالْحَرْبِ، لِلَّهِ أَبُوهُمْ، وَهَلْ أَحَدٌ مِنْهُمْ أَشَدُّ لَهَا مِرَاساً وَ أَقْدَمُ فِيهَا مَقَاماً مِنِّي ؟!)) [3].

فمقتضى الحال في اقتران هذه التكنية بألفاظ الحرب والشجاعة مناسب

---

(1) ظ.الأثر القرآني في نهج البلاغة، عباس الفحام (أطروحة دكتوراه): 121.

(2) نهج البلاغة، الإمام علي(عليه السلام): 1/ 216.

(3) نهج البلاغة، الإمام علي(عليه السلام): 1/ 78.

تماما في قول القائلين بذلك، بينما في حكاية قول آخر عن أعدائه صرح باسمه كما مر في قوله: ((تقولون علي يكذب...))لأن السياق هناك يقتضي التصريح وهنا يستوجب التكنية كما بينا.

ومثله قوله عليه السلام: ((وَ كَأَنِّي بِقَائِلِكُمْ يَقُولُ: إِذَا كَانَ هَذَا قُوتُ ابْنِ أَبِي طَالِبٍ، فَقَدْ قَعَدَ بِهِ الضَّعْفُ عَنْ قِتَالِ الْأَقْرَانِ، وَ مُنَازَلَةِ الشُّجْعَان..)) (1)

ثانيا: أمير المؤمنين

وقعت التكنية بأمير المؤمنين على لسانه عليه السلام في موضعين من نهج البلاغة، مستثنيا الرسائل التي تبدأ بالكناية بالإمارة، لأن ذلك أسلوب ظاهر سبق إليه من غيره.

((يَا بَنِي عَبْدِ الْمُطَّلِبِ، لَا أُلْفِيَنَّكُمْ تَخُوضُونَ دِمَاءَ الْمُسْلِمِينَ خَوْضاً، تَقُولُونَ: قُتِلَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ، قُتِلَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِين)) (2)

كنى الإمام عليه السلام عن اسمه بأمير المؤمنين لأنه في معرض الوصية ليلة مقتله، وإنما كنى بهذا لأنه أراد إبطال نية من يروم الإيغال بدماء المسلمين محتجا بكونه أميرا للمؤمنين، وكأنه يشير إلى تجربة سابقة هدرت فيها الدماء على أساس الفكرة الباطلة ذاتها حينما اتخذ معاوية وأتباعه من قميص عثمان والطلب بثأره سببا لإشعال الفتنة بين المسلمين؛ لذلك قطع الطريق على الذين

---

(1) المصدر نفسه: 2/ 224.

(2) المصدر نفسه: 2/ 232.

ينوون التزيد على دمائه في تحقيق طموحات ضيقة لا تتوافق ومبادئ علـي عليـه السلام التي آمن بها.

والموضع الثاني من هذه الكناية في قوله من رسالة إلى أحـد عمالـه مـذكرا إياه بالزهد وتحمل مسؤولية قيادة المجتمع:

((أَأَقْنَعُ مِنْ نَفْسي بِأَنْ يُقَالَ لي: أَميرُ الْمُـؤْمِنينَ، وَلَـا أُشَـارِكُهُمْ فِي مَكَـارِهِ الدَّهْرِ، أَوْ أَكُونَ أُسْوَةً لَهُمْ فِي جُشُوبَةِ الْعَيْشِ)).[1]

فهو إنما كنى بهذا إيحاء بأنه المسؤول الأول الذي يحمل على عاتقـه همـوم الرعية ومواساة فقرائها. وقوله (يقال لي أمير المؤمنين) إشعار بأنـه هـذا الشـعار تكليف ينبغي أداؤه على أتم مـراد وأسـد منهـاج ولـيس منصـبا يـثير في الـنفس الشعور بالزهو والاستطالة على الناس. ولذا أبان بإطناب عن هذه الكناية مفندا من يدعيها لأجل الزعامة فحسب.

وهي تكشف عن عظمة ما انطوت عليه ذات علـي مـن سمـو في القـدرة على الإحساس بالآخرين ومشاركتهم معاناتهم.

ثالثا: ابن أبيك

وقعت هذه الكناية في موضـع واحـد قصـد بهـا الإمـام التعظـيم وإعـلاء الشأن، وهي صيغة ثانية لكنايته التي يكثر منها (ابن أبي طالب) في المعنـى ذاتـه، فمن رسالة جوابية إلى أخيه عقيل قال الإمام:

(1) نهج البلاغة، الإمام علي(ﷺ): 2/ 224.

((وَلَا تَحْسَبَنَّ ابْنَ أَبِيكَ، وَلَوْ أَسْلَمَهُ النَّاسُ مُتَضَرِّعاً مُتَخَشِّعاً، وَلَا مُقِرّاً لِلضَّيْمِ وَاهِناً، وَلَا سَلِسَ الزِّمَامِ لِلْقَائِدِ، وَ لَا وَطِيءَ الظَّهْرِ لِلرَّاكِبِ الْمُتَقَعِّد)) (1)

وفي الكلام جملة من الكنايات التي ينفي بها الإمام صفة الضعف عن نفسه، مثل (سلس الزمام) و(وطيء الظهر) فكلها كنايات عن الانقياد والذل، والراكب المقتعد يعني به راكب البعير أي الذي اتخذه مقعدا (2).

وإنما كنى الإمام عليه السلام هنا بهذا لأن السياق في ذكر الثبات والشجاعة والبطولة وذكر (الأب) هنا مطابق تماما لتلك المعاني، بينا ذكر (الأم) في المقابل مطابق لمعاني الاستعطاف والترقيق كما ورد في قوله تعالى على لسان هارون: ﴿ قَالَ يَبْنَؤُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِي إِنِّي خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَاءِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي ﴾ (3).

رابعا: أبو حسن

وردت هذه الكناية في موضع واحد من نهج البلاغة، قصد الإمام عليه السلام من ورائها التهديد والوعيد. وذلك في رسالة إلى معاوية جاء فيها:

((فَأَنَا أَبُو حَسَنٍ، قَاتِلُ جَدِّكَ وَ أَخِيكَ وَ خَالِكَ شَدْخاً يَوْمَ بَدْرٍ، وَ ذَلِكَ السَّيْفُ مَعِي، وَبِذَلِكَ الْقَلْبِ أَلْقَى عَدُوِّي)) (4)، فلم يشأ التصريح باسمه بل

(1) المصدر نفسه: 2/ 209.

(2) تاج العروس، الزبيدي: 5/ 197 .

(3) طه: 94.

(4) نهج البلاغة، الإمام علي(ﷺ): 2/ 141.

ابتغى من هذه الكناية التي شهر بها إنزال الرعب في قلب معاوية لما تحمل من دلالات التعريف بهذه الشخصية العظيمة.

ولم يكن الإمام معروفا بهذه التكنية يوم قتل عتبة بن ربيعة وابنه الوليد بن عتبة وحنظلة بن أبي سفيان وهم جد معاوية وخاله وأخوه على الترتيب بل أراد الإيحاء بالحاضر لذلك أشار بأن سيفه لا يزال هو هو وبثبات القلب ذاته الذي أردى به جده وخاله وأخاه عازم على أن يلقى به عدوه، وكنى عن اسم معاوية بعدوي للاختصاص من أجل المبالغة في التهديد وبث الرعب.

وقوله (شدخا) تعريض بالغ بهم، لأن الشدخ هو كسر الشيء الأجوف كالرأس ونحوه[1].

خامسا: ابن خالك

كنى الإمام عليه السلام عن اسمه بهذه الكناية في موضع واحد من نهج البلاغة، وذلك في قوله لعبد الله بن عباس لما أنفذه إلى الزبير قبل وقوع الحرب يوم الجمل ليستفيئه إلى طاعته:

((لَا تَلْقَيَنَّ طَلْحَةَ، فَإِنَّكَ إِنْ تَلْقَهُ تَجِدْهُ كَالثَّوْرِ عَاقِصاً قَرْنَهُ، يَرْكَبُ الصَّعْبَ وَ يَقُولُ هُوَ الذَّلُولُ، وَ لَكِنِ الْقَ الزُّبَيْرَ فَإِنَّهُ أَلْيَنُ عَرِيكَةً، فَقُلْ لَهُ: يَقُولُ لَكَ ابْنُ خَالِكَ، عَرَفْتَنِي بِالْحِجَازِ وَ أَنْكَرْتَنِي بِالْعِرَاقِ، فَمَا عَدَا مِمَّا بَدَا)) [2].

(1) ظ.لسان العرب، ابن منظور: شدخ. مختار الصحاح، الجوهري: 1/ 424.

(2) نهج البلاغة، الإمام علي(عليه السلام): 1/ 86.

وفي هذا الكلام كنايات كثيرة، فقوله (عاقصا قرنه) بمعنى عطف قرنه على أذنه، وقوله (يركب الصعب..) بمعنى يستهين بالمستصعب من الأمور، وأراد من كل ذلك وصفه بالعناد وشراسة الخلق وادعاء الفخر ((وكذلك كان طلحة)).[1]

وقوله (لين العريكة) بمعنى سلس الطبيعة.

ومحل الشاهد في قوله: (ابن خالك) فقد قصد من هذه الكناية الاستمالة من خلال إذكاره بالنسب والرحم ((ألا ترى أن له في القلب من الموقع الداعي إلى الانقياد ما ليس في لقوله: يقول لك أمير المؤمنين)) [2]

ومثل هذا الأسلوب ورد من قبل في القرآن الكريم، قال تعالى في ذكر موسى وهارون عليهما السلام:

﴿وَأَلْقَى ٱلْأَلْوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُۥٓ إِلَيْهِ ۚ قَالَ ٱبْنَ أُمَّ إِنَّ ٱلْقَوْمَ ٱسْتَضْعَفُونِى وَكَادُوا۟ يَقْتُلُونَنِى فَلَا تُشْمِتْ بِىَ ٱلْأَعْدَآءَ وَلَا تَجْعَلْنِى مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾[3]، على سبيل استعطاف قلب أخيه وإفراغه من غضبه[4].

ولاشك في أن ذلك أدعى إلى العطف من أن يقول له على وجه التصريح مثلا باسمه (يا موسى) أو القول بصفة النبوة مثل (يا أيها النبي).

---

(1) شرح نهج البلاغة، ابن أبي الحديد: 2/ 162.

(2) المصدر نفسه والصفحة.

(3) الأعراف: 150.

(4) ظ. الكشاف، الزمخشري: 2/ 119 ، مفاتيح الغيب، الرازي: 6/ 128.

سادسا: (المهاجر، الصريح، المحق، المؤمن)

جاءت هذه الكنايات عن اسم الإمام علي عليه السلام في موضع واحد في نهج البلاغة، ففي رسالة رد بها على معاوية بن أبي سفيان قال:

((وَ أَمَّا قَوْلُكَ إِنَّا بَنُو عَبْدِ مَنَافٍ، فَكَذَلِكَ نَحْنُ وَ لَكِنْ لَيْسَ أُمَيَّةُ كَهَاشِمٍ، وَلَا حَرْبٌ كَعَبْدِ الْمُطَّلِبِ وَ لَا أَبُو سُفْيَانَ كَأَبِي طَالِبٍ، وَ لَا الْمُهَاجِرُ كَالطَّلِيقِ وَلَا الصَّرِيحُ كَاللَّصِيقِ، وَ لَا الْمُحِقُّ كَالْمُبْطِلِ وَ لَا الْمُؤْمِنُ كَالْمُدْغِلِ))[1].

فألفاظ (المهاجر والصريح والمحق والمؤمن) كنايات استعملها الإمام عن اسمه بينا كنى في مقابلها عن معاوية بـ (الطليق واللصيق والمبطل والمدغل).

ولا شك في أن الإمام قصد من وراء كناياته التعريض بخصمه أولا ثم بيان مكانته والتذكير بها ثانيا، لذلك أطال بكناياته في تقابل دلالي بينما لم يقف على السابقين طويلا بأكثر من تقابل صريح لأن غرضه من ذلك الوصول إلى بيان حاله ومقارنتها بحال خصمه.

ومن هنا جعل أمية مقابل هاشم ((وكان الترتيب يقتضي أن يجعل هاشما بإزاء عبد شمس لأنه أخوه في قعدد[2]، وكلاهما ولد عبد مناف لصلبه، وأن يكون أمية بإزاء عبد المطلب، وأن يكون حرب بإزاء أبي طالب، وأن يكون أبو سفيان بإزاء أمير المؤمنين عليه السلام، لأن كل واحد من هؤلاء في قعدد

(1) نهج البلاغة، الإمام علي(رضي الله عنه): 2/ 151.

(2) القعدد هو القريب الآباء في الجد الأكبر، ظ.لسان العرب ،ابن منظور: قعد .

صاحبه، إلا أن أمير المؤمنين عليه السلام لما كان في صفين بإزاء معاوية اضطر إلى أن جعل هاشما بإزاء أمية بن عبد شمس)) [1].

وإنما لم يصرح الإمام بقوله مثلا ((ولا أنا كأنت))ترفعا عن أن يقيس نفسه بمعاوية بل قبيح به أن يقولها مع أحد من المسلمين كافة، كما لا يقال السيف أمضى من العصا[2].

وإطناب الإمام عليه السلام في هذه الكنايات بسبب ادعاء معاوية في الرسالة التي بعث بها إليه في أنهما متساويان في المنزلة على أساس أن كلاهما من بني عبد مناف [3]، لذلك حين أقره الإمام فصل في شرف الآباء منهما حتى إذا وصل إلى نفسه معاوية أطال لأجل التعريض.

فقوله (الطليق) كونه من طلقاء النبي يوم فتح مكة، وقوله (اللصيق) كونه مدخول في نسبه أو مشكوك في إيمانه، وقوله (المبطل) بادعائه ما ليس له بأهل من الخلافة وغيرها، وقوله (المدغل) كونه ممن عرف بنفاقه وترصده للإسلام ورموزه[4].

سابعا: صيغ أخر

ثمة صيغ تركيبية آثر استعمالها الإمام عليه السلام في تعبيراته بالكناية عن

(1) ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة: 15/ 118.

(2) ظ. المصدر نفسه والصفحة.

(3) ظ.وقعة صفين، ابن مزاحم: 471، الإمامة والسياسة، ابن قتيبة: 1/ 104.

(4) ظ. شرح نهج البلاغة، ابن ميثم البحراني: 4/ 393.

نفسه لتحقيق معان لا يتأتى للتصريح الإتيان بها، وهي تـرد في معـاني التواضـع والتطامن أمام قدرة الله تعالى.

نحو قوله في إحدى كتبه إلى معاوية:

((وَ لَوْ لَا مَا نَهَى اللَّهُ عَنْهُ مِنْ تَزْكِيَةِ الْمَرْءِ نَفْسَهُ، لَذَكَرَ ذَاكِرٌ فَضَـائِلَ جَمَّـةً تَعْرِفُهَا قُلُوبُ الْمُؤْمِنِينَ، وَ لَا تَمُجُّهَا آذَانُ السَّامِعِينَ)).[1]

وقوله الأول أشار به إلى قوله تعالى:

﴿فَلَا تُزَكُّوٓاْ أَنفُسَكُمۡۖ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ﴾[2]

والكناية وقعت في قوله (لذكر ذاكر)، فقد عنى به نفسه هو عليه السلام.

ويشير الإمام عليه السلام بقوله (تعرفها قلوب المؤمنين) إلى كثـرة فضـائله وشدة ظهورها وبقوله (لا تمجها آذان السامعين) إلى أنسهم بسماعها.

وقد تبيح الضرورات تزكية المرء نفسه حين يقتضي توضيح المبـدأ وفضـح تلبيس الحق بالباطل، وقد ورد عن الإمام الصادق عليـه السـلام أنـه سـئل عـن تزكية المرء نفسه هل يجوز فقال ((نعم إذا اضطر إليه أمـا سمعـت قـول يوسـف عليه السلام: اجعلني على خزائن الأرض إني حفيظ عليم))وقول العبد الصالح ((أنـا لكـم ناصـح أمـين))[3]. وقـول العبـد الصـالح يعـني بـه قولـه تعـالى:

(1) نهج البلاغة، الإمام علي(ﷺ): 2/ 171.

(2) النجم: 32.

(3) ظ. الميزان، الطباطبائي: 11/ 207.

﴿أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ﴾[1]. وفي صيغة ثانية كنى عن اسمه بالمعنى ذاته في قوله:

((وَ كَانَ رَسُولُ اللَّهِ (ﷺ) إِذَا احْمَرَّ الْبَأْسُ، وَأَحْجَمَ النَّاسُ، قَدَّمَ أَهْلَ بَيْتِهِ، فَوَقَى بِهِمْ أَصْحَابَهُ حَرَّ الْأَسِنَّةِ وَ السُّيُوفِ فَقُتِلَ عُبَيْدَةُ بْنُ الْحَارِثِ يَوْمَ بَدْرٍ، وَقُتِلَ حَمْزَةُ يَوْمَ أُحُدٍ، وَ قُتِلَ جَعْفَرٌ يَوْمَ مُؤْتَةَ وَأَرَادَ مَنْ لَوْ شِئْتُ ذَكَرْتُ اسْمَهُ، مِثْلَ الَّذِي أَرَادُوا مِنَ الشَّهَادَةِ، وَ لَكِنَّ آجَالَهُمْ عُجِّلَتْ وَ مَنِيَّتَهُ أُخِّرَت))[2].

فقوله: (وأراد من لو شئت ذكرت اسمه) عدول عن ذكر الاسم مجردا إلى صيغة تركيبية جديدة في الحديث عن النفس بصيغة الغائب تعظيما لإقدامه على مجاهدة العدو بين يدي رسول الله صلى الله عليه وآله.

وقوله (احمر البأس) كناية عن اشتداد المعركة حتى تصطبغ الأرض بالدماء. و(أحجم الناس) بمعنى كفوا عن الحرب وهو كناية عن خوف الإقدام.

وخلاصة الأمر بدا أن للإمام عليه السلام أسلوبه في الكناية عن اسمه والتصريح بها، فرضه عليه السياق، وحتمه التركيب.

(1) الأعراف: 68.

(2) نهج البلاغة، الإمام علي(ؑ): 2/ 137.

المصادر والمراجع

ـ القرآن الكريم

ـ الأثر القرآني في نهج البلاغة، دراسة في الشكل والمضمون، عباس علي الفحام، أطروحة دكتوراه، كلية الآداب – جامعة الكوفة 2008م.

ـ الأصفى في تفسير القرآن، الفيض الكاشاني (1091هـ)، تحقيق: محمد حسين درايتي ومحمد رضا نعمتي، مطبعة مركز الإعلام الإسلامي، قم، الطبعة الأولى، 1418هـ.

ـ الإمامة والسياسة، ابن قتيبة، عبد الله بن مسلم (ت276هـ)، تحقيق الدكتور طه محمد الزيني، دار المعرفة - بيروت، بدون تاريخ.

ـ بحار الأنوار الجامعة لدرر أخبار الأئمة الأطهار، الشيخ محمد باقر المجلسي (ت1111هـ)، مؤسسة الوفاء، بيروت - لبنان، الطبعة الثانية، 1983.

ـ البرهان في علوم القرآن، بدر الدين محمد بن عبد الزركشي (ت794هـ)، تح: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة 1957م.

ـ البيان والتبيين، أبو عمرو بن بحر الجاحظ (ت255هـ)، تحقيق وشرح: عبد السلام محمد هارون، دار الفكر، بيروت، الطبعة الرابعة، 1948م.

ـ تاج العروس من جواهر القاموس، محمد مرتضى الزبيدي (ت1205هـ)، دار الفكر – بيروت، 1994م.

- تاريخ الطبري (تاريخ الرسل والملوك)، أبو جعفر محمد بن جرير (ت310هـ)، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، الطبعة الخامسة، دار المعارف– مصر، 1987م.

ـ التفسير الكبير (أو مفاتيح الغيب)، فخر الدين محمد بن عمر الرازي (ت606هـ)، المطبعة البهية – مصر، بدون تاريخ.

ـ الجامع الصغير في أحاديث البشير النذير، جلال الدين عبد الرحمن بن بكر السيوطي (ت911هـ). دار الفكر، الطبعة الأولى، بيروت. 1981م.

ـ روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، أبو الفضل شهاب الدين محمود الآلوسي (ت 1270هـ). إدارة الطباعة المنيرية، القاهرة، بدون تاريخ.

ـ خصائص الأئمة، الشريف الرضي (ت406هـ)، تحقيق: محمد هادي الأميني، نشر مجمع البحوث الإسلامية، إيران، 1406هـ.

ـ دلائل الأعجاز، عبد القاهر بن عبد الرحمن الجرجاني (ت 471هـ)، تعليق وشرح محمد عبد المنعم الخفاجي، الطبعة الأولى، مطبعة الفجالة الجديدة، القاهرة، 1969م.

ـ شرح نهج البلاغة، ابن أبي الحديد المدائني (ت 656 هـ).تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء التراث العربي، القاهرة، 1959م.

ـ شرح نهج البلاغة، ميثم بن علي بن ميثم البحراني (ت 679هـ). (المصباح شرح الكبير) مطبعة خدمات، الطبعة الثانية، طهران 1404هـ.

ـ الصورة الفنية في التراث النقدي والبلاغي عند العرب، جابر عصفور، دار التنوير، الطبعة الثانية، بيروت- لبنان، 1983م.

ـ في ظلال نهج البلاغة، محاولة لفهم جديد، محمد جواد مغنية.

- دار العلم للملايين، الطبعة الأولى، بيروت، 1972م.

ـ نهج البلاغة، محمد عبده، مطبعة بابل – بغداد 1984م.

ـ غريب الحديث، القاسم بن سلام الهروي (ت224هـ)، تحقيق: محمد عبد المعيد خان، الطبعة الأولى، مطبعة مجلس دائرة المعارف الإسلامية، الهند، 1965م.

ـ الفصول المهمة في معرفة الأئمة، علي بن محمد المالكي (ت855هـ)، تحقيق: سامي الغريري، دار الحديث – قم، 1422هـ.

ـ الكاشف عن ألفاظ نهج البلاغة في شروحه، جواد المصطفوي الخراساني. بازار سلطاني – طهران، (بدون تاريخ).

ـ كتاب الرجال، الحسن بن علي بن داوود الحلي (ت707هـ)، تحقيق: محمد صادق بحر العلوم، المطبعة الحيدرية، النجف الشرف، 1972م.

ـ كتاب الصناعتين، الكتابة والشعر. أبو هلال العسكري (ت395هـ)، تحقيق علي محمد البجاوي، ومحمد أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربية، 1952.

ـ الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل. أبو القاسم، جار الله محمود بن عمر الزمخشري (ت 538هـ). مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر، 1966م.

ـ كنز العمال في سنن الأقوال والأفعال، المتقي الهندي، علاء الدين بن حسام الدين (ت 975هـ)، ضبطه وفسر غريبه: الشيخ بكري حياني، مؤسسة الرسالة، بيروت- لبنان 1989م.

ـ لسان العرب، جمال الدين محمد بن مكرم بن منظـور المصـري (ت 711هــ). دار صادر ودار بيروت، لبنان 1379هـ ـ 1955م.

ـ مجمع البيان في تفسير القرآن، الفضل بن الحسين الطبرسي (ت 548هـ). حقق وعلق عليه: لجنة من العلماء والمثقفين، مؤسسـة الأعلمـي للمطبوعـات، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، 1415هـ - 1995م.

ـ مختصر المعاني، سعد الدين التفتازاني (ت792هــ)، دار الفكـر، قـم، الطبعـة الأولى 1411هـ.

ـ مسند أحمد، أحمد بن حنبل (ت241هـ)، دار صادر، بيروت.

ـ المعارف، عبد الله بن مسلم بن قتيبـة (ت276هــ)، تحقيـق: ثـروت عكاشـة، القاهرة، دار المعارف.

ـ معجم رجال الحديث، أبو القاسم الخوئي، الطبعة الخامسة، 1992م.

ـ مناقب آل أبي طالب، محمد بن علي بن شهر آشـوب (ت588هــ)، مصـحح من لجنة من أساتذة النجف الأشرف، المطبعة الحيدرية، 1956م.

ـ منهاج البراعة في شـرح نهـج البلاغـة، حبيـب الله الخـوئي، طهـران، المكتبـة الإسلامية، الطبعة الرابعة 1405ق.

ـ نهايـة الإيجـاز في دراسـة الإعجـاز في علـوم البلاغـة وبيـان إعجـاز القـرآن الشريف، فخر الدين محمد بن عمر الـرازي (ت 606هــ).مطبعـة الآداب- القاهرة، 1317هـ.

ـ نهج البلاغة، علي بن أبي طالبعليه السلام (ت36هـ)، بجمع الشريف الرضي (ت406هـ).

تحقيق وشرح: محمد أبو الفضل ابـراهيم، بـيروت- لبنـان، دار الجيـل، الطبعـة الثانية 1416 هـ.

ـ وقعة صفين، نصربن مزاحم المنقري (ت212هـ).

تحقيق وشرح: عبـد السـلام محمـد هـارون، الطبعـة الثانيـة، المؤسسـة العربيـة الحديثة، القاهرة 1382هـ.

ـ ينابيع المودة لذوي القربى، سـليمان بـن ابـراهيم القنـدوزي (ت1294هـ)، تحقيق سيد علي جمال أشرف الحسيني، مطبعة الأسـوة، قـم، الطبعـة الأولى 1416هـ.

الفصل الثاني

فن التقسيم

المقدمة

التمهيد: فن التقسيم

وسائل التقسيم

الأول: التقسيم بالعدد

الثاني: التقسيم بالموضوع

التحذير والوعظ: المنافقون، الشيطان، الدنيا

الوصف: وصف الإسلام

وصف النبي (ﷺ)، الإمام وأصحابه

الثالث: التقسيم بالزمن

الخاتمة

المصادر

المقدمة

الحمد لله رب العالمين وأتم الصلاة والتسليم على المبعوث رحمة للعالمين محمد الرسول الأمين، وعلى آله الطاهرين وصحبه المنتجبين، وبعد، فما زال البحث العلمي بكرا في كلام الإمام علي (ﷺ)، على الرغم من كثرة ما كتب فيه وكشف عن خباياه، فجاء هذا البحث من هذا الباب ليستوي عنوانه ((فن التقسيم في نهج البلاغة))، متخذا منه سبيلا لإصابة هدفين هما: الأول: محاولة الكشف عن أسلوب الإمام (ﷺ) في نهج البلاغة في فن التقسيم، وأساليبه ووسائله. والثاني: درء الشبهات- من طرف خفي- عن صحة انتساب ما في نهج البلاغة إلى الإمام علي (ﷺ).

واشتمل البحث على تمهيد، حاولت فيه أن أعرف بالتقسيم واستعمالاته في التعبير القرآني والكلام النبوي، وعلى مجموعة من طرائق الإمام (ﷺ) في التقسيم، اندرجت تحت عنوان (وسائل التقسيم)، وضمت ثلاث وسائل هي على الترتيب بحسب كثرة استعمالها:

الأول: التقسيم بالعدد.

الثاني: التقسيم بالموضوع. الثالث: التقسيم بالزمن

وضم الأول مجموعة من المباحث، درست الأعداد الأكثر ورودا في التقسيمات، فكانت (الاثنان، والأربعة، والثلاثة، والخمسة، والستة).

أما التقسيم بالموضوع فقد اشتمل على موضوعات التحذير والوعظ

والوصف وموضوع الإمام (﵁) وأصحابه. وكان التقسيم الأخير بالزمن مشتملا على الظروف الماضية والحاضرة والمستقبلة، واستعمالات الإمام فيها.

والبحث كله محاولة جديدة للكشف عن أسلوب جديد في البيان العربي، يرتكز على أساس التنظيم الفكري ممزوجا بقالب فني بلاغي رائع، لذلك كانت روعة البحث فيه وصعوبته في آن معا تكمن في جدته، ولكن الذي سهل الطريق هو الإفادة من المصادر المختلفة من البلاغة والتاريخ والتفسير، التي لها صلة مباشرة وغير مباشرة بموضوع البحث، الذي أرجو من الله تعالى أن أوفق فيه ليكون إسهامة جديدة في البحوث التي أتطلع فيها لخدمة هذا الأثر الخالد.

التمهيد

فن التقسيم

يعرف التقسيم بأنه ((استيفاء المتكلم أقسام الشيء، بحيث لا يغادر شيئا، وهو آلة الحصر ومظنة الإحاطة بالشيء)) [1]، ومكانته من الفن القولي لا تخفى ((فله موقع في الفصاحة لا يمكن جحده و لا يسع إنكاره)) [2].

وسماه الزمخشري التفصيل، قال وهو في معرض تفسيره لقوله تعالى: ﴿وَإِن تُبۡدُواْ مَا فِيٓ أَنفُسِكُمۡ أَوۡ تُخۡفُوهُ يُحَاسِبۡكُم بِهِ ٱللَّهُۖ فَيَغۡفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ﴾[3]: ((ومعنى هذا البدل (فيغفر) التفصيل لجملة (الحساب)، لأن التفصيل أوضح من المفصل)) [4].

والتقسيم أسلوب بلاغي صعب المنال، يتطلب خبرة وإجالة عميقة للفكرة، وهو ليس متاحا لكل أحد، إلا لأولئك الذين امتلكوا ناصية اللغة، وألموا بخباياها فعرفوا كيف يقودون أزمتها، لأن المتكلم يضع نفسه في زاوية الحصر والتضييق، ومن هنا تبدو روعة فنه، في القدرة على لملمة الأفكار وحصرها والإحاطة بها من جميع جهاتها.

وجاء التقسيم في القرآن الكريم كثيرا، كلما توخى التفصيل بعد الإجمال،

---

(1) البرهان، الزركشي: 3/ 471.

(2) الطراز، العلوي: 3/ 144.

(3) البقرة: 284.

(4) الكشاف، الزمخشري: 1/ 46، وينظر: النظم القرآني في كشاف الزمخشري، درويش الجندي: 49.

قال تعالى: ﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ۖ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ ﴾[1]، فقد قسمت الآية الكريمة العباد إلى ثلاثة أقسام: الظالم لنفسه والمقتصد والسابق بالخيرات، والعباد المكلفون هم كذلك إما عاص ظالم لنفسه أو مطيع مبادر إلى الخير أو مقتصد بينهما[2]. ومنه قوله تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا ﴾[3]، وليس في رؤية البرق إلا الخوف من الصواعق والطمع في الأمطار، ((ولا ثالث لهذين القسمين))[4].

ومن التقسيم بالعدد قوله تعالى: ﴿ وَكُنتُمْ أَزْوَٰجًا ثَلَٰثَةً ﴿٧﴾ فَأَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ ﴿٨﴾ وَأَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ ﴿٩﴾ وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ ﴾[5]. وهذه الآية مماثلة في المعنى للتي قبلها، وأصحاب المشأمة هم الظالمون لأنفسهم، وأصحاب الميمنة هم المقتصدون، والسابقون هم السابقون بالخيرات[6]. واستعمل التعبير القرآني التقسيم الزمني في قوله تعالى: ﴿ فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ ﴿١٧﴾ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ

---

(1) فاطر: 32.

(2) ظ.مجمع البيان، الطبرسي: 8/ 246، البرهان، الزركشي: 3/ 260.

(3) الرعد: 12 .

(4) ظ. الإتقان في علوم القرآن، السيوطي: 2/ 240 .

(5) الواقعة: 7-8-9-10.

(6) ظ. مجمع البيان، الطبرسي:8/ 246، 9/ 358، تفسير الآلوسي، الآلوسي: 27/ 131.

وَٱلۡأَرۡضِ وَعَشِيّٗا وَحِينَ تُظۡهِرُونَ ﴾[1]، فاستوفت أقسام الأوقات، من طرفي كل يوم ووسطه باستعمال فنون البلاغة المختلفة كالمقابلة والمطابقة [2].

والتقسيم من أكثر ألوان التعبير القرآني إعجازا في الأداء والتفصيل والحصر، ووقع في الكثير من آياته الكريمة [3].

ويبدو أن ميل النفوس إلى التقسيم لأنسها بالانتظام والتبويب الذين هما أساس هذا الفن البياني، واستعماله يشير إلى تنامي الفكر كونه يستدعي نوعا من الروية في حصر الفكرة بفقر منتظمة تستوفي جهاتها كلها، ولذلك كان وسيلة أثيرة في التعبير القرآني، لما يمثل القرآن الكريم من تغيير فكري حقيقي في الذهنية العربية.

وبالمستوى ذاته جاء هذا الفن في الحديث النبوي، وبتقسيمات مختلفة لم يسمع العرب أسد منها سوى التعبير القرآني، ولا سيما الحصر العددي الذي شاع استعماله على لسان الرسول (ﷺ) مثل قوله: ((أربع من كن فيه كان منافقا خالصا، ومن كانت فيه خصلة منهن كانت فيه خصلة من النفاق حتى يدعها، إذا ائتمن خان، وإذا حدث كذب، وإذا عاهد غدر، وإذا خاصم فجر)) [4]. وقوله (ﷺ): ((ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان، أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله، وأن يكره أن يعود في الكفر

---

(1) الروم: 17-18.

(2) ظ.مجمع البيان، الطبرسي: 8/ 52 ،البرهان،الزركشي: 3/ 472 ،تفسير الآلوسي، الآلوسي: 21/ 28.

(3) تنظر سورة براءة، وتنظر أيضا: هود: 44، ق: 40.

(4) صحيح البخاري، البخاري: 1/ 14، صحيح مسلم، مسلم بن الوليد: 1/ 56.

كما يكره أن يقذف في النار)). [1] وقوله (ﷺ): ((قال آية المنافق ثلاث، إذ حدث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا ائتمن خان)) [2]، وقوله: ((القضاة ثلاثة. اثنان في النار، وواحد في الجنة: رجل علم الحق فقضى به فهو في الجنة. ورجل قضى للناس على جهل فهو في النار. ورجل جار في الحكم فهو في النار)) [3].

وغيرها كثير مما حفظته كتب الحديث النبوي الشريف [4].

وقد تأثر الإمام الأسلوب القرآني في كلامه كله [5]، ولاسيما في أسلوب التقسيم، فأكثر منه كلما استوجبه السياق، مثلما تأثر الحديث النبوي في تقسيماته واستيفاءاته العددية، إذ هو ربيب النبي (ﷺ) وحامل علمه.

ومن الغرابة بمكان أن يطعن في صحة نسبة الكلام في نهج البلاغة إلى أمير المؤمنين (ﷺ) بحجة اشتماله على التقسيم العددي، وكما يقول أحد المشككين معلقا على أسلوب الإمام في قوله: ((الإيمان على أربع دعائم: على الصبر واليقين والعدل والجهاد. والصبر منها على أربع شعب: على الشوق والشفق والزهد والترقب)): ((أربع دعائم، والشك إلى أربع شعب، و غير ذلك. فإنّ استعمال الطريقة العددية في الشروح، وتقسيم الفضائل أو الرذائل على أسلوبها، لا نراه في الآداب الجاهلية، بل لا نكاد نعرفه في الأدب الإسلامي إلّا بعد ظهور كتاب «كليلة و دمنة» المعرّب)) [6].

---

(1) صحيح البخاري، البخاري: 1 / 9- 10.

(2) المصدر نفسه: 1/ 14.

(3) سنن ابن ماجة، محمد بن يزيد القزويني: 2/ 776.

(4) ينظر: صحيح البخاري، البخاري: 2/ 220، 1/ 19، 1/ 33.

(5) ظ.الأثر القرآني في نهج البلاغة،عباس علي الفحام: 23-33.

(6) دراسة حول نهج البلاغة، الجلالي: **70**.

وهذا مخالف لما أثبته الأسلوب القرآني وأكد استعماله وأكثر منه الحديث النبوي في تقسيماته الأخلاقية المختلفة كما مر، أما الإمام علي (ﷺ) فغير مستكثر عليه أسلوب الحصر والتقسيم العددي، لما عرف من ملكات لغوية هائلة وتنظيم فكري عجيب، يستطيع به التوليد على الأثر القرآني والنبوي في مجالي الفن والموضوع، الشائع فيهما هذا الاستعمال[1].

على أية حال، هذه الشبهات وغيرها التي تثار حول نهج البلاغة، لا يسعها الثبات أمام النقد والرد [2].

التقسيم- إذن- استيفاء وحصر وإحاطة، وهو بعد، أسلوب استعمله التعبير القرآني والحديث النبوي كثيرا، وتأثرهما الإمام علي (ﷺ) في كلامه في نهج البلاغة، فأحسن استعماله، وأجاد في صحة تقسيماته، كما سيحاول البحث إثبات ذلك.

وسائل التقسيم

استعمل الإمام أسلوب التقسيم بكثرة في كلامه، وقد توسل له بوسائل عدة يمكن حصرها على أساس كثرتها على الترتيب الآتي:

الأول: التقسيم بالعدد

كانت الأعداد وسيلة ظاهرة في أسلوب التقسيم في كلام الإمام، وقد

---

(1) ظ. الأثر القرآني في نهج البلاغة، عباس علي الفحام: 220-235، التصوير الفني في خطب الإمام علي: 108-120 .

(2) ينظر: نهج البلاغة لمن، محمد حسن آل ياسين: 31-32، دراسة حول نهج البلاغة، الجلالي: **70** .

توزعت الأعداد (إثنان، وأربعة، وثلاثة، وخمسة، وستة) بحسب كثرتها في كلامه بالأسلوب الآتي:

1- اثنان

تصدرت التثنية قائمة الأعداد التي استعملت في أساليب الحصر والتقسيم، إذ وقع مجموع ما ثنى الإمام في نهج البلاغة أكثر من عشرين مرة في مواضع مختلفة من خطبه ورسائله وحكمه.

فمن حكمه المشهورة قوله: ((منهومان لا يشبعان: طالب علم وطالب دنيا))[1]. و(النهم) بالفتح هو إفراط الشهوة في الطعام، تقول منه: نهمت إلى الطعام بكسر الهاء إنهم فأنا نهم، والمنهوم المولع بالشيء. وقد حصر الإمام النهم بنوعين متناقضين هما الجاد في تحصيل العلم والمجتهد في طلب الدنيا وكلاهما لا يشبعان البتة.

قال ابن أبي الحديد عن طلب العلم: ((فأما طالب العلم العاشق له، فإنه لا يشبع منه أبدا، وكلما استكثر منه زاد عشقه له، وتهالكه عليه. مات أبو عثمان الجاحظ والكتاب على صدره. وكان شيخنا أبو علي رحمه الله في النزع وهو يملي على ابنه أبى هاشم مسائل في علم الكلام، وكان القاضي أحمد بن أبي داود[2] يأخذ الكتاب في خفه وهو راكب، فإذا جلس في دار الخليفة اشتغل بالنظر فيه إلى أن يجلس الخليفة، ويدخل إليه. وقيل: ما فارق ابن أبي داود الكتاب قط إلا في

(1) نهج البلاغة، الإمام علي(رضي الله عنه): 2/ 409.

(2) لا نعلم بالضبط من هو أبو علي الذي يعنيه ابن أبي الحديد، ولم أعثر على ترجمة لابن أبي داوود.

الخلاء. وأعرف إنا في زماننا من مكث نحو خمس سنين لا ينام إلا وقت السحر صيفا وشتاء مكبا على كتاب صنفه، وكانت وسادته التي ينام عليها الكتاب))[1].

وتروى هذه الكلمة للنبي (ﷺ) [2]، فإن جاءت على لسان علي (رضي الله عنه) فـ ((لا عجب أن يشتبه الكلامان، فمستقاهما من قليب ومفرغهما من ذنوب))[3].

ومثل هذه التثنية لفظة (يومان)، نحو قول الإمام: ((والدهر يومان يوم لك ويوم عليك، فإذا كان لك فلا تبطر، وإذا كان عليك فاصبر)). [4] وهذا معنى مطروق، ويبدو أن هذا الضرب من التثنية شائع في المأثور العربي القديم فقد ورد كثيرا، نحو قولهم: ((الدهر يومان: يوم بلاء، ويوم رخاء. والدهر ضربان: حبرة وعبرة، والدهر وقتان: وقت سرور، ووقت ثبور)) [5].

وتكرر هذا المعنى في موضع آخر، فمن كتاب له عليه السلام إلى عبد الله بن العباس: ((أما بعد فإنك لست بسابق أجلك ولا مرزوق ما ليس لك. واعلم بأن الدهر يومان: يوم لك ويوم عليك)). [6]

وثنى لفظة (الرزق) وقسمها في قوله موصيا ولده الحسن: ((اعلم، يا بني،

(1) شرح نهج البلاغة، ابن أبي الحديد: 20/ 174.

(2) ظ.النهاية في غريب الحديث، ابن الأثير: 5/ 138، سنن الدرامي، الدارمي: 1/ 96.

(3) نهج البلاغة، الإمام علي (رضي الله عنه): 2/ 359.

(4) المصدر نفسه: 2/ 396.

(5) شرح نهج البلاغة، ابن أبي الحديد: 19/ 364.

(6) نهج البلاغة، الإمام علي(رضي الله عنه): 2/ 297.

أن الرزق رزقان: رزق تطلبه، ورزق يطلبك فإن أنت لم تأته أتاك، فلا تحمل هم سنتك على هم يومك، كفاك كل يوم ما فيه)).[1]

وفي موضع آخر: ((الرزق رزقان: طالب ومطلوب، فمن طلب الدنيا طلبه الموت حتى يخرجه عنها، ومن طلب الآخرة طلبته الدنيا حتى يستوفي رزقه منها))[2].

وجاءت لفظة (عمل) مثناة بأسلوب الحصر والتقسيم في قوله عليه السلام: ((شتان ما بين عملين: عمل تذهب لذته وتبقى تبعته، وعمل تذهب مؤونته ويبقى أجره)).[3]

واستعمل الإمام التقسيم كثيرا في لفظة (رجل) بأسلوب التثنية، إذ وقعت في ستة مواضع من نهج البلاغة، نحو قوله: ((ألا وإني أقاتل رجلين: رجلا ادعى ما ليس له، وآخر منع الذي عليه))[4]، فقد قسم غريمه الذي استحق قتاله إلى رجل ادعى حقا ليس له، نحو أن يخرج على الإمام من يدعي الخلافة لنفسه، ورجل منع ما عليه، نحو أن يخرج على الإمام رجل لا يدعي الخلافة، ولكنه يمتنع عن الطاعة فقط.

والخارج على الإمام مدع الخلافة لنفسه ومانع ما عليه في الوقت ذاته، لأنه قد امتنع من الطاعة، فقد دخل في أحد القسمين في الآخر، ومن هنا قدمه الإمام.

---

(1) نهج البلاغة، الإمام علي(ﷺ): 2/ 394.

(2) المصدر نفسه: 2/ 403.

(3) المصدر نفسه: 2/ 333.

(4) المصدر نفسه: 1/ 410.

وقيل إن الإمام في قسمه الأول يشير إلى أصحاب الجمل وفي الثاني إلى معاوية وأصحابه.(1)

وقال الإمام محذرا من المدعين: ((إن أبغض الخلائق إلى الله رجلان: رجل وكله الله إلى نفسه فهو جائر عن قصد السبيل مشغوف بكلام بدعة، ودعاء ضلالة، فهو فتنة لمن افتتن به، ضال عن هدي من كان قبله، مضل لمن اقتدى به في حياته وبعد وفاته، حمال خطايا غيره، رهن بخطيئته. ورجل قمش جهلا، موضع في جهال الفتنة، عاد في أغباش الفتنة، عم بما عقد الهدنة، قد سماه أشباه الناس عالما وليس بعالم، بكر فاستكثر من جمع ما قل منه خير مما كثر...))(2). نفر الإمام ابتداء من الاتصاف بصفات المدعين الذين سيفصل الكلام فيهم، وأجمل أبغض الخلق إلى الله في رجلين، ربما يبدوان في الظاهر رجلا واحدا، إلا أن بينهما فرقا دقيقا هما:

الأول: العالم الذي صرف علمه إلى البدع وضلالة الناس. فهو حمال خطايا غيره.

الثاني: الجاهل المتشبه بالعالم. سماه الجهلة (أشباه الناس) عالما. وقمش بمعنى جمع، وموضع أي المسرع. والعادي الذي يعدو متخبطا في أغباش(3) أي ظلمات الفتنة على سبيل الاستعارة. والصفات كلها تؤكد التهور والتخبط لهذا الصنف الذي يصفه الإمام (ﷺ).

---

(1) ظ.شرح نهج البلاغة، ابن ميثم: 3/ 342.

(2) نهج البلاغة، الإمام علي(ﷺ): 1/ 55.

(3) لسان العرب، ابن منظور: قمش، غبش.

وقد أعطى الإمام صفات تفصيلية لكل واحد منهما، أغنى شرحها ابن ميثم البحراني عن غيره وليس هنا محل ذكرها [1].

وابن أبي الحديد- وهو شارح عميق النظر في كلام الإمام- فرق بينهما على أساس أن الأول هو الضال في أصول العقائد، كالمشبه والمجبر ونحوهما. والثاني هو المتفقه في فروع الشرعيات، وليس بأهل لذلك، كفقهاء السوء.[2]

ولا أظن أن الإمام يعني ذلك الحصر الذي ذهب إليه ابن أبي الحديد، لقصور الناس زمن الإمام من فهم هذه التقسيمات.

ومثل هذه التثنية قوله عليه السلام: ((هلك في رجلان محب غال ومبغض قال)) [3]، وقوله: ((يهلك في رجلان: محب مفرط وباهت مفتر)) [4].

وكلا القولين منقول عن النبي (ﷺ) في خطابه لعلي عليه السلام: ((إن فيك لخصلتين كانتا في عيسى بن مريم. فقال بعض أصحابه. حتى النبيين شبههم به. قال [علي]: وما الخصلتان؟ قال: أحبت النصارى عيسى حتى هلكوا فيه، وأبغضته اليهود حتى هلكوا فيه، وأبغضك رجل حتى هلك فيك، وأحبك رجل حتى يهلك فيك)) [5].

وقال الإمام موصيا ولده الحسن عليهما السلام: ((يا بني، لا تخلفن وراءك

---

(1) ظ. شرح نهج البلاغة، ابن ميثم البحراني: 1/ 312 .

(2) ظ. شرح نهج البلاغة، ابن أبي الحديد: 1/ 284- 287.

(3) نهج البلاغة، الإمام علي(ﷺ): 2/ 412.

(4) المصدر نفسه: 2/ 413.

(5) شواهد التنزيل، الحاكم الحسكاني: 2/ 233، الاستيعاب،ابن عبد البر: 3/ 1101، الوافي بالوفيات،الصفدي: 21/ 179، السيرة الحلبية، الحلبي: 2/ 474.

شيئا من الدنيا، فإنك تخلفه لأحد رجلين: إما رجل عمل فيه بطاعة الله فسعد بما شقيت به، وإما رجل عمل فيه بمعصية الله فكنت عونا له على معصيته. وليس أحد هذين حقيقا أن تؤثره على نفسك.)) (1).

والإمام في معرض الإيصاء بالزهد، وقسمته هذه المرة مستندة إلى هذا الأساس، وتذييله بالنفي بعد التقسيم برهان على صحته.

واستعمل تثنية (رجلين) في عهده لمالك الأشتر، ينهاه فيه عن الاحتجاب من الرعية، فقال (ﷺ): ((..وإنما أنت أحد رجلين: إما امرؤ سخت نفسك بالبذل في الحق، ففيم احتجابك من واجب حق تعطيه، أو فعل كريم تسديه، أو مبتلى بالمنع، فما أسرع كف الناس عن مسألتك إذا أيسوا من بذلك، مع أن أكثر حاجات الناس إليك مما لا مؤونة فيه عليك، من شكاة مظلمة، أو طلب إنصاف في معاملة)). (2)

فحصر فعل الاحتجاب بنوعين من الرجال هما: الكريم والبخيل، ثم فصل الكلام في تفسيرهما منكرا ((لم تحتجب، فإن أكثر الناس يحتجبون كيلا يطلب منهم الرفد ! وأنت فإن كنت جوادا سمحا لم يكن لك إلى الحجاب داع، وإن كنت ممسكا فسيعلم الناس ذلك منك، فلا يسألك أحد شيئا. ثم قال: على أن أكثر ما يسأل منك ما لا مؤونة عليه في ماله، كرد ظلامة أو إنصاف من خصم)) (3).

---

(1) شرح نهج البلاغة، ابن أبي الحديد: 9/ 122.

(2) نهج البلاغة، الإمام علي(ﷺ): 2/ 259.

(3) شرح نهج البلاغة- ابن أبي الحديد- ج 17- ص91 .

ومن قوله الخالد لمالك الأشتر في الرعية: ((وأشعر قلبك الرحمة للرعية، ولا تكونن عليهم سبعا ضاريا، تغتنم أكلهم، فإنهم صنفان: إما أخ لك في الدين، أو نظير لك في الخلق))(1).

فهذا تقسيم عام يشمل الإنسانية كلها، ويتجاوز حدود الطوائف والأديان، تجعل الناس كلهم مهما كانت ألوانهم وأديانهم تحت مسمى الرعية، والحاكم مسؤول عن حماية أمنهم وحياتهم. إنها شراكة عادلة أن يتناصف الناس بقسمين الأخوة في الدين والشبه في الإنسانية. وهما أدعى لاحترامهما كما يرى أمير المؤمنين (ع).

2- الأربعة

وقع العدد (أربعة) في مواضع كثيرة من نهج البلاغة بأسلوب التقسيم، كان فيها الإمام لافتا للسامعين في القدرة على الإجمال والتفصيل بالأسلوب العددي، نحو قوله عليه السلام من خطبة حصر فيها الناس على التصنيف الآتي: ((والناس على أربعة أصناف: منهم من لا يمنعه الفساد في الأرض إلا مهانة نفسه وكلالة حده، ونضيض وفره. ومنهم المصلت بسيفه، والمعلن بشره، والمجلب بخيله ورجله، قد أشرط نفسه وأوبق دينه، لحطام ينتهزه، أو مقنب يقوده، أو منبر يفرعه. ولبئس المتجر أن ترى الدنيا لنفسك ثمنا، ومما لك عند الله عوضا! ومنهم من يطلب الدنيا بعمل الآخرة، ولا يطلب الآخرة بعمل الدنيا،

(1) شرح نهج البلاغة، ابن أبي الحديد: 9/ 122.

قد طامن من شخصه، وقارب من خطوه، وشمر من ثوبه، وزخرف من نفسه للأمانة، واتخذ ستر الله ذريعة إلى المعصية. ومنهم من أبعده عن طلب الملك ضئولة نفسه، وانقطاع سببه، فقصرته الحال على حاله، فتحلى باسم القناعة، وتزين بلباس أهل الزهادة، وليس من ذلك في مراح ولا مغدي. وبقي رجال غض أبصارهم ذكر المرجع، وأراق دموعهم خوف المحشر....)). (1)

قسم الإمام الناس استنادا إلى طلب الزعامة والتسلط على رقاب الناس أربعة أقسام هي:

القسم الأول: طموح إلى الإمارة، ولكن تعجزه قلة المال وضعة النفس عن إدراكها.

القسم الثاني: مستقتل على طلب الزعامة أو على حد تعبير الإمام (يشمر) ولا يعبأ من أجل الاستحواذ عليها أن يفسد في الأرض ويهلك الحرث والنسل، ولذلك ذم الإمام هذا النوع مباشرة بقوله: ((و لبئس المتجر أن ترى الدنيا لنفسك ثمنا، ومما لك عند الله عوضا)) (2).

القسم الثالث: المراؤون الذين يتخذون الدين مطية نزواتهم وتطلعاتهم، وهذا النوع من أخطر أصناف الناس لقدرته على الخداع والتضليل، لذلك أشار الإمام إلى صفاته ورسم صوره بكنايات كثيرة مثل: ((قد طامن من شخصه، وقارب من خطوه، وشمر من ثوبه، وزخرف من نفسه للأمانة، واتخذ ستر

---

(1) شرح نهج البلاغة، ابن أبي الحديد: 2/ 174- 176.

(2) شرح نهج البلاغة، ابن أبي الحديد: 2/ 174- 176.

الله ذريعة إلى المعصية)) وهـي صـور فاضـحة لمـدعي الـدين في كـل عصـر وأوان، لأنها صور حية تعيش حتى في عصرنا الحاضر، ولطالما أكدها الإمام وحذر منها في مواقف كثيرة فقد أثر عنه قوله لعمار بن ياسر وقد سمعه يراجع المغيرة بن شعبة كلاما: ((دعه يا عمار فإنه لم يأخذ من الدين إلا ما قاربته الدنيا، وعلى عمد لبس على نفسه ليجعل الشبهات عاذرا لسقطاته))[1].

القسم الرابع: الكسالى وغير العاملين، الذين ليس لهم موقف واضح في الحياة فلا يطلب الملك ولا يطلب الدنيا بالمراءاة، إذ لا مال له أصلا، ((بل تنقطع أسبابه كلها فيخلد إلى القناعة، ويتحلى بحلية الزهادة في اللذات الدنيوية، لا طلبا للدنيا بل عجزا عن الحركة فيها، وليس بزاهد على الحقيقة)) [2].

ويبدو أن الإمام حين حصر أقسام الناس بالأصناف الأربعة، أخرج القسم الخامس من هذا التعداد، ليفرده بحقل آخر بعيدا عن هذه الأصناف السيئة بقوله: ((وبقي رجال غض أبصارهم ذكر المرجع))وهم الأبرار الأتقياء، الذين أراق دموعهم خوف الآخرة، فهو لم يذكرهم من جملة تعداد الناس بلفظ (ومنهم) بل أشار بقوله: (بقي) إلى تفردهم وتميزهم وخروجهم عن الأقسام الأربعة. فكأن هؤلاء لشدة تعلقهم بالآخرة ((لا يعرفون عند العامة وإنما يتعرف أحوالهم أمثالهم، فكأنهم في نظر الناس ليسوا بناس)) [3].

---

(1) نهج البلاغة، الإمام علي(رضي الله عنه): 2/ 398.

(2) شرح نهج البلاغة، ابن أبي الحديد: 2/ 177- 178.

(3) نهج البلاغة،شرح محمد عبده: 1/ 78- 79.

ولعل هذه التقسيمات البيانية وغيرها مما عرف به كلام أمير المؤمنين، وميزه عن غيره من الكلام العربي هي التي دعت الشريف الرضي إلى نقل تأكيد الجاحظ نسبة هذه الخطبة إلى الإمام علي، بقوله: ((وهذه الخطبة ربما نسبها من لا علم له إلى معاوية، وهي من كلام أمير المؤمنين عليه السلام الذي لا يشك فيه. وأين الذهب من الرغام! وأين العذب من الأجاج! وقد دل على ذلك الدليل الخريت، ونقده الناقد البصير، عمرو بن بحر الجاحظ، فإنه ذكر هذه الخطبة في كتاب " البيان والتبيين " وذكر من نسبها إلى معاوية. ثم تكلم من بعدها بكلام في معناها، جملته أنه قال: وهذا الكلام بكلام علي عليه السلام أشبه، وبمذهبه في تصنيف الناس وفي الاخبار عما هم عليه من القهر والإذلال، ومن التقية والخوف أليق. قال: ومتى وجدنا معاوية في حال من الأحوال يسلك في كلامه مسلك الزهاد، ومذاهب العباد !)) [1].

وفي تقسيم آخر بالعدد أربعة، قال الإمام من خطبة حذر فيها من أحاديث البدع والكذب: ((وقد كذب على رسول الله (ﷺ) على عهده حتى قام خطيبا فقال: من كذب على متعمدا فليتبوأ مقعده من النار. وإنما أتاك بالحديث أربعة رجال ليس لهم خامس: رجل منافق مظهر للإيمان متصنع بالإسلام، لا يتأثم ولا يتحرج، يكذب على رسول الله (ﷺ)، متعمدا، فلو علم الناس انه منافق كاذب لم يقبلوا منه، ولم يصدقوا قوله، ولكنهم قالوا: صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم وآله، وسمع منه، ولقف عنه، فيأخذون بقوله. وقد أخبرك الله عن المنافقين بما أخبرك، ووصفهم بما وصفهم به لك، ثم بقوا بعده، فتقربوا إلى أئمة

(1) شرح نهج البلاغة، ابن أبي الحديد: 9/ 122.

الضلالة والدعاة إلى النار بالزور والبهتان، فولوهم الأعمال، وجعلوهم حكاما على رقاب الناس، فأكلوا بهم الدنيا، وإنما الناس مع الملوك والدنيا إلا من عصم الله. فهذا أحد الأربعة. ورجل سمع من رسول الله شيئا لم يحفظه على وجهه، فوهم فيه، ولم يتعمد كذبا، فهو في يديه ويرويه ويعمل به، ويقول: أنا سمعته من رسول الله(ﷺ)، فلو علم المسلمون أنه وهم فيه لم يقبلوه منه، ولو علم هو أنه كذلك لرفضه. ورجل ثالث سمع من رسول الله، (ﷺ)، شيئا يأمر به، ثم إنه نهى عنه، وهو لا يعلم، أو سمعه ينهى عن شئ ثم أمر به، وهو لا يعلم، فحفظ المنسوخ ولم يحفظ الناسخ، فلو علم أنه منسوخ لرفضه، ولو علم المسلمون- إذ سمعوه منه- انه منسوخ لرفضوه. وآخر رابع لم يكذب على الله، ولا على رسوله، مبغض للكذب خوفا من الله وتعظيما لرسول الله (ﷺ)، ولم يهم، بل حفظ ما سمع على وجهه، فجاء به على سمعه لم يزد فيه ولم ينقص منه، فهو حفظ الناسخ فعمل به، وحفظ المنسوخ فجنب عنه، وعرف الخاص والعام والمحكم والمتشابه، فوضع كل شئ موضعه. وقد كان يكون من رسول الله (ﷺ) الكلام له وجهان، فكلام خاص وكلام عام، فيسمعه من لا يعرف ما عنى الله سبحانه به، ولا ما عنى رسول الله (ﷺ)، فيحمله السامع، ويوجهه على غير معرفة بمعناه وما قصد به وما خرج من اجله. وليس كل أصحاب رسول الله(ﷺ) من كان يسأله ويستفهمه، حتى إن كانوا ليحبون أن يجئ الأعرابي والطارئ، فيسأله عليه السلام، حتى يسمعوا، وكان لا يمر بي من ذلك شئ إلا سألته عنه وحفظته.)) [1]

(1) نهج البلاغة، الإمام علي(رضي الله عنه): 2/ 306.

حصر الإمام مصادر الحديث عن النبي (ﷺ) بأربعة أقسام، صنفها على النحو الآتي:

الأول: المنافق، الذي يقلب الحديث النبوي لأهوائه ومصالحه. وقد كان للمنافقين أثر سيء في تشويه السنة النبوية، منذ عصر الإمام وإشارته في كلامه هذا إلى فداحة ما تعرضت له السنة النبوية إلى يوم الناس هذا وما نعاني منه ((فإنه خالط الحديث كذب كثير صدر عن قوم غير صحيحي العقيدة، قصدوا به الإضلال وتخبيط القلوب والعقائد، وقصد به بعضهم التنويه بذكر قوم كان لهم في التنويه بذكرهم غرض دنيوي)) [1].

وقد فصل الإمام الكلام في هذا القسم تفصيلا مبينا لخطورته [2].

الثاني: الحسن النية، ولكنه غير متثبت من نقله، لأنه يحفظ شيئا ويتوهم آخر.

الثالث: حسن النية أيضا، ولكنه غير متابع لكلام النبي (ﷺ)، فعمل بالمنسوخ وفاته الناسخ.

الرابع: وهم الملازمون للنبي (ﷺ)، الذين يحفظون كلامه، لا يزيدون فيه ولا ينقصون، ويعلمون ناسخه ومنسوخه، وخاصه وعامه.

(1) شرح نهج البلاغة، ابن أبي الحديد: 2/ 174- 176.
(2) ينظر: شرح نهج البلاغة، ابن أبي الحديد: 2/ 174- 176.

والإمام أكد نفسه ضمن هذه الفئة الرابعة، معللا ذلك بصفات الملازمة وكثرة الاستفهام من النبي (ﷺ) بقصد المعرفة العلمية التي تدل عن تقليب المسألة في الذهن والانشغال بهم الجواب والحل، لا بالعرض الطاريء، ثم الحفظ للإجابة الصادرة عن النبي (ﷺ).

قال ابن أبي الحديد: ((واعلم أن أمير المؤمنين عليه السلام كان مخصوصا من دون الصحابة رضوان الله عليهم بخلوات كان يخلو بها مع رسول الله صلى الله عليه وآله، لا يطلع أحد من الناس على ما يدور بينهما، وكان كثير السؤال للنبي صلى الله عليه وآله عن معاني القرآن وعن معاني كلامه صلى الله عليه وآله، وإذا لم يسال ابتدأه النبي صلى الله عليه وآله بالتعليم والتثقيف، ولم يكن أحد من أصحاب النبي صلى الله عليه وآله كذلك، بل كانوا أقساما، فمنهم من يهابه أن يسأله، وهم الذين يحبون أن يجئ الأعرابي، أو الطارئ فيسأله، وهم يسمعون، ومنهم من كان بليدا بعيد الفهم قليل الهمة في النظر والبحث، ومنهم من كان مشغولا عن طلب العلم وفهم المعاني، أما بعبادة أو دنيا، ومنهم المقلد يرى أن فرضه السكوت وترك السؤال، ومنهم المبغض الشانئ، الذي ليس للدين عنده من الموقع ما يضيع وقته وزمانه بالسؤال عن دقائقه وغوامضه، وانضاف إلى الأمر الخاص بعلي عليه السلام ذكاؤه وفطنته وطهارة طينته وإشراق نفسه وضوئها. وإذا كان المحل قابلا متهيئا، كان الفاعل المؤثر موجودا، والموانع مرتفعة، حصل الأثر على أتم ما يمكن، فلذلك كان علي عليه السلام- كما قال الحسن- البصري: رباني هذه الأمة وذا فضلها، ولذا تسميه الفلاسفة إمام الأئمة وحكيم العرب))[1].

(1) شرح نهج البلاغة، ابن أبي الحديد: 11/ 48.

هي- إذن- عملية مدارسة وفهم وحفظ. وبهذا النحو يرى الإمام النقل الصحيح للسنة النبوية الشريفة، وقطع الطريق على المدلسين والمتصيدين في عكر المياه.

وفي تقسيمات رباعية أخر تنم عن انصهار ذاته في القرآن الكريم قال عليه السلام: ((من أعطي أربعا لم يحرم أربعا: من أعطي الدعاء لم يحرم الإجابة، ومن أعطي التوبة لم يحرم القبول، ومن أعطي الاستغفار لم يحرم المغفرة، ومن أعطي الشكر لم يحرم الزيادة))[1].

وتقسيمات الإمام مبنية على تمثيل عميق للقرآن الكريم، وفي قدرة مميزة على استحضار النص القرآني الذي ملأ تعبيرات الإمام في نهج البلاغة[2]، وقد تنبه إلى ذلك الشريف الرضي في تعليقه على كلام الإمام- الذي يرى بعض الشارحين لنهج البلاغة أنه من أصل المتن- فقال: ((وتصديق ذلك كتاب الله تعالى قال الله عز وجل في الدعاء: ﴿ٱدۡعُونِيٓ أَسۡتَجِبۡ لَكُمۡ﴾[3]، وقال في الاستغفار: ﴿وَمَن يَعۡمَلۡ سُوٓءًا أَوۡ يَظۡلِمۡ نَفۡسَهُۥ ثُمَّ يَسۡتَغۡفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورٗا رَّحِيمٗا﴾[4]، وقال في الشكر: ﴿لَئِن شَكَرۡتُمۡ لَأَزِيدَنَّكُمۡ﴾[5]، وقال في التوبة: ﴿إِنَّمَا ٱلتَّوۡبَةُ عَلَى

(1) نهج البلاغة، الإمام علي(ﷺ): 2/ 337.
(2) ينظر: الأثر القرآني في نهج البلاغة، عباس علي الفحام: 83- 105- 349.
(3) غافر: 60.
(4) النساء: 110.
(5) إبراهيم: 7.

ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾.(1)

ومثل هذه التقسيمات التفسيرية ما ((روي أنه ذكر عند عمر بن الخطاب في أيامه حلي الكعبة وكثرته، فقال قوم لو أخذته فجهزت به جيوش المسلمين كان أعظم للأجر، وما تصنع الكعبة بالحلي؟ فهم عمر بذلك، وسأل أمير المؤمنين عليه السلام. فقال عليه السلام: ((إن القرآن أنزل على النبي صلى الله عليه وآله والأموال أربعة: أموال المسلمين فقسمها بين الورثة في الفرائض، والفيء فقسمه على مستحقيه، والخمس فوضعه الله حيث وضعه، والصدقات فجعلها الله حيث جعلها. وكان حلي الكعبة فيها يومئذ، فتركه الله على حاله ولم يتركه نسيانا، ولم يخف عليه مكانا، فأقره حيث أقره الله ورسوله)). فقال له عمر: لولاك لافتضحنا، وترك الحلي بحاله))(2).

فقد قسم الإمام الأموال من جهة التصرف بها إلى أربعة أقسام هي:

الأول: الأموال الموروثة.

الثاني: الفيء.

الثالث: الخمس.

الرابع: الصدقات.

---

(1) النساء: 17.

(2) نهج البلاغة، الإمام علي(عليه السلام): 2/ 371.

وجعل حلي الكعبة خارجا من قسمة الأموال وخاصا بالكعبة ذاتها.[1].

ومن فرائد التقسيم الرباعي ما كتب الإمام علي (ﷺ) لشريح بن الحارث[2] حين بلغه أن اشترى دارا بثمانين دينارا، فاستدعاه، وقال له: ((بلغني أنك ابتعت دارا بثمانين دينارا وكتبت كتابا وأشهدت فيه شهودا، فقال شريح: قد كان ذلك يا أمير المؤمنين. قال فنظر إليه نظر مغضب ثم قال له: يا شريح أما إنه سيأتيك من لا ينظر في كتابك، ولا يسألك عن بينتك حتى يخرجك منها شاخصا، ويسلمك إلى قبرك خالصا. فانظر يا شريح لا تكون ابتعت هذه الدار من غير مالك، أو نقدت الثمن من غير حلالك فإذا أنت قد خسرت دار الدنيا ودار الآخرة. أما إنك لو أتيتني عند شرائك ما اشتريت لكتبت لك كتابا على هذه النسخة فلم ترغب في شراء هذه الدار بدرهم فما فوق. والنسخة: ((هذا ما اشترى عبد ذليل من عبد قد أزعج للرحيل، اشترى منه دارا من دار الغرور من جانب الفانين، وخطة الهالكين، ويجمع هذه الدار حدود أربعة: الحد الأول ينتهي إلى دواعي الآفات، والحد الثاني ينتهي إلى دواعي المصيبات، والحد الثالث ينتهي إلى الهوى المردي، والحد الرابع ينتهي إلى الشيطان المغوي، وفيه يشرع باب هذه الدار)))[3].

جاء تقسيم الدار رباعيا استنادا إلى جهات المساحة الأربعة المعروفة في

---

(1) ظ. شرح نهج البلاغة، ابن أبي الحديد: 19/ 158-159.

(2) ظ.ترجمته في: البداية والنهاية، ابن كثير: 9/ 29.

(3) نهج البلاغة البلاغة، الإمام علي(ﷺ): 2/ 135.

كتب الشروط والأملاك، والمعمول بها حتى وقت قريب من عصرنا هذا، وصيغتها ((هذا ما اشترى فلان من فلان، اشترى منه دارا من شارع كذا وخطه كذا، ويجمع هذه الدار حدود أربعة، فحد منها ينتهي إلى دار فلان، وحد آخر ينتهي إلى ملك فلان، وحد آخر ينتهي إلى ما كان يعرف بفلان، وهو الان معروف بفلان، وحد آخر ينتهي إلى كذا. ومنه شروع باب هذه الدار، وطريقها: (اشترى هذا المشترى المذكور من البائع المذكور جميع الدار المذكورة بثمن مبلغه كذا وكذا دينارا، أو درهما، فما أدرك المشترى المذكور من درك فمرجوع به على من يوجب الشرع الرجوع به عليه). ثم تكتب الشهود في آخر الكتاب. شهد فلان ابن فلان بذلك، وشهد فلان ابن فلان به أيضا)) [(1)].

ولكن الإمام حول الكتاب من عقد شراء دار إلى كتاب وعظي زهدي، إنكارا لغلاء ثمنها وتخويفا من أن يكون ابتاعها بمال حرام، ناقلا صيغة الشرط الفقهي إلى معنى آخر جديد لم يسبق لأحد أن صاغه على هذا النحو الذي نظمه أمير المؤمنين ((ولا غرو فما زال سباقا إلى العجائب والغرائب)) [(2)].

ومن طريف التقسيم هذا أن جعل الإمام الحد الرابع لهذه الدار ينتهي إلى (الشيطان المغوي)، ((ليقول: ((وفيه يشرع باب هذه الدار))، لأنه إذا كان الحد إليه ينتهي كان أسهل لدخوله إليها، ودخوله أتباعه وأوليائه من أهل الشيطنة والضلال)) [(3)].

---

(1) شرح نهج البلاغة، ابن أبي الحديد: 14/ 30 – 31.

(2) المصدر نفسه.

(3) المصدر نفسه.

ومن حكم الإمام ذات التقسيم الرباعي قوله، وقد سئل عن الإيمان: ((الإيمان على أربع دعائم: على الصبر واليقين والعدل والجهاد. والصبر منها على أربع شعب: على الشوق والشفق والزهد والترقب. فمن اشتاق إلى الجنة سلا عن الشهوات، ومن أشفق من النار اجتنب المحرمات، ومن زهد في الدنيا استهان بالمصيبات، ومن ارتقب الموت سارع إلى الخيرات. واليقين منها على أربع شعب: على تبصرة الفطنة، وتأول الحكمة، وموعظة العبرة، وسنة الأولين. فمن تبصر في الفطنة تبينت له الحكمة، ومن تبينت له الحكمة عرف العبرة، ومن عرف العبرة فكأنما كان في الأولين. والعدل منها على أربع شعب: على غائص الفهم، وغور العلم، وزهرة الحكم، ورساخة الحلم. فمن فهم علم غور العلم، ومن علم غور العلم صدر عن شرائع الحكم، ومن حلم لم يفرط في أمره وعاش في الناس حميدا. والجهاد منها على أربع شعب: على الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، والصدق في المواطن، وشنآن الفاسقين، فمن أمر بالمعروف شد ظهور المؤمنين، ومن نهى عن المنكر أرغم أنوف المنافقين، ومن صدق في المواطن قضى ما عليه، ومن شنئ الفاسقين وغضب لله غضب الله له وأرضاه يوم القيامة))(1).

والإمام استوفى كل قسم من الأقسام الرباعية بشكل مفصل، ولست اشك في أنه أسلوب تأثره الإمام (ﷺ) من الحديث النبوي الشريف، كما مر في أول الفصل (2).

---

(1) نهج البلاغة، الإمام علي(ﷺ): 2/ 313، وينظر مثله: في المصدر نفسه والصفحة.

(2) ظ. الصفحة: 7 من البحث.

3- ثلاثة

استعمل الإمام العدد (ثلاثة) في ستة مواضع مختلفة بأسلوب الحصر والتقسيم، خمسة منها صرح بلفظ العدد، وواحدة قسم قسمة ثلاثية ولم يصرح.

أما التي لفظ العدد صراحة فهي: نحو قوله: ((ألا وإن الظلم ثلاثة: فظلم لا يغفر، وظلم لا يترك، وظلم مغفور لا يطلب. فأما الظلم الذي لا يغفر فالشرك بالله، قال الله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ ﴾[1] وأما الظلم الذي يغفر فظلم العبد نفسه عند بعض الهنات. وأما الظلم الذي لا يترك فظلم العباد بعضهم بعضا)).[2] فقد استقصى عواقب الظلم بثلاثة أصناف، وهو إنما وقف على النوع الأول لخطورته مستندا فيه على الآية الكريمة المذكورة.

ويبدو أن روعة التقسيمات عند الإمام هي في قدرتها على حصر الموضوعات الكبيرة، التي يصعب في العادة لملمتها وحصرها على نحو ضيق كأنه مشاهد للعيان، ومن هنا يتضح سر أنس النفس بفن التقسيم، كونه يتيح لها عد مالا يتصور عده، أو الإشراف على ما لا يمكن لملمته، نحو قول الإمام وقد حصر الناس بثلاثة أنواع: ((الناس ثلاثة: فعالم رباني، ومتعلم على سبيل نجاة، وهمج رعاع، أتباع كل ناعق يميلون مع كل ريح..)).[3]

فهذا التقسيم الثلاثي صائب تماما إذ لا رابع له ((وذلك لأن البشر باعتبار

(1) النساء: 48.

(2) نهج البلاغة، الإمام علي(عليه السلام): 1/ 421.

(3) المصدر نفسه: 2/ 339.

الأمور الإلهية، إما عالم على الحقيقة يعرف الله تعالى، وإما شارع في ذلك فهو بعد في السفر إلى الله، يطلبه بالتعلم و الاستفادة من العالم، وإما لا ذا ولا ذاك، وهو العامي الساقط الذي لا يعبأ الله)) (1).

ولم يمض الإمام في تقسيماته لمجرد عدها بهذه الأصناف بل قيد كل صنف منها بقيد إتماما للمعنى وإثراء للفكرة، فنسب الأول وهو العالم إلى الرب تعالى على غير قياس، أي العالم علم ربوبيّته و هو العارف باللّه تعالى، وزيدت الألف و النون للمبالغة في النسبة قال اللّه تعالى: ﴿كُونُواْ رَبَّـٰنِيِّـۧنَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ ٱلْكِتَـٰبَ﴾ (2).

وقيل في سبب تسميتهم (الربانيين) ((لأنّهم يربّون المتعلّمين بصغار العلوم قبل كبارها. و قيل لأنّهم يربّون العلم، أي يقومون بإصلاحه.)) (3).

أما الصنف الثاني فهو المتعلّم وقيده بكونه على سبيل النجاة ((ولمّا كان العلم سببا للنجاة في الآخرة، و كان المتعلّم في طريق تحصيله، كان على سبيل النجاة، ليصل إليها بالعلم الّذي هو غايته المطلوبة)) (4).

وأما الصنف الثالث فهو عامة الناس ووصفهم الإمام بست صفات هي ((أحدها: استعار لهم لفظ الهمج باعتبار حقارتهم. الثاني: وصفهم بالعامّيّة

(1) شرح نهج البلاغة، ابن أبي الحديد: 18/ 348.
(2) آل عمران: 79.
(3) شرح نهج البلاغة، ابن أبي الحديد: 18/ 348.
(4) المصدر نفسه: 9/ 122.

والحداثة لكونهما مظنّتى الجهل. الثالث: كونهم أتباع كلّ ناعق ملاحظة لشبههم بالغنم في الغفلة و الغباوة. الرابع: كنّى بكونهم يميلون مع كلّ ريح عن ضعفهم عن التماسك في مذهب واحد و الثبات عليه. الخامس: كونهم لم يستضيئوا بنور العلم وهو كونهم على ظلمة الجهل. السادس: و لم يلجئوا إلى ركن وثيق. واستعار الركن الوثيق للاعتقادات الحقّة البرهانيّة الّتي يعتمد عليها في دفع مكاره الآخرة)). [1] ويبدو أن الإمام إنما فصل في النوع الثالث، لكثرته واضطرابه لعدم ثبات المبدأ في نفسه.

ومما يصب في هذا الأسلوب قوله عليه السلام: ((أصدقاؤك ثلاثة، وأعداؤك ثلاثة، فأصدقاؤك: صديقك، وصديق صديقك، وعدو عدوك. وأعداؤك: عدوك، وعدو صديقك، وصديق عدوك)) [2]، فهذا حصر من محص الحياة، وعرك النفوس، فعرف خباياها، فاستشفها حكما بينة.

وفي تقسيم آخر قال الإمام: ((لا يكون الصديق صديقا حتى يحفظ أخاه في ثلاث: في نكبته، وغيبته، ووفاته)) [3].

وعلى هذا الأسلوب قوله عليه السلام: ((للظالم من الرجال ثلاث علامات: يظلم من فوقه بالمعصية، ومن دونه بالغلبة، ويظاهر القوم الظلمة)). [4]

(1) شرح نهج البلاغة، ابن ميثم: 5/ 324.
(2) نهج البلاغة، الإمام علي (رضي الله عنه): 2/ 377.
(3) المصدر نفسه: 2/ 338.
(4) المصدر نفسه: 2/ 386.

ومثل قوله عليه السلام: ((للمؤمن ثلاث ساعات: فساعة يناجي فيها ربه، وساعة يرم معاشه، وساعة يخلي بين نفسه وبين لذتها فيما يحل ويجمل. وليس للعاقل أن يكون شاخصا إلا في ثلاث: مرمة لمعاش، أو خطوة في معاد، أو لذة في غير محرم)). [1]

وقد يعمد الإمام إلى تعرية مناوئيه بأسلوب التقسيم العددي، لما يتسبب من حصر للحالة، وكشف للأمر، مثل قوله في أمر طلحة الذي خرج عليه في حرب الجمل في البصرة، وكان شعاره الطلب بدم الخليفة عثمان بن عفان[2]: ((والله ما صنع في أمر عثمان واحدة من ثلاث: لئن كان ابن عفان ظالما- كما كان يزعم- لقد كان ينبغي له أن يوازر قاتليه، أو ينابذ ناصريه. ولئن كان مظلوما، لقد كان ينبغي له أن يكون من المنهنهين عنه، والمعذرين فيه. ولئن كان في شك من الخصلتين، لقد كان ينبغي له أن يعتزله، ويركد جانبا، ويدع الناس معه، فما فعل واحدة من الثلاث، وجاء بأمر لم يعرف بابه، ولم تسلم معاذيره)). [3]

ويبدو من أحداث الفتن إبان المدة التي حكم فيها الإمام (32هـ-36هـ)، أن ثمة شخصيات متقلبة المزاج، استقرار مبادئها مرتبط بتحقيق مصالحها، ومنها شخصية طلحة التي أشار إليها الإمام في كلامه، إذ كان من المحرضين الأشداء

(1) المصدر نفسه: 2/ 395.

(2) ظ.تاريخ الطبري، الطبري: 3/ 450-451-458-466.

(3) نهج البلاغة، الإمام علي(ﷺ): 1/ 412.

على عثمان، ولكن مع حكم الإمام انقلبت الصورة، لذلك كان كلام الإمام ((صورة احتجاج عليه و قطع لعذره في الخروج و الطلب بدمه بقياس شرطيّ منفصل)) [1].

وحصر الإمام الشأن المتناقض لطلحة بثلاثة أمور هي: ((إمّا أن يعلم أنّه كان ظالما، أو يعلم أنّه كان مظلوما، أو يشكّ في الأمرين و يتوقّف فيهما. فإن كان الأوّل، فقد كان الواجب عليه أن يساعد قاتليه و يوازرهم وينابذ ناصريه لوجوب إنكار المنكر عليه. و هو قد عكس الحال لأنّه نابذ قاتليه، وثار في طلب دمه مع ناصريه ممّن توهّم فيه ذلك. وإن كان الثاني، فقد كان يجب عليه أن يكون ممّن يكفّ الناس عنه و يعتذر عنه فيما فعل لوجوب إنكار المنكر أيضا مع أنّه ممّن وازر عليه الناس و أظهر أحداثه و عظّمها كما هو المنقول المشهور عنه، وإن كان الثالث فقد كان الواجب عليه أن يعتزله و يسكن عن الخوض في أمره و لم يفعل ذلك بل ثار في طلب دمه. فكان في هذه الأحوال الثلاثة محجوجاً في خروجه و نكثه للبيعة)) [2]. لذلك كله كانت خلاصته أن جاء بأمر لا يعرف بابه، أي لا تعرف مداخله.

وأورد ابن أبي الحديد إشكالا طريفا فقال: ((فإن قلت كيف قال أمير المؤمنين: فما فعل واحدة من الثلاث، وقد فعل واحدة منها، لأنه وازر قاتليه حيث كان محصورا. قلت: مراده أنه إن كان عثمان ظالما، وجب أن يؤازر قاتليه

(1) شرح نهج البلاغة، ابن أبي الحديد: 10/ 3.
(2) شرح نهج البلاغة، ابن ميثم: 3/ 346.

بعد قتله، يحامي عنهم و يمنعهم ممن يروم دماءهم، ومعلوم أنه لم يفعل ذلك، وإنما وازرهم وعثمان حي. وذلك غير داخل في التقسيم)) [1].

وهذا التقسيم التفصيلي محرج للغاية وقاطع للعذر.

وأما الاستعمال غير الصريح للعدد (ثلاثة) فهو في قوله من خطبة في نصح أصحابه: ((شغل من الجنة والنار أمامه، ساع سريع نجا، وطالب بطئ رجا، ومقصر في النار هوى..)) [2]. فقد قسم الناس على أساس هممهم إلى ثلاثة أقسام هي:

الأول: الناجي: وكنى عنه (بالساعي السريع) أي المبادر غير المتواني إلى تنفيذ شرائع الله وأحكامه.

والثاني: الراجي: وكنى عنه (الطالب البطئ)، فهو ((له قلب تعمره الخشية وله صلة إلى الطاعة لكن ربما قعد به عن السابقين ميل إلى الراحة فيكتفى من العمل بفرضه وربما انتظر به غير وقته وينال من الرخص حظه وربما كانت له هفوات ولشهوته نزوات على أنه رجاع إلى ربه كثير الندم على ذنبه فذلك الذي خلط عملا صالحا وآخر سيئا فهو يرجو أن يغفر له)) [3].

الثالث: الهاوي، وهو المقصر، الذي يعرف الحق ويحيد عنه عنادا وتكبرا.

---

(1) شرح نهج البلاغة، ابن أبي الحديد: 10/ 9.

(2) نهج البلاغة، الإمام علي(ﷺ): 1/ 54.

(3) نهج البلاغة، الإمام علي(ﷺ)، شرح محمد عبده: 1/ 49-50.

4- الخمسة

لم يستعمل العدد (خمسة) صراحة في التقسيم، بل جاء بشكل غير مباشر وفي موضع واحد من نهج البلاغة، وذلك من خطبة للإمام خاطب أصحابه في قوله: ((يا أهل الكوفة، منيت منكم بثلاث واثنتين: صم ذوو أسماع، وبكم ذوو كلام، وعمى ذوو أبصار، لا أحرار صدق عند اللقاء، ولا إخوان ثقة عند البلاء)). (1)

فقد عد الإمام خمس خصال ابتلي بها من أهل الكوفة، جمعها بقوله ثلاث واثنتين، ولم يقل خمسا، وبرر ابن أبي الحديد ذلك، ((لأن الثلاث إيجابية والاثنتين سلبية، فأحب أن يفرق بين الإثبات والنفي)) (2).

وربما فرق الإمام، لأن الثلاث التي عدها من جنس مغاير للاثنتين الأخريين، فناسب بين (الصم والبكم والعمي) أن تكون في عد، وبين قوله الأخير بعد آخر.

وفي كلام الإمام توبيخ وتعجب ظاهران، بسبب جمعه للصفات الثلاث مع أضدادها، فكانوا كفاقد آلات الصم والبكم والعمي ((بل كان فاقدها أحسن حالا منه لأنّ وجودها إذا لم يفد منفعة أكسب مضرّة قد أمنها عادمها، وأمّا الثنتان فكونهم لا أحرار صدق عند اللقاء، أي أنّهم عند اللقاء لا تصدق حريّتهم ولا تبقى نجدتهم من مخالطة الجبن والتخاذل و الفرار إذا الحرّ هو

(1) نهج البلاغة، الإمام علي(عليه السلام): 1/ 216.
(2) شرح نهج البلاغة، ابن أبي الحديد: 7/ 71.

الخالص من شوب الرذائل و المطاعن، ثمّ كونهم غير أخوان ثقة عند البلاء: أي ليسوا ممّن يوثق باخوّتهم في الابتلاء بالنوازل)) (1).

5- ستة

استعمل العدد (ستة) مرة واحدة في نهج البلاغة، حصر فيها الإمام معاني الاستغفار، عندما سمع قائلا قال بحضرته: استغفر الله، فقال عليه السلام: ((ثكلتك أمك، أتدري ما الاستغفار؟ الاستغفار درجة العليين. وهو اسم واقع على ستة معان: أولها الندم على ما مضى. والثاني العزم على ترك العود إليه أبدا. والثالث أن تؤدي إلى المخلوقين حقوقهم، حتى تلقى الله أملس، ليس عليك تبعة. والرابع أن تعمد إلى كل فريضة عليك ضيعتها فتؤدي حقها. والخامس أن تعمد إلى اللحم الذي نبت على السحت، فتذيبه بالأحزان، حتى تلصق الجلد بالعظم، وينشأ بينهما لحم جديد. والسادس أن تذيق الجسم ألم الطاعة، كما أذقته حلاوة المعصية، فعند ذلك تقول: أستغفر الله)) (2).

فرق الإمام بين المفهوم اللغوي للاستغفار، الذي هو طلب المغفرة، وبين الاستغفار الذي له درجة العليين في شرائطه الستة التي فصل الكلام فيها و((أطلق لفظ المشروط على الشرط واستعمله فيه)) (3).

(1) شرح نهج البلاغة،ابن ميثم: 2/ 407.

(2) نهج البلاغة، الإمام علي(ﷺ): 2/ 400.

(3) شرح نهج البلاغة، ابن ميثم البحراني: 5/ 444.

ولفظة (أملس) استعارة، عنى بها نقاء الصحيفة من الآثام. و (عليين) صيغة جمع كضليل، تعطي معنى التكثير، أي كثير العلو، وهي من قوله تعالى: ((كَلَّا إِنَّ كِتابَ الْأَبْرارِ لَفِي عِلِّيِّينَ)). [1] والكلام على تقدير حذف مضاف أي (درجة الاستغفار درجة العليين).

الثاني: التقسيم بالموضوع

للإمام علي أسلوبه في التفصيل في الموضوعات، فهو يجمل ثم يفصل تارة بالموضوع، وتارة ثانية يقسم الموضوع متدرجا بحسب طبيعته، وغايته في كلا الأسلوبين استيفاء المعنى والإحاطة به، الأمر الذي يتيح له ذلك أسلوب التقسيم. وسنقف على الأسلوبين في الموضوعات الآتية:

1- التحذير والوعظ

في نهج البلاغة خطب كثيرة في التحذير من المنافقين، كشف فيها الإمام عن طبائعهم النفسية المريضة، وجلى عن نواياهم الخبيثة، ومنها قوله: ((زرعوا الفجور، وسقوه الغرور، وحصدوا الثبور، لا يقاس بآل محمد صلى الله عليه من هذه الأمة أحد ولا يسوى بهم من جرت نعمتهم عليه أبدا)). [2]

قسم أفعالهم القبيحة وعنادهم على الاستمرار فيها وما ينتج عنها قسمة أحوال النبات: زرع وسقي وحصاد، تشبيها لهم بالنبات بأسلوب الاستعارة ((لان تماديهم، وما سكنت إليه نفوسهم من الإمهال، هو الذي أوجب

(1) شرح نهج البلاغة، ابن أبي الحديد: 20/ 56.

(2) نهج البلاغة، الإمام علي(ﷺ): 1/ 28.

استمرارهم على القبائح التي واقعوها، فكان ذلك كما يسقى الزرع، ويربي بالماء، ويستحفظ))[1]. وكان حصادهم الهلاك وسوء المنقلب.

يذكر أن ابن أبي الحديد جعل كلام الإمام هذا في معاوية، وليس إشارة إلى المنافقين، كما ذكر الشريف الرضي وقال تأدبا ((ولعل الرضي- رحمه الله تعالى - عرف ذلك وكنى عنه))[2].

ومثل ذلك قوله عليه السلام محذرا من خطرات الشياطين: ((لعمري لقد فوق لكم سهم الوعيد، وأغرق إليكم بالنزع الشديد، ورماكم من مكان قريب))[3]

فقد استقصى الإمام أبعاد صورة الشيطان من جهة قربه من ابن آدم، وتمكنه من الإصابة، بهذه الأجزاء المتتالية: وضع السهم في القوس، وسماه سهم الوعيد إشارة إلى قوله تعالى: ﴿ قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾[4]، ثم شد نزع الوتر واستوفى مد القوس ليكون السهم أشد وقعا وأكثر فتكا، وفوق ذلك كله، كان التسديد قريبا، فلا مناص من الإصابة. والصورة كلها كناية عن الاستعداد الكامل للإغواء[5].

ومن التحذير من الدنيا قوله عليه السلام: ((ثم إن الدنيا دار فناء وعناء

---

(1) شرح نهج البلاغة، ابن أبي الحديد: 1/ 139- 140.

(2) المصدر نفسه..

(3) نهج البلاغة، الإمام علي(ﷺ): 2/ 91.

(4) الحجر: 39.

(5) ظ.التصوير الفني في خطب الإمام علي، عباس علي الفحام(رسالة ماجستير): 106.

وغير وعبر..))[1]. فقد استوفى صفات دار الدنيا من جميع جوانبها في أسلوب بلاغي مزج فيه بين البيان التشبيهي والبديع الموسيقي في التجنيس الناقص بين (فناء وعناء) وجناس التصحيف بين (غير و عبر).

وكتب الإمام عليه السلام إلى قثم بن العباس وهو عامله على مكة يعظه: ((أما بعد، فأقم للناس الحج، وذكرهم بأيام الله، وأجلس لهم العصرين، فأفت المستفتي، وعلم الجاهل وذاكر العالم، ولا يكن لك إلى الناس سفير إلا لسانك، ولا حاجب إلا وجهك)).[2]

قسم الإمام لعامله ثمرة جلوس العصرين- وهما الغداة والعشي - ثلاثة أقسام هي:

الأول: إفتاء عامة الناس في بعض الأحكام

الثاني: تعليم الطالبين للفقه.

الثالث: مذاكرة العلماء ومناقشتهم.

ويلحظ أن الجامع لهذه التقسيمات الثلاثة هو الغرض الديني المتمثل بالحج والحجيج، وما يهمهم من شؤون علمية وفقهية، لذلك لم يذكر سواها من أمور إدارة الحكم والسياسة.

2- الوصف

وسنأخذ مثالين من موضوعات الوصف هما:

---

(1) نهج البلاغة، الإمام علي(رضي الله عنه): 1/ 265.

(2) المصدر نفسه: 2/ 289.

1- الإسلام

فصل الإمام من خطبة له الكلام في صفة الإسلام، فقال: ((الحمد لله الذي سهل الذي شرع الإسلام فسهل شرائعه لمن ورده... كريم المضمار، رفيع الغاية، جامع الحلبة متنافس السبقة، شريف الفرسان. التصديق منهاجه، والصالحات مناره، والموت غايته، والدنيا مضماره، والقيامة حلبته، والجنة سبقته))[1].

صور الإمام الإسلام بخيل السباق، ثم فصل في معناه، فجعل الدنيا المضمار، والقيامة ذات حلبته، والجنة جائزة فوزه وسبقته، وهو إنما جعل الدنيا مضمار الإسلام ((لان المسلم يقطع دنياه لا لدنياه بل لآخرته، فالدنيا له كالمضمار للفرس إلى الغاية المعينة))[2].

2- الرسول (ﷺ)

وصف الإمام النبي بوصف إجمالي أتبعه بتقسيم تفصيلي في قوله: ((طبيب دوار بطبه، قد أحكم مراهمه، وأحمى مواسمه، يضع ذلك حيث الحاجة إليه من قلوب عمي، وآذان صم، وألسنة بكم، متتبع بدوائه مواضع الغفلة))[3]. وقسم الإمام من يعالجهم الرسول (ﷺ) وهم أولو القلوب العمي والآذان الصم والألسنة البكم أي الخرس ((فحصر بذلك مداخل الضلال لأن مخالفة الحق تكون بثلاثة أمور: إما بجهل القلب أو بعدم سماع المواعظ والحجج أو بالإمساك

(1) نهج البلاغة، الإمام علي(رضي الله عنه): 1/ 237.
(2) شرح نهج البلاغة،ابن أبي الحديد: 7 / 171 – 172.
(3) نهج البلاغة، الإمام علي(رضي الله عنه): 1/ 243.

عـن شـهادة التوحيـد وتـلاوة الـذكر)) [1]، وهـذه أصـول الضـلال، والمعاصـي فروعها، كما يقول ابن أبي الحديد.

الإمام وأصحابه

قال الإمام من كتاب له إلى أهل الكوفة عند مسيره من المدينة إلى البصـرة: ((أما بعد فإني خرجت عن حيي هذا إما ظالما وإما مظلوما وإما باغيا وإما مبغيا عليه، وأنا أذكر الله من بلغه كتابي هذا لما نفر إلي فإن كنـت محسـنا أعـانني، وإن كنت مسيئا استعتبني)) [2].

فقد قسم حال خروجه عليه السلام أمرين: إما أن يكون ظالما أو مظلومـا، وإنما بدأ بالظالم هضما لنفسه، ولئلا يقـول عـدوه: بـدأ بـدعوى كونـه مظلومـا، فأعطى عدوه من نفسه ما أراد.

والإمام في ذلك كله يستميل إليـه النفـوس. ومعنـى كلامـه: فلينفـر إلـي المسلمون فإن وجدوني مظلوما أعانونني، وإن وجدوني ظالما نهوني عـن ظلمـي لأعتب وأنيب إلى الحق ((وهذا كلام حسن، ومراده يحصل على الـوجهين، لأنـه إنما أراد أن يستفزهم، وهذان الوجهان يقتضيان نفيرهم إليه على كل حال)) [3].

وفي مثال آخر، قال الإمام: ((وإن معي لبصيرتي، ما لبست علـى نفسـي، ولا لبس على...)) [4].

(1) شرح نهج البلاغة، ابن أبي الحديد: 7/ 184، وينظر: التصوير الفـني في خطـب الإمـام علي، عباس الفحام(رسالة ماجستير): 105.

(2) نهج البلاغة، الإمام علي(ﷺ): 2/ 271.

(3) شرح نهج البلاغة، ابن أبي الحديد: 17/ 106.

(4) نهج البلاغة، الإمام علي(ﷺ): 1/ 315.

قسم الإمام التلبيس من جهتين: أما بإضلال النفس، وأما بايقـاع الضـلال عليها من جهة أخرى، معميا عليها باستعمال الفعـل المبني للمجهـول (لـبس). وهذا ((تقسيم، لان كل ضال عن الهدايـة، فإمـا أن يضـل مـن تلقـاء نفسـه، أو بإضلال غيره له)) [1]. والمعنى الذي يروم الإمـام تأكيـده هـو: أن بصـيرته الـتي كانت زمن رسول الله (ﷺ) ثابتة ولم تتغير، وإنما أكدها هذا التأكيـد بتقـديم شـبه الجملة (معي) لبيان الأهمية، لما أصاب المسلمين مـن فـتن قتـال أهـل القبلـة في الجمل وصفين وغيرها.

الثالث: التقسيم بالزمن

المقصود بالزمن ما يتعلق به من ظروف ماضية، وحاضـرة، ومسـتقبلة، أي الأمس واليوم والغد. فقد جاءت تقسيماتها في نهج البلاغة على هـذا الأسـاس في مواضع منها:

قال الإمام (ﷺ) من خطبة حذر فيها من التهالك على الـدنيا: ((أمـا بعـد فإن الدنيا قد أدبرت وآذنت بوداع، وإن الآخرة قد أقبلت وأشرفت بـاطلاع، ألا وإن اليوم المضمار، وغدا السباق، والسبقة الجنة، والغاية النار)) [2].

أعطت التقسيمات المحكمة متانة في السبك، وأسبغت مزيدا من الثراء على الجمل، فضلا عن فخامة اللفظ وعمق المعنـى، الأمـر الـذي تنبـه إليـه الشـريف الرضي فقال: ((إنه لو كان كلام يأخذ بالأعناق إلى الزهد في الدنيا، ويضـطر إلى

---

(1) شرح نهج البلاغة، ابن أبي الحديد: 1/ 239– 240.

(2) نهج البلاغة، الإمام علي(ﷺ): 1/ 80.

عمل الآخرة لكان هذا الكلام.. وكفى به قاطعا لعلائـق الآمـال، وقادحـا زنـاد الاتعاظ والازدجار)) [1].

استعمل الإمام (اليوم والغد) مسندا (المضـمار) وهـي سـاحة السـباق إلى اليوم، ومسندا السباق وبدء العمل إلى الغد، فكأنه جعل الدنيا المضمار والآخـرة السباق، وهي صورة تكررت في كلام الإمام أكثر من موضع [2].

وخـالف الإمـام بـين اللفظـين لاخـتلاف المعنـيين في قولـه الأخـير لأن ((الاستباق إنما يكون إلى أمر محبوب وغرض مطلوب، وهذه صفة الجنة، ولـيس هذا المعنى موجودا في النار، نعوذ بالله منها)) [3] فأسند (السبقة) وهي الجائزة إلى (الجنة)، ولم يقل (والسبقة النار) بل قال (والغاية النار) ((لأن الغايـة قـد ينتهـي إليها من لا يسره الانتهاء إليها، ومن يسره ذلك فصلح أن يعبر بها عن الامـرين معـا، فهـي في هـذا الموضـع كالمصـير والمـال، قـال الله تعـالى: ﴿قُلۡ تَمَتَّعُواْ فَإِنَّ مَصِيرَكُمۡ إِلَى ٱلنَّارِ﴾[4])) [5].

وقال الإمـام محـذرا: ((إن اليـوم عمـل ولا حسـاب، وغـدا حسـاب ولا عمل)) [6]، كنى عن الدنيا باليوم، وعن الآخرة بالغد، وقابل بينهما باعتبار الدنيا عالم العمل وتأجيل الحساب، والآخرة عالم الحساب دون العمل. وهمـا قسـمان لا ثالث لهما. ولعل مما حسن التقسيم هو أسلوب المقابلة بين الجملتين..

---

(1) المصدر نفسه.

(2) تنظر الصفحة: 29 من البحث.

(3) شرح نهج البلاغة، ابن أبي الحديد: 9/ 122.

(4) إبراهيم: 30.

(5) شرح نهج البلاغة، ابن أبي الحديد: 2/ 92- 93.

(6) المصدر نفسه: 9/ 122.

وقال عليه السلام: ((فإن التقوى في اليوم الحرز والجنة، وفي غد الطريق إلى الجنة)) [1]. قسم التقوى بوسيلة الأيام قسمين، مكنيا عن الدنيا باليوم باعتبار الحاضر، وعن الآخرة بالغد بضميمة المستقبل، مستغلا طاقات اللغة البديعية أمثل استغلال في أسلوب المقابلة والتوازن بين الفقرتين، والجناس الناقص بين (الجنة)، بضم الجيم، وتعني ما يتقى به، وبين (الجنة) جائزة المؤمنين.

ولضمان صحة التقسيم يتقدم الحاضر دائما على المستقبل، ولكن الفرادة لا تفارق كلام الإمام، على الرغم من تقديم الظرف الزماني في أسلوب بياني رائع في قوله: ((وإن السعداء بالدنيا غدا، هم الهاربون منها اليوم، إذا رجفت الراجفة)). فجاء التقسيم صحيحا بتقديم الغد على اليوم، في صورة لافتة، لأن المعنى طلب هذه القسمة بقوة، حين جاور الظروف المتناقضة (الدنيا، والغد)، فجعل السعداء في الحياة الدنيا في الآخرة (غدا) هم الذين يهربون من شراك لذائذها في حاضرهم (اليوم).

ومثل ذلك في نهج البلاغة كثير [2].

وجمع الإمام (ﷺ) الأزمان الثلاثة (الأمس، واليوم، والغد) في مكان واحد في قوله عليه السلام قبل موته: ((أنا بالأمس صاحبكم، وأنا اليوم عبرة لكم، وغدا مفارقكم)) [3]، فقسم الأيام الماضية والحاضرة والمستقبلة قسمة حسنة وهو إنما قال (عبرة لكم) لأنهم يرونه بين أيديهم ملقى صريعا بعد أن اعتادوه يصرع الأبطال ويقتل الأقران.

---

(1) نهج البلاغة، الإمام علي(ﷺ): 2/ 84.

(2) ظ. المصدر نفسه: 1/ 267، 1/ 428، 2/ 9.

(3) المصدر نفسه: 2/ 259.

الخاتمة

مما سبق، يمكن استنتاج الخلاصات الآتية:

أولا:

أن التقسيم فن بياني عربي اختص به الكلام العربي البديع متمثلا في أرفع مستوياته الإعجازية في التعبير القرآني، والأسلوبية في التعبير النبوي وكلام الإمام علي (ﷺ) في نهج البلاغة.

ثانيا:

أن فن التقسيم يمثل تنظيما مزدوجا للفن والموضوع، ممزوجين بالفكر والبيان معا.

ثالثا:

أن التقسيم في نهج البلاغة اشتمل على ثلاث وسائل هي: التقسيم بالعدد والتقسيم بالموضوع والتقسيم بالزمن.

رابعا:

أن التقسيم بالعدد في نهج البلاغة أثر لتنظيم فكري جديد سلك فيه الإمام سبيل الحديث النبوي في الإكثار منه وتنظيم الأفكار وحصرها بمقتضاه.

المصادر

القرآن الكريم

- الإرشاد في معرفة حجج الله على العباد، الشيخ أبو عبد الله، محمد بن محمد بن النعمان (336-431هـ). تحقيق: مؤسسة أهل البيت (عليهم السلام) لتحقيق التراث، دار المفيد، الطبعة الثانية، بيروت- لبنان 1414هـ- 1993م.
- الاستيعاب، - الاستيعاب، ابن عبد البر، تحقيق:علي محمد البجاوي، الطبعة الأولى، 1412، مطبعة دار الجيل- بيروت.
- البرهان في علوم القرآن. الزركشي، محمد بن عبد الله الزركشي (ت 794هـ). تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربية، الطبعة الأولى، القاهرة 1957م.
- تاريخ الطبري (تاريخ الرسل والملوك)، أبو جعفر محمد بن جرير (ت310هـ)، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، الطبعة الخامسة، دار المعارف، مصر- 1987م.
- التصوير الفني في خطب الإمام علي (ﷺ). عباس علي الفحام. (رسالة ماجستير)، كلية التربية للبنات، جامعة الكوفة 1999م.
- التفسير الكبير (أو مفاتيح الغيب)، فخر الدين محمد بن عمر الرازي (ت606هـ)، المطبعة البهية- مصر، بدون تاريخ.
- دراسة حول نهج البلاغة، محمد حسين الجلالي الطبعة الأولى، مؤسسة الأعلمي، بيروت- 1421هـ.

ـ روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، أبو الفضل شهاب الدين محمود الآلوسي (ت 1270هـ). إدارة الطباعة المنيرية، القاهرة، بدون تاريخ.

- سنن ابن ماجة، محمد بن يزيد القزويني (ت273هـ)، تحقيق وترقيم وتعليق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع.

- سنن الدارمي. أبو محمد، عبد الله بن عبد الرحمن (ت 255هـ). طبع بعناية: محمد أحمد دهمان، دمشق، بدون تاريخ.

- السيرة الحلبية، الحلبي (ت1044هـ)، دار المعرفة- بيروت، 1400هـ.

ـ شرح نهج البلاغة، ميثم بن علي بن ميثم البحراني (ت 679هـ). (المصباح شرح الكبير) مطبعة خدمات، الطبعة الثانية، طهران 1404 هـ.

ـ شرح نهج البلاغة، ابن أبي الحديد المدائني (ت 656 هـ).تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء التراث العربي، القاهرة، 1959م.

- شواهد التنزيل، الحاكم الحسكاني، الشيخ محمد باقر المحمودي، الطبعة الأولى- 1990 م، مؤسسة الطبع والنشر التابعة لوزارة الثقافة والإرشاد الإسلامي- طهران، مجمع إحياء الثقافة الإسلامية- قم.

- صحيح البخاري، البخاري (ت 256هـ)، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت- 1981م.

- الطراز المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم دقائق الإعجاز. يحي بن حمزة العلوي (ت 749هـ).تصحيح: سيد بن علي المرصفي، مطبعة المقتطف، مصر، 1914م.

- الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التنزيل. جار الله محمود بن عمر الزمخشري (ت 538هـ). مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر، 1966م.
- لسان العرب، ابن منظور، جمال الدين محمد بن مكرم المصري (ت 711هـ). دار صادر ودار بيروت، لبنان 1379هـ- 1955م.
- مجمع البيان في تفسير القرآن. الطبرسي. الفضل بن الحسين (ت 548هـ).
- حقق وعلق عليه: لجنة من العلماء والمثقفين، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، 1415هـ- 1995م.
- النظم القراني في كشاف الزمخشري. درويش الجندي (الدكتور). مطبعة مصر، 1969م.
- نهج البلاغة، علي بن أبي طالب عليه السلام (ت36هـ)، بجمع الشريف الرضي (ت406هـ). تحقيق وشرح: محمد أبو الفضل ابراهيم، بيروت- لبنان، دار الجيل، الطبعة الثانية 1416 هـ.
- نهج البلاغة، محمد عبده، مطبعة بابل- بغداد 1984م.
- نهج البلاغة لمن، الشيخ محمد حسن آل ياسين، مطبعة أوفسيت الميناء، بغداد -1977م.
- النهاية في غريب الحديث، ابن الأثير (ت606هـ)، تحقيق:طاهر أحمد الزاوي، محمود محمد الطناحي، الطبعة الرابعة- 1364هـ. مؤسسة إسماعيليان للطباعة والنشر والتوزيع- قم.
- الوافي بالوفيات، الصفدي (ت764هـ)، أحمد الأرناؤوط وتركي مصطفى، دار إحياء التراث- 2000م.

الفصل الثالث

دلالة الأبنية النادرة

المقدمة

التمهيد: الأبنية النادرة وسماتها

دلالة الأبنية النادرة

أولاً: النوعية

ثانياً: الهيأة

ثالثاً: التكثير والمبالغة

رابعاً: التوازن

الخلاصة

المصادر

المقدمة

شهدت السنوات السابقة إقبالا ملحوظا من الجامعات العراقية على دراسة نهج البلاغة في بحوث الماجستير والدكتوراه، وما زال هذا الأثر الخالد معطاء للباحثين، وما زال قعره بعيد الغور صعب المنال لما امتاز به من دقة في التعبير، وبراعة في الصياغة، وإمكانات كبيرة في تفجير الطاقات التعبيرية للمفردات والتراكيب، الأمر الذي جعل من نهج البلاغة يسمو سموا كبيرا على كل النتاجات

الأدبية الأخر.

وهذا البحث محاولة لدراسة جانب امتاز به التعبير الفني في كلام أمير المؤمنين المجموع في نهج البلاغة وهو بعنوان (دلالة الأبنية النادرة في نهج البلاغة)، محاولة في إظهار بعض من الإمكانيات اللغوية للإمام أمير المؤمنين علي ابن أبي طالب عليه السلام، أمير البلاغة والبيان، وربيب مدرسة القرآن الكريم، المعجزة التي جعلت من اللغة محلا للتحدي وإعجاز الخصوم. وقد اشتملت خطة البحث على تمهيد درس فيه المقصود بالبنية النادرة، ثم انطوى البحث على دلالات هذه الأبنية وانحصرت بأربعة أغراض هي:

1- النوعية.

2- الهيأة.

3- التكثير والمبالغة

4- التوازن.

هذا وقد اعتمد البحث على محاولة أسلوب التحليل والوقوف المتأني على النص المعروف بثرائه في نهج البلاغة، ومن هنا كانت شروحات هذا الكتاب ومصادر النقد واللغة والبلاغة مما استند إليه البحث في رحلته العلمية، التي نرجو أن نوفق فيها في إضافة شيء جديد إلى الدراسات التي عرضت إلى هذا الأثر الخالد، ومن الله تعالى التوفيق

الباحثان

التمهيد

الأبنية النادرة وسماتها

ليس ثمة تعريف محدد للصيغ النادرة، وإنما هي استنتاج واستقراء لأساليب استعمالها بألفاظ نادرة، وهي تشير إلى القدرة على إدارة اللغة وإجالة مفرداتها، وانتخاب استعمالها بشكل يحقق مطابقة تامة بين الأداء والمضمون في سياقاتها التعبيرية، وليس بالضرورة أن تكون الصيغ نادرة بل قد تكون بعض الألفاظ في أوزان تلك الصيغ مما يقل في الكلام العربي، وقلتها لا تعني عيبا باللفظ النادر وإنما هو القصور عن إمكان اكتشاف الدر في بحر اللغة الذي لا يدرك قعره، ومن هنا يتميز المبدع من غيره في بعث مثل هذه الصيغ وتسخيرها مادة لمعانيه.

ولكن ما معايير الندرة، بحيث نطلق على هذا البناء وصف النادر وذاك غير نادر؟

يمكن تحديد الإجابة بالمعايير الآتية:

أولا : قلة الاستعمال

ويمكن الرجوع إلى مصادر اللغة لتحديد مديات استعمال الأبنية، وإن بدا على بعض المعجمات قصورا واضحا في طبيعة تحديد هذه القلة، كونها تهتم بلملمة المفردات العربية وحصرها وتبيان معانيها المختلفة، بينما الذي يحدد قلة الاستعمال من غيره هي المعجمات السياقية التي يندر وجودها في المكتبة العربية كمعجم (أساس البلاغة) للزمخشري.

وكما ذكرنا، إن قلة استعمال المفردات أكسبها ندرة لا بسبب خلل ذاتي في هذه الصيغ، بل يعزى السبب إلى عدم سعة المتكلم بالإحاطة الكاملة بأسرار المفردة العربية ومعرفة مكامنها.

ثانيا: الغرابة

في الحقيقة قد تأتي الغرابة من قلة الاستعمال، كون الأذن لم تألف سماعها من قبل، وربما تأتي من طبيعة تأليف الأصوات داخل هذا البناء أو ذاك، أو ربما تأتي من طريقة استعمالها في التركيب الجملي مثل نقل اللفظة من مكانها المعتاد في الاستعمال إلى تركيب جديد يسبغ عليها حلة جديدة ويعطيها زخما جديدا من الحياة.

ويبقى ضابط ذلك كله هو استقراء الكلام العربي في المراجعة المتأنية للمصادر التي جمعت خطب العرب ومصادر اللغة المختلفة، والوقوف المتفحص لدواوين الشعر العربي، وإن كان الكلام العربي في نثره غيره في شعره، ولكننا نعتقد أن الإبداع في الخطابة العربية تمثل في القدرة على إذابة روح الشعر في النثر، أو ما يسميه النقد المعاصر بالشعرية [1].

ومن هنا تميزت الخطابة النبوية والحديث الشريف عن غيره، إلى الدرجة التي استطاع بها النبي (ﷺ) من ابتكار صيغ وتراكيب في الكلام العربي غير معهودة من قبل كما يذكرها الجاحظ [2].

وهنا- أيضا - نسجل تميزا غاية في الإبداع لابن عم النبي (ﷺ) علي بن أبي طالب (رضي الله عنه) وربيبه في القدرة على صياغة المعاني الصعبة (الحقيقية) التي

(1) ينظر: مفهومات في بنية النص: 33.

(2) ظ. البيان والتبيين 2/ 20-21.

يصعب في العادة التعبير عنها تعبيرا فنيا، ولا سيما التعبير بالأبنية النادرة على غيره.

دلالة الأبنية النادرة

ورد في نهج البلاغة استعمالات عديدة لبعض الصيغ يمكن للباحثين وسمها بالأبنية النادرة في استعمالاتها عند الإمام، أو أنها صيغ يمكننا القول أنها كانت غاية الإتقان في التعبير عن المعاني، وقد هدف البحث للكشف عن بعض دلالاتها وتمثلت بما يأتي:

أولا: النوعية

وردت في نهج البلاغة مجموعة من المصادر نادرة الاستعمال لفظا ومعنى، حملت دلالة النوع والتميز في سياق التعبير، نحو قوله عليه السلام يصف الدنيا ويحذر منها: ((وَ أُحَذِّرُكُمُ اَلدُّنْيَا فَإِنَّهَا مَنْزِلُ قُلْعَةٍ وَ لَيْسَتْ بِدَارِ نُجْعَةٍ قَدْ تَزَيَّنَتْ بِغُرُورِهَا وَغَرَّتْ بِزِينَتِهَا))[1]. فقد استعمل الإمام (قُلْعَةٍ و نُجْعَةٍ) وهما على صيغة فعلة، و (فُعلة) بضم الفاء وسكون العين، تأتي مصدرا للفعل الثلاثي إذا دلّ على لون وكان صحيحا فتقول حمرة، وخضرة، وزرقة، في حمر وخضر وزرق[2]. وقد ذكر اللغويون معاني أخر لهذه الصيغة منها أنها تدل على العيب وهو قليل[3]، والفضلة من الشيء، وموضع الفعل من الجسد[4].

(1) نهج البلاغة.، تحقيق محمد عبده، ج1/ 221.

(2) ظ. المهذب في علم التصريف: 232، التطبيق الصرفي، عبده الراجحي: 66.

(3) ظ. شرح الشافية 1/ 161.

(4) ظ. معاني الأبنية في العربية، فاضل السامرائي: 39-40.

ويرى الرضي أن فعلة بسكون العين جاءت كثيرا بمعنى المفعول والفاعل، وكلاهما للمبالغة [1].

والمعنى أن الإمام صور الدنيا بالمنزل الذي لا يستقر بأهله ولا يثبت، فما إن يحل به النازلون حتى يقلع بهم فهو ((ليس بمستوطن كأنه يقلع ساكنه)) [2].

إنه – إذن- ليس كأي منزل مما عرفه الناس من حيث الاستقرار والأمن والثبات، بل نوع خاص مميز من المنازل ينطبق أيما انطباق على صفات الدنيا الموسومة بسمات هذا المنزل الذي ذكره الإمام، يقول ابن أبي الحديد: " قوله(ﷺ) فإنها منزل قلعة بضم القاف وسكون اللام أي ليست بمستوطنة و يقال هذا مجلس قلعة إذا كان صاحبه يحتاج إلى أن يقوم مرة بعد مرة ويقال هم على قلعة أي على رحلة ومن هذا الباب قولهم فلان قلعة إذا كان ينقلع عن سرجه ولا يثبت في البطش والصراع والقلعة أيضا المال العارية وفي الحديث بئس المال القلعة"[3].

وأصل القلعة ((النخلة التي تُجْتَثُّ من أَصلها قَلْعاً أَو قَطعاً عن أَبي حنيفة وقُلِعَ الوالي قَلْعاً وقُلْعةً فانْقَلَعَ عُزِلَ والمَقْلُوعُ الأَميرُ المَعْزُولُ والدنيا دار قُلْعَةٍ أَي انْقِلاعٍ ومنزلنا منزل قُلْعَةٍ بالضم أَي لا نملكه ومجلس قُلْعَةٍ إِذا كان صاحبه يحتاج إِلى أَن يقوم مرة بعد مرة وهذا منزل قُلْعةٍ أَي ليس بِمُسْتَوْطَنٍ ويقال هم على قُلْعةٍ أَي على رِحْلةٍ)) [4].

---

(1) ظ. شرح الشافية 1/ 162، معاني الأبنية في العربية67.

(2) منهاج البراعة، حبيب الخوئي: 1/ 118.

(3) شرح نهج البلاغة، ابن أبي الحديد 7/ 247.

(4) لسان العرب، ابن منظور: 8/ 290.

وكذا الأمر في لفظة (النجعة) حين قيد بها (الدار) أي لا يطلب المراد منها، فالنجعة طلب الكلأ من موضعه[1]. وهذا ملمح جديد وجميل لان الإنسان يغادرها عنوة.

وفيما تقدم نقول: لما كان مبدأ عدم بقاء الدنيا و زوالها من المعاني الإسلامية الجديدة على العرب، فإننا لم نجدهم قد وصفوا الدنيا بأنها قلعة، وإنما وصفوا الأماكن بذلك، وقد نقل الإمام هذه الصفة إلى الدنيا مرتجلا لها بما سمت له قريحته الصافية وتعمق فكره بالمعاني الإسلامية الجديدة على العرب، وندر أن توصف الدنيا ذما بالقلعة، مبالغة في صفة زوالها وعدم بقاء الإنسان فيها.

ويبدو أن ثمة دواع لاستعمال الإمام لهذه الصيغة منها:

1- اختزال المعاني والصور للحياة الدنيا بهذه الصيغة المعروفة عند العرب ولكنه نقلها لوصف الدنيا، وهذه الصورة نجدها في توضيح المعنى لهذه الكلمة. لأن للألفاظ خزين هائل من التجارب البشرية فهي ((كالقماقم أغلقت سداداتها على شحنة من تجارب لا حصر لها اختزنها فيها الإنسان على كر العصور))[2].

2- أنها أكثر الصيغ انطباقا على حقيقة الدنيا التي هي مرحلة في رحلة الإنسان ورحلة في مرحلة.

3- اصطباغ الكلام بالصبغة الفنية العلية التي أطردت في كلامه عليه السلام واعني التوازن الإيقاعي أو لنقل الشعرية كمصطلح حديث، تهيئة للصيغة المماثلة (نجعة).

---

(1) ظ. لسان العرب: 8/ 374، منهاج البراعة 1/ 125.

(2) فنون الأدب، شارلتون: 36.

4- التأثر البين لكلامه عليه السلام بالقرآن الكريم [1]، وهذا ((يدل على قوة حضور النص القرآني في ذهن الإمام على عليه السلام، إذ لا يجد صعوبة في التعبير الفني عن أي معنى يشاء، لأن ما عنده من خزين الصيغ القرآنية يمكنه من تشكيل المعاني الصعبة الجديدة كمعاني التوحيد والعالم الآخر في صور تقريبية لأذهان الناس، وتلك ميزة انفرد بها الإمام عليه السلام، لأنه يحيى حياة القرآن في أدق معاني هذه الكلمة)) [2].

وفي مثال آخر لهذه الصيغة ما جاء في شرح نهج البلاغة عن قوله عليه السلام ينصح ولده الحسن: ((وَ اِعْلَمْ أَنَّكَ إِنَّمَا خُلِقْتَ لِلْآخِرَةِ لاَ لِلدُّنْيَا وَ لِلْفَنَاءِ لاَ لِلْبَقَاءِ وَ لِلْمَوْتِ لاَ لِلْحَيَاةِ وَ أَنَّكَ فِي مَنْزِلِ قُلْعَةٍ وَ دَارِ بُلْغَةٍ وَ طَرِيقٍ إِلَى اَلْآخِرَةِ)). [3]

والـ (بلغة) هو القدر اليسير من العيش الذي لا يبقى منه زيادة، وكما جاء في المعجم ((ما يُتَبَلَّغُ به من العيش.. ولا فَضْلَ فيه)) [4]. ودار بلغة: أي الدنيا دار يبلغ منها إلى الآخرة. [5]

وكلام الإمام هذا تكرر في غير موضع باللفظة ذاتها نحو قوله عليه السلام في صفة الدنيا: ((قلعتها أحظى من طمأنينتها، وبلغتها أزكى من ثروتها)). [6]

---

(1) ينظر مثلا سورة: الحديد: 20، يونس: 24.

(2) الأثر القرآني في نهج البلاغة، عباس الفحام: 197، 198.

(3) شرح نهج البلاغة 31/ 243.

(4) لسان العرب 8/ 419 مادة(بلغ.).

(5) شرح نهج البلاغة 243/ 32. منهاج البراعة 5/ 219.

(6) نهج البلاغة.: 4/ 85.

ومما جاء على هذه الصيغة أيضا لفظة (أُكْلَةٌ) فيما قاله عليه السلام لأهل البصرة بعد واقعة الجمل: ((أَرْضُكُمْ قَرِيبَةٌ مِنَ اَلْمَاءِ بَعِيدَةٌ مِنَ اَلسَّمَاءِ خَفَّتْ عُقُولُكُمْ وَ سَفِهَتْ حُلُومُكُمْ فَأَنْتُمْ غَرَضٌ لِنَابِلٍ وَأُكْلَةٌ لآكِلٍ وَ فَرِيسَةٌ لِصَائِلٍ))[1]. ولا تبين المصادر اللغوية الفرق الواضح لهذا المصدر بين الأكلة بالفتح والأكلة بالضم فقد جاء في اللسان: ((والأُكْلة اسم للُّقْمة وقال اللحياني الأَكْلة والأُكْلة كاللَّقْمة واللُّقْمة يُعْنَى بها جميعاً المأْكولُ... وتقول أَكَلْت أُكْلة واحدة أَي لُقْمة وهي القُرْصة أَيضاً وأَكَلْت أَكلة إِذا أَكَل حتى يَشْبَع وهذا الشيء أُكلة لك أَي طُعْمة لك))[2]. ويقول ابن أبي الحديد ((و الأكلة بضم الهمزة المأكول))[3]، بينما ليس كل مأكول يقال عنه أكلة بالضم.

واستعمال الإمام لهذه الصيغة من مادة أكل غاية في الدقة، إذ أن الإنسان ليس بطعام مقصود يقتاته حي، لذا لم يقل أكلة بفتح الهمزة، وإنما قال أكلة بالضم لأنه هنا قد جعل من نفسه أُكْلة يأخذ منها الآكل ويتركها، وهنا يفهم الاستصغار لشأن المأكول واستحقاره.

ومما جاء على هذه الصيغة كلمة، (عرجة) في قوله عليه السلام من كلام له كان كثيرا ما ينادي به أصحابه: ((تَجَهَّزُوا رَحِمَكُمُ اَللَّهُ فَقَدْ نُودِيَ فِيكُمْ بِالرَّحِيلِ وَ أَقِلُّوا اَلْعُرْجَةَ عَلَى اَلدُّنْيَا))[4]. والعرج في أصل اللغة الصعود، ومنه

(1) نهج البلاغة 1/ 46.
(2) لسان العرب 11/ 19 (أكل).
(3) شرح نهج البلاغة، ابن أبي الحديد: 46/ 1.
(4) نهج البلاغة: 217/ 1.

المعراج إلى السماء، وسمي الأعرج بذلك لأنه يصعد بإحدى رجليه عن الأخرى.

والعرجة التباطؤ في المشي استعاره الإمام لهذا النوع من المشي وأمر بالإقلال منه تزهيدا بالمكث فيها والالتفات إليها، إذ لما كان العرج يبطئ المشي أو انه خلل في المشي يؤدي إلى التباطؤ، فقد استعار الإمام هذه الصورة إلى الإنسان، الذي قد يتباطأ أو يصر على التباطؤ طلبا للمكوث الأطول فيها، ودعاه إلى تركها لما في ذلك من إظهار لحقيقة الدنيا، وليس كالإمام احد أحق بهذا الوصف والنصح من المسلمين كونه قد تلبس بالمثل الإسلامية قولا ومضمونا وهو ابن المدرسة القرآنية المحمدية.

ومن الصيغ التي تحمل دلالة النوعية قوله ناصحا: ((..وَ خُذُوا مِنْ أَجْسَادِكُمْ فَجُودُوا بِهَا عَلَى أَنْفُسِكُمْ، وَ لَا تَبْخَلُوا بِهَا عَنْهَا فَقَدْ قَالَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ: ﴿إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرۡكُمۡ وَيُثَبِّتۡ أَقۡدَامَكُمۡ﴾[1]، وَ قَالَ تَعَالَى: ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِي يُقۡرِضُ ٱللَّهَ قَرۡضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥ وَلَهُۥٓ أَجۡرٞ كَرِيمٞ﴾[2]، فَلَمْ يَسْتَنْصِرْكُمْ مِنْ ذُلٍّ، وَ لَمْ يَسْتَقْرِضْكُمْ مِنْ قُلٍّ، اسْتَنْصَرَكُمْ وَ لَهُ جُنُودُ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ ﴿وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾[3]، وَ اسْتَقْرَضَكُمْ وَ لَهُ خَزَائِنُ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ، وَ ﴿هُوَ ٱلۡغَنِيُّ ٱلۡحَمِيدُ﴾[4]))[5].

(1) محمد: 7 .

(2) الحديد: 11 .

(3) إبراهيم: 4 .

(4) لقمان: 26 .

(5) نهج البلاغة: 1/ 440.

والقرض كناية عن قهر النفس على طاعة الله في العمل والإنفاق في سبيله[1]، ووصف القرض بالحسن لأجل الترغيب في العمل للآخرة وتعظيم استحقاقها[2].

والقرض الحسن هو ((الإنفاق في سبيله، شبه ذلك بالقرض على سبيل المجاز لأنه إذا أعطى ماله لوجهه فكأنه أقرضه إياه))[3].

وفائدة إجراء الكلام على طريقة الاستفهام لأن الترغيب في الدعاء إلى الفعل يكون أقرب من ظاهر الأمر في الإقبال عليه[4].

ومحل الشاهد هو (قل) فهو مصدر من القلة والقليل فهو أورده الإمام ليس من أجل مقابلته إيقاعيا بـ (ذل) فحسب، بل من أراد به نوعا من القلة لأن ((القل من الشيء: أقله))[5].

وجاء في الحديث النبوي الشريف عن الربا: ((إنه وإن كثر فهو إلى قل))[6] أي هو محوق البركة ولو كثر[7].

والغريب أن ابن فارس في معجمه ذهب إلى أن المقصود بالقلة ليست نزارة الشيء بل ((ما أقله الإنسان من جرة أو حب))[8].

---

(1) ينظر: غريب الحديث، ابن سلام: 4/ 92، الفايق، الزمخشري: 3/ 121 .

(2) ينظر: حقائق التأويل، الشريف الرضي: 264 .

(3) الكشاف، الزمخشري: 4/ 63 .

(4) ينظر: التفسير الكبير، الرازي: 6/ 179 .

(5) تاج العروس، الزبيدي: 15/ 628.

(6) الفائق في غريب الحديث 3/ 121.

(7) المصدر نفسه.

(8) معجم مقاييس اللغة، ابن فارس: 5/ 3 .

ومما جاء على هذه الصيغة في مصادر اللغة قولهم: ((هو قـل بـن قـل، إذا كان لا يعرف هو ولا أبواه)) (1).

واستعمل هذا المصدر (قل) في موضع آخر من نهج البلاغة في قولـه عليـه السلام وقد سئل عن قول الرسول صـلى الله عليـه وسـلم "غـيروا الشـيب ولا تشبهوا باليهود" فقال عليه السلام: إنما قال صلى الله عليه وآله ذلك والدين قل، فأما الآن وقد اتسع نطاقه وضرب بجرانه فامرؤ وما اختار)).(2) فالمقصود بالقلـة في الدين قلة في ضعف كون الإسلام طري العود بعد ن ويؤيده قولـه الأخـير في زيادة قوة الدين واتساع نطاقه.

ومن صيغ المصادر النادرة الاستعمال الدالة على النوعية قوله عليه السلام في وصف الفتنة بأنها: ((تبدأ في مدارج خفية، وتؤول إلى فظاعـة جليـة. شـبابها كشباب الغلام)) (3). فشباب بكسر أوله مصدر تـوخى منـه نوعـا مـن الشـباب الموحي بالبدء والحماسة والقوة.

ثانيا: الهيأة

وهي دلالة ثانية للصيغ النادرة الاستعمال في نهج البلاغة، وقد جـاءت في مواضع قليلة وعلى وزن واحد هو (فعلة) بكسر الفاء، وصـيغة المصـدر (فِعلَـة) يؤتى بها للهيأة، كقتلة إذا كانت قتلة سوء أو ما شـابه وضـربة وغيرهـا، فتكـون موصوفة أو دالة على صفة مذكورة أو معلومة بقرينة الحال (4).

(1) الصحاح، الجوهري: 5/ 1804 .

(2) نهج البلاغة: 4/ 5.

(3) نهج البلاغة: 2/ 37.

(4) ينظر: شرح الرضي على الشافية: 1/ 181، معاني الأبنية في العربية، السامرائي: 72.

فيصاغ من الثلاثي المجرد (فِعلَة) مصدرا للهيأة فتقول: (وقِفة، جِلسة، ركِبة) [1]. ولا يوجد نظير هذا الوزن للدلالة على الهيأة في جميع اللغات السامية كما يذكر الدارسون. [2]

وجاءت فعلة صيغة للجمع في ألفاظ سمعت من العرب، ولعدم اطرادها في الجمع جعلت اسم جمع [3]، نحو شيخ وشيخة، جار وجيرة، ثور وثيرة، وقاع وقيعة.

ومما ورد منها:

لفظة (نِبتة، خِضمة)

كقوله عليه السلام: ((إِلَى أَنْ قَامَ ثَالِثُ اَلْقَوْمِ نَافِجاً حِضْنَيْهِ بَيْنَ نَثِيلِهِ وَمُعْتَلَفِهِ وَقَامَ مَعَهُ بَنُو أَبِيهِ يَخْضَمُونَ مَالَ اَللَّهِ خِضْمَةَ اَلْإِبِلِ نِبْتَةَ اَلرَّبِيعِ)). [4]

والشاهد في استعماله (خضمة و نبتة)، وقد أراد بها الإمام الشكل والهيأة، لأن السياق صور أحوال هؤلاء المنهومين على السلطة بأنهم يأكلون بنهم بكل الفم بدلالة الفعل (خضم) التي تعني الأكل بكل الأضراس التي تتناقض مع الفعل (قضم) التي تعني الأكل بأطراف الأسنان، وهو فعل حاد عنه الإمام، لأنه لا يلبي المعنى الذي ينشده في تصوير التكالب على أكل مال المسلمين الذي سماه ((بمال الله تعبيرا عن شدة حرمته، وصور طريقة أكله بطريقة أكل البهائم الجائعة لنبتة الربيع بعد شدة القحط. لذلك أسند إلى الخضم الأكل الرطب، وإلى القضم

(1) ينظر المهذب: 304، المنهج الصوتي: 111.

(2) ينظر: التطور النحوي: 67، معاني الأبنية في العربية: 38.

(3) ينظر: شرح ابن عقيل: 3/ 133 ، المهذب: 186.

(4) نهج البلاغة: 33.

الأكل اليابس، لذلك اسند الإمام إلى الخضم لفظة النبتة. كما أن لفظة (نبتة) أوردها الإمام قاصدا بها الهيأة، وهي ما يتناسب وصورة الإسلام الغض الطري العود، قال أبو ذر رضي الله عنه: ((..إن بني أمية يخضمون و نقضم و الموعد لله)) (1).

وهو مأخوذ من قول النبي (ﷺ): ((يخضمون و نقضم و الموعد لله)) (2).

وهكذا نجد أن الإمام قد استغل الألفاظ والصيغ أيما استغلال مفجرا لطاقاتها التعبيرية ليصور دنيء فعل القوم وبشاعته ((وما أحسن وألطف تشبيهه عليه السلام صنيع بني أمية في مال الله بخضم الإبل أو هضمه نبت الربيع، حيث يستفاد من الخضم أنهم كانوا يأكلون مال الله بملء أفواههم فيفرغون في بطونهم بلا مهلة، إذ نبت الربيع لرقته ولينة لا فصل بين وضعه في الفم وبلعه)) (3).

لقد استغل الإمام الطاقة التعبيرية لصيغة فعلة لتعضيد الصورة السابقة لأن خضمة دلت على نوع الخضم وهيأته سيما بعد أن أضيفت إلى ما بعدها، وكذلك نبتة يستشف منها نوع النبات الربيعي الذي يتصف برقته وطراوته لذا فالحيوان يأكل بكل فيه وكأنه يبتلعه لا يمضغه سيما وأن نبات الربيع جاء بعد أن محلت الأرض من الشتاء اظهارا للهفة.(4)

لفظة (قِعْدَة)

ووقعت هذه اللفظة في نهج البلاغة مرة واحدة على هذه الصيغة، وذلك

(1) الجاحظ، البخلاء: 69، شرح نهج البلاغة، ابن أبي الحديد: 35/ 13.

(2) معجم مقاييس اللغة، ابن فارس: 2/ 193.

(3) نهج السعادة، الشيخ المحمودي: 2/ 360.

(4) ينظر: شرح نهج البلاغة،الحائري: 20/ 116، منهاج البراعة: 1.

في كتاب للإمام عليه السلام إلى أبي موسى الأشعري عامله على الكوفة و قد بلغه عنه تثبيطه الناس عن الخروج إليه لما ندبهم لحرب أصحاب الجمل: ((...وَايْمُ اللَّهِ لَتُؤْتَيَنَّ مِنْ حَيْثُ أَنْتَ وَ لاَ تُتْرَكُ، حَتَّى يُخْلَطَ زُبْدُكَ بِخَاثِرِكَ وَذَائِبُكَ بِجَامِدِكَ، وَحَتَّى تُعْجَلُ عَنْ قِعْدَتِكَ..)) [1].

وقد استعمل الإمام عليه السلام (قعدة) على وزن فعلة بكسر الفاء، ليدل بها على هيأة ما لقعود أبي موسى، ويرى ابن أبي الحديد أن قول الإمام (وليعجلنك الأمر عن هيئة قعودك) وصفا لشدة الأمر و صعوبته [2].

ويبدو للباحث أن استعمال الهيأة هنا جاء للدلالة على التهكم من أداء عامله على الكوفة في مثل هذه الأجواء التي عاشتها الأمة الإسلامية.

ثالثا: التكثير والمبالغة

وأعني بها الصيغ القليلة الاستعمال في مصادر الوزن (تفعال) بفتح التاء وأخرى بكسرها، ومن الأول جاءت في خمسة مصادر (تهمام، تركاض، تجوال، ترحال، تلعابة)، ويؤتى بهذه الصيغة المصدرية لتكثير المصدر [3]. وفيما يأتي شرحها مفصلا.

قال الإمام (ﷺ) من خطبة حث فيها على الجهاد وذم المتقاعسين ((... قَاتَلَكُمُ اَللَّهُ لَقَدْ مَلَأْتُمْ قَلْبِي قَيْحاً وَ شَحَنْتُمْ صَدْرِي غَيْظاً وَ جَرَّعْتُمُونِي نُغَبَ اَلتَّهْمَامِ أَنْفَاساً..)) [4]، وفي اللسان: ((الهَمُّ من الحُزْن والهَمُّ مَصْدَرُ هَمَّ

---

(1) ينظر: نهج البلاغة 3/ 122.

(2) ينظر: شرح نهج البلاغة،ابن أبي الحديد: 17/ 248.

(3) ينظر: لسان العرب: 5/ 249 (هتر)، تاج العروس: 1/ 212 (شرب).

(4) ينظر: منهاج البراعة، الخوئي: 222/ 4، منهاج البراعة في شرح نهج البلاغة 1.

الشَّحمَ يَهُمُّه إِذا أَذابَه والهَمُّ مصدر هَمَمْت بالشيء هَمّاً والهِمُّ الشيخ البالي)) [1]، ولما كان التهمام بهذه الخطبة بمعنى الهم كما ذكر [2]، فلماذا جاء الإمام بهذه الصيغة ولم يقل نغب الهم؟، والجواب واضح فيما ذكره أهل اللغة من أن المصدر يؤتى به على هذه الصيغة لغرض التكثير لفعل المصدر لإظهار مقدار الألم الذي ألحقوه بالإمام علي، ولا ننسى القول أن استعمال هذه الصيغة من المصدر آنف الذكر نادر والمتتبع للمعجم العربي يجد ذلك.

وعلى هذه الصيغة جاء المصدر (تركاض وتجوال) في نهج البلاغة في كتابه إلى أخيه عقيل: ((فدع عنك قريشا و خلهم وتركاضهم في الضلال وتجوالهم في الشقاق)) [3]، وقد عدل الإمام إلى هذه الصيغة ليدلل على تكالب القوم وتسابقهم على قتاله، مستغلا الطاقة التعبيرية لهذه الصيغة، التي وضح من خلالها كيف تكالب القوم عليه متسارعين ومضطربين في ذلك، ومذ أن نادى به النبي(ﷺ) وليا وإماما، كل ذلك يستلهم من صيغة تفعال في البنيتين.

ومما جاء على صيغة تفعال (الترحال) في قوله عليه السلام: ((ألا إنه قد أدبر من الدنيا ما كان مقبلا، وأقبل منها ما كان مدبرا، وأزمع الترحال عباد الله الأخيار، وباعوا قليلا من الدنيا لا يبقى، بكثير من الآخرة لا يفنى!)) [4]، مشيرا إلى اقتراب الساعة، ومحضا أهلها على الاستعداد للرحيل إلى دار الآخرة، ذاماً من تمسك بها وباع قليلها الذي لا يبقى بكثير من الآخرة لا يفنى، وقد ورد

---

(1) لسان العرب: 12/ 619 (همم).

(2) ينظر: شرح نهج البلاغة، ابن أبي الحديد: 81/ 6، بهج الصباغة، التستري: 22.

(3) نهج البلاغة 143.

(4) نهج البلاغة 89.

الحديث عن (أزمع الترحال) ((أي ثبت عزمهم عليه، يقال: أزمعت الأمر، ولا يقال: أزمعت على الأمر، هكذا يقول الكسائي، وأجازه الخليل والفراء))[1]. من دون أن نجد حديثا عن المصدر الترحال ودلالته وطاقته التعبيرية التي تفوق طاقة المصدر الرحيل، لأن الإمام عليه السلام أراد أن يعبر عن رحيل الدنيا بأقصى طاقة تعبيرية ممكنة انسجاما مع ما يناسب المقال.

وفي صيغة أخرى قوله عليه السلام من خطبة له في ذكر عمرو بن العاص: ((عجبا لابن النابغة، يزعم لأهل الشام أن فيّ دعابة، وأني امرؤ تلعابة، أعافس وأمارس، لقد قال باطلا ونطق آثما))[2]. والنابغة المشهورة من النساء فيما لا يليق، والشاهد فيه (تلعابة) وتعني الكثير اللعب[3]، والمصدر منه (تَلعاب) ينطق أوله بالفتح. وهي ((صيغة تدل على التكثير))[4].

ومن العجيب حقا أن يتجرأ هؤلاء على الإمام بهذه التهم الرخيصة التي تنم عن حقارة الطبع وقدرة الافتراء التي نبه إليها الإمام بقوله بدءا (يزعم) التي تدل على القول المدعى بلا تحقيق. وقد رد المأثور العربي ذلك، فأصبح يقال: ((هو في السلم تلعابة، وفي الحرب ترعابة))[5].

واستعملت صيغة (تفعال) بكسر أوله مرة واحدة في نهج البلاغة، وذلك في لفظة (تبيان)، وقيل: ((كلُّ ما ورَدَ عن العرب من المصادر على تَفعال فهو

(1) شرح نهج البلاغة، ابن أبي الحديد: 10/ 101.
(2) نهج البلاغة 31.
(3) ينظر: الفايق، الزمخشري: 3/ 203.
(4) لسان العرب، ابن منظور: 1/ 740.
(5) تاج العروس، الزبيدي: 2/ 25 .

بفتح التّاءِ إِلاّ لفظتينِ: تِبْيَان وتِلْقَاء. وقال أَبو جعفر النّحّاسُ في شرح المُعلّقَـات: ليس في كلام العرب اسمٌ على تِفعالٍ إِلاّ أَربعة أَسماءٍ وخامسٌ مختلَف فيه يقـال تِبْيَان ولقِلادةِ المرأَةِ: تِقْصَارُ وتِعْشَارٌ وتِبْرَاك مَوضعانِ والخامس تِمساح)) [1].

وهي لا شك لفظة قرآنيـة اسـتعملها الإمـام مـن شـدة ذوبانـه في التعـبير القرآني على الجملة.

قال أمير المؤمنين عليه السلام في وصفه لكتـاب الله عـز وجـلّ: "ثـم أنـزل عليه الكتاب نورا لا تطفأ مصابيحه، وسـراجا لا يخبـو توقـده، وبحـرا لا يـدرك قعره، ومنهاجا لا يضل نهجه، وشعاعا لا يظلم ضوؤه، وفرقانا لا يخمد برهانـه، وتبيانا لا تهدم أركانه وشفاء لا تخشـى أسـقامه...)) [2]. فقـد اسـتعمل للدلالـة على معنى البيـان، متـأثرا بقولـه تعـالى: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴾[3]. ترى لماذا وردت لفظة التبيان بهـذه الصـيغة في الآية المباركة، وفي نص الإمام عليه السلام، ولماذا لم يستعمل المصدر بيان بدلا عنه؟ نرى أن بعض اللغويين وبعض المفسرين لم يقولوا بالفرق بين الصيغتين فقد ((روى الواحدي بإسناده عن الزجاج أنه قال تبياناً في معنـى اسـم البيـان ومثـل التبيان التلقاء وروى ثعلب عن الكوفيين والمبرد عن البصريين أنهم قالوا لم يـأت من المصادر على تفعل إلا حرفان تبياناً وتلقاء وإذا تركت هذين اللفظين استوى لك القياس فقلت في كل مصدر تفعال بفتح التـاء مثـل تسـيار وتـذكار وتكـرار وقلت في كل اسم تفعال بكسر التاء مثل تقصار وتمثال)) [4]، يعني أن تبيان اسـم للمصـدر بيـان، لا يختلـف عنـه في الدلالـة، يقـول الطوسـي والتبيـان والبيـان

---

(1) تاج العروس 1/ 1747 (مسح).

(2) نهج البلاغة: 108.

(3) النحل: 89.

(4) مفاتيح الغيب، الرازي: 20/ 80.

واحد[1]. كما أقر بذلك الطبرسي متبعا ما ذكره الأزهري إذ قال: العرب تقول بينت الشيء تبيينا و تبيانا [2].

إذا كان الأمر سيان كما تقدم، فإن استعمال صيغة بدل الأخرى ترجيح بلا مرجح، مع ((إن التعبير القرآني تعبير فني مقصود. كل لفظة بل كل حرف فيه وُضع وضعا فنيا مقصودا، ولم تُراع في هذا الوضع الآية وحدها ولا السورة وحدها بل رُوعي في هذا الوضع التعبير القرآني كله)) [3]، إلا أن سيبويه يرى أن التبيان ((ليس ببناء مبالغة، وإلا انفتح تاؤه، بل هو اسم أقيم مقام مصدر بين، كما أقيم غاره وهي اسم مقام إغارة في قولهم: أغرت غارة، ونبات موضع إنبات، وعطاء موضع إعطاء، في قولهم: أنبت نباتا، وأعطى عطاء قالوا: ولم يجئ تفعال- بكسر التاء- إلا ستة عشر اسما: اثنان بمعنى المصدر، وهما التبيان والتلقاء)) [4].

وإذا لم يرد في التبيان معنى المبالغة مثلما أريد بصيغ تَفعال فلماذا لم يستعمل المصدر بيان وهو أكثر اختصارا؟ وتأسيسا على قاعدة أن الزيادة في المبنى تؤدي إلى زيادة في المعنى، فلا بد من أن تكون زيادة في هذه الصيغة لغرض التعظيم والمبالغة، لذلك نجد أن الزمخشري قد لمح لها حين فسر هذه الكلمة في الآية آنفة الذكر إذ قال: (((تِبْيَانًا) بياناً بليغاً ونظير)) [5]، أو لغرض الاستمرارية في البيان، ولتوضيح ذلك نقول: ما لغرض التعظيم والمبالغة فلأن

(1) ينظر: التبيان، الطوسي: 6/ 413.

(2) ينظر: مجمع البيان، الطبرسي: 6/ 168.

(3) التعبير القرآني، فاضل السامرائي: 10.

(4) شرح شافية ابن الحاجب، رضي الدين الأسترابادي: 1/ 167.

(5) الكشاف، الزمخشري 2/ 586، وينظر: تفسير أبو السعود: 5/ 135، تفسير البيضاوي: 3/ 416، الفتح القدير: 3/ 187.

(تِفعال) و(تَفعال) واحد أي إنهما مصدران، وذلك لكون نـدرة الصـيغة بكسـر التاء واطرادها بفتح التاء، يضاف إلى ذلك ما ذكره الزبيدي من أنه ((لا قائـل في تبيان انه اسم مصدر))[1] فالقول بأنـه مصـدر دل علـى المبالغـة، وأمـا لغـرض الاستمرارية في البيان فلأن اسم المصدر إذا قلنا أنه اسم مصدر أو اسم عين، لأن الأسماء تدل على الاستمرارية كما هو معلوم. واسم الاسم أكثر اسـتمرارا مـن الاسم، وان كنا نرى أن الجمع أولى لعدم تعارضه ولانسـجامه مـع سـياق الآيـة المباركة، ولهذا نجد أن الإمام قد كان واعيا لهذا المعنى.

وكذا لفظ (الفرقان) فقد جاءت وصفا للكتاب العزيـز للمبالغـة في شـدة تفريقه بين الحق والباطل. وهي أيضا من ألفاظ القرآن الكـريم نحـو قولـه تعـالى: ﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا ﴾[2]. ومـن صـيغ المبالغـة قولـه عليه السلام في وصف الفتن: ((مرعـاد مـبراق، كاشـفة عـن سـاق))[3]. فهـذه مصادر تدل على المبالغة في الشدة والكثرة في الرعد والفتن، وقوله الأخير كنايـة عن الهول والشدة. وهي من قوله تعالى: ﴿ يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴾[4].

رابعا: التوازن

هو سمة ايقاعية في نهج البلاغة يتوخاه التعبير الفـني فيـه، ولاسـيما حـين يأتي نتاجا ثانويا عن المعنـى، نتيجـة للشـاعرية الـتي عـرف بهـا الإمـام (ﷺ) في كلامه.

(1) تاج العروس، الزبيدي: 10/ 330.
(2) الفرقان: 1.
(3) نهج البلاغة: 69.
(4) القلم: 42

ودلالة التوازن تحقق سمات التأثير في المتلقي ورسوخ الفكـرة في الـذهن، وله أساليب كثيرة في نهج البلاغة مثل التقابل وتوازن الفقـرات السـجعية وغـير السجعية، ولكن هذه المرة جـرى مـن خـلال الأبنيـة النـادرة بأسـلوب المصـادر الميمية، فما المصادر الميمية؟ وما أساليب استعمالها؟

لو رجعنا إلى ما قاله الصرفيون في الفرق بين المصدر والمصدر الميمي، فإننـا لا نكاد نجد أنهم قد فرقوا في المعنى بينهما، ((وإنما تجدهم يفسرون الأخير بمعنى الأول، والمعروف أن العرب لم تكن لتزيد في بنية الكلمة شـيئا إن لم يكـن هنـاك معنى زائد على الأصل)) [1]. ولما كان المصدر عند الصـرفيين اسمـا يـدل علـى الحدث مجردا[2]، أما المصدر الميمي فهو مصدر متلبس بذات في الغالب، وهـو في كثير من التعبيرات يحمل معنى لا يحمله المصدر غير الميمي [3]، فإن هـذا يعـني أن هناك فرقا بينهما في المعنى.

إن المصدر الميمي أكثر ما يكون شبها باسم المصـدر، ((إذ مـدلول المصـدر الحدث، ومدلول اسم المصدر لفظ المصدر من حيث معناه، حتى أُطلق على اسم المصدر لفظ (اسم العين) فالعطاء لـيس كمثـل إعطـاء، إذ يحمـل في معنـاه ذاتـا معطاة)) [4]. وإن كان هناك من فرق بين اسم العين واسم المصدر[5].

(1) دقائق الفروق اللغوية، محمد الدوري: 232 .

(2) ينظر: معاني الأبنية في العربية، 34.

(3) ينظر: معاني الأبنية في العربية، 34.

(4) دقائق الفروق اللغوية، محمد الدوري: 232 .

(5) ينظر: مجمع البحرين، الشيخ الطريحي: 4/ 69.

وفي نهج البلاغة ثمة أسلوب مطرد في التعبير بالمصادر الميمية، إذ غالبا ما يأتي لالتماس التوازن بين الفقرات في الكلام، مما يسبغ عليه مزيدا من المؤثرات الفنية ولاسيما الإيقاعية التي تستلذها النفس وتميل إليها، وتقبل عليها الأسماع أكثر، الأمر الذي يحقق غايتين: الإبلاغ والتأثير وهما غاية الخطيب، فالخطابة تعني فن الإقناع [1] وهو لا يكون بدونهما.

والأمثلة على ذلك كثيرة، نحو قوله عليه السلام لابنه محمد بن الحنفية: ((يا بني إني أخاف عليك الفقر، فاستعذ بالله منه، فإن الفقر منقصة للدين، مدهشة للعقل)) [2]. فما بين (منقصة ومدهشة) توازن موسيقي محبوب بين الفقرات لافت للانتباه.

وقوله: ((عباد الله، إنه ليس لما وعد الله من الخير مترك، ولا فيما نهى عنه من الشر مرغب)) [3]. ومترك ومرغب مصدران ميميان أسبغا على الكلام ثراء إيقاعيا يستسيغه السامعون، لاسيما حين يأتي في الأسلوب الخطابي المباشر الذي تشير إليه جملة النداء (عباد الله).

ومثله قوله عليه السلام ناصحا: ((واعلموا أن يسير الرياء شرك، ومجالسة أهل الهوى منساة للإيمان. ومحضرة للشيطان. جانبوا الكذب فإنه مجانب للإيمان. الصادق على شرف منجاة وكرامة. والكاذب على شفا مهواة

(1) الخطابة، أرسطو: 9.

(2) نهج البلاغة: 4/ 76.

(3) نفسه: 2/ 52.

ومهانة))[1]. ففضلا عن ثبات المعنى في المصادر المبتدئة بحرف الميم، نلحظ سيادة الشاعرية باستعمال هذا الأسلوب الفني العفوي الذي يدل على احتراف منقطع النظير لاستعمالات اللغة ومعرفة الإفادة من مكامن طاقتها. فقد وازن بين (منسأة ومحضرة) وبين (منجاة ومهواة).

وهو أيضا يجيء ضمن الخطاب الشفاهي وأعني به الخطب لما له من تأثير بين على السامعين ومن هنا يفهم توخيه لأن الغاية من ذلك كله ليست الإيقاع النغمي بل الإقناع.

ومن خطبة له عليه السلام جاء قوله عليه السلام لما غلب أصحاب معاوية أصحابه عليه السلام على شريعة الفرات بصفين ومنعوهم من الماء: ((قد استطعموكم القتال، فقروا على مذلة، وتأخير محلة))[2]. فهذا اللون من التعبير الفني أدعى إلى إلهاب الحمية في النفس وبث الحماسة فيها. ولاحظ كيف يستفز الإمام فيهم ما ذكرنا بقوله بأسلوب الأمر المجازي (فقروا).

وقد يعمد الإمام في تعبيراته بهذا الأسلوب إلى الميل إلى بناء الفعل على وزن (مفعل ومفعلة) وجمعهما لتحقيق مزيد من الثراء الموسيقي اللافت للانتباه، وهو ثراء ناتج عن المعنى بشكل لصيق كما نؤكد دائما، مثل قوله في ذكر الرسول صلى الله عليه وآله: ((مستقره خير مستقر. ومنبته أشرف منبت. في

(1) نفسه: 1/ 150-151.

(2) نهج البلاغة: 1/ 100.

معادن الكرامة، ومماهد السلامة)) [1]. فقد جاء بالجمع (معادن ومماهد) التماسا للتوازن على الرغم من أن هذا الجمع (مماهد) ليس مفرده ممهد.

ومن خطبة له عليه السلام قال: ((واتقوا مدارج الشيطان ومهابط العدوان)) [2].

وقال في موضع آخر: ((وأحمد الله وأستعينه على مداحر الشيطان ومزاجره)) [3].

وقوله: ((ولكن الله يختبر عباده بأنواع الشدائد، ويتعبدهم بأنواع المجاهد، ويبتليهم بضروب المكاره إخراجا للتكبر من قلوبهم، وإسكانا للتذلل في نفوسهم)) [4].

فالألفاظ (مدارج، مهابط، مداحر، مزاجر، مجاهد) كلها صيغ لمصادر ميمية على وزن (مفعل ومفعلة) جمعت بأوزان واحدة، وحققت موازنات نغمية ميزت كلام أمير المؤمنين عليه السلام كثيرا عن غيره في أسلوب الخطابة بشكل خاص.

وهو أسلوب يأتي بشكل منساب، لا قهر فيه للمعاني على الألفاظ، يتخذ منه الإمام وسيلة للإقناع حتى في احتجاجاته فمن ((كلام له عليه السلام كلم به بعض العرب، وقد أرسله قوم من أهل البصرة لما قرب عليه السلام منها،

---

(1) نفسه: 1/ 41.
(2) نفسه: 2/ 39.
(3) نفسه: 2/ 37.
(4) نفسه: 2/ 100.

ليعلم لهم منه حقيقة حاله مع أصحاب الجمل، لتزول الشبهة من نفوسهم، فبين له عليه السلام من أمره معهم ما علم به أنه على الحق، ثم قال له: بايع، فقال: إني رسول قوم ولا أحدث حدثا حتى أرجع إليهم. فقال عليه السلام: أرأيت لو أن الذين وراءك بعثوك رائدا تبتغي لهم مساقط الغيث فرجعت إليهم وأخبرتهم عن الكلأ والماء، فخالفوا إلى المعاطش والمجادب ما كنت صانعا؟ قال: كنت تاركهم ومخالفهم إلى الكلأ والماء. فقال عليه السلام فامدد إذا يدك. فقال الرجل: فو الله ما استطعت أن أمتنع عند قيام الحجة علي، فبايعته عليه السلام. والرجل يعرف بكليب الجرمي)). [1]

فهذه قدرة فطرية على التصرف باللغة بتحويل الفعل إلى مصدر ميمي، ثم جمعه في عمليات ذهنية آنية سريعة لصناعة جمل فنية (مساقط الغيث، المعاطش والمجادب) وغيرها الكثير من الأدوات والتقنيات اللغوية الفنية.

---

(1) نهج البلاغة: 2/ 82-83.

الخلاصة والنتائج

بان مما سبق من البحث أن للإمام علي (ﷺ) أسلوبه المميز في استعمال الأبنية النادرة من المصادر، لتوخي أربع دلالات في تعبيراته بها هي: النوعية والهيأة والتكثير والتوازن. ويمكن حصر النتائج التي توصل إليها البحث بما يأتي:

أولا:

أن تحديد ألفاظ المصادر النادرة خضع إلى معايير القلة والندرة في الاستعمال العربي بحسب ما أكدته المصادر اللغوية والاستعمال العربي.

ثانيا:

إن تحديد دلالة الأبنية النادرة تم على اساس أربعة أهداف هي النوعية والهيأة والتكثير والمبالغة.

ثالثا:

اتسم أسلوب الإمام في التماس التوازن الإيقاعي في تعبيراته باستعمال المصادر الميمية وجمعها على وزن مفعل ومفعلة، وهو أسلوب شمل الفن الخطابي بشكل خاص كونه يعتمد على السماع والتأثير.

المصادر

ـ القرآن الكريم

- الأثر القرآني في نهج البلاغة، الدكتور عباس علي الفحام، مطبعة الرافدين، الطبعة الأولى، بيروت - 2010م.

- الاستيعاب، ابن عبد البر، تحقيق:علي محمد البجاوي، الطبعة الأولى، 1412، مطبعة دار الجيل- بيروت. - بهج الصباغة في شرح نهج البلاغة، محمد تقي التستري.دار أمير كبير للنشر، طهران، الطبعة الأولى- 1376هـ.

ـ تاج العروس من جواهر القاموس، محمد مرتضى الزبيدي (ت1205هـ)، دار الفكر، بيروت - 1994م.

- التبيان في تفسير القرآن. أبو جعفر الطوسي (ت460هـ).تحقيق:أحمد حبيب القصير، المطبعة العلمية - النجف الأشرف، 1957م.

- التصوير الفني في خطب الإمام علي (عليه السلام). عباس علي الفحام. (رسالة ماجستير)، كلية التربية للبنات، جامعة الكوفة 1999م.

- التطبيق الصرفي، الدكتور عبده الراجحي، الطبعة الأولى، دار المسيرة، الأردن، 2003.

- التطور النحوي للغة العربية، برجشتراستر، ترجمة الدكتور رمضان عبد التواب، مطبعة المجد.

- التعبير القرآني، الدكتور فاضل السامرائي. بيت الحكمة – جامعة بغداد 1987م.

ـ تفسير أبي السعود (إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم)، محمد بن محمد بن مصطفى الحنفي (ت 951هـ).وضح حواشيه عبد اللطيف عبد الرحمن، الطبعة الأولى - 1999م، دار الكتب العلمية ـ بيروت.

- تفسير البيضاوي، البيضاوي (ت682هـ)، مطبعة دار الفكر- بيروت.

ـ التفسير الكبير (أو مفاتيح الغيب)، فخر الدين محمد بن عمر الرازي (ت606هـ)، المطبعة البهية- مصر، بدون تاريخ

- حقائق التأويل في متشابه التنزيل. الشريف الرضي، شرحه الأستاذ محمد الرضا آل كاشف الغطاء، دار المهاجر للطباعة والنشر والتوزيع.

- الخطابة. أرسطو طاليس. ترجمة عبد الرحمن بدوي، مطبعة لجنة التأليف والنشر، القاهرة 1959م.

- دقائق الفروق اللغوية. الدكتور محمد ياس الدوري، دار الكتب العلمية، بيروت- لبنان، الطبعة الأولى 2006م.

- شرح ابن عقيل، بهاء الدين الهمداني (ت769هـ)، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، الطبعة الرابعة عشر، مطبعة المكتبة التجارية – مصر، 1964م.

- شرح شافية ابن الحاجب، للاسترابادي النحوي (ت686هـ)، تحقيق: محمد نور الحسن ومحمد الزفزاف ومحمد محيي عبد الحميد. دار الكتب العلمية، بيروت- 1975م.

ـ شرح نهج البلاغة، ابن أبي الحديد المدائني (ت 656 هـ).تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء التراث العربي، القاهرة، 1959م.

ـ شرح نهج البلاغة، ميثم بن علي بن ميثم البحراني (ت 679هـ). (المصباح شرح الكبير) مطبعة خدمات، الطبعة الثانية، طهران 1404 هـ.

- الصحاح، الجوهري (ت393هـ)، تحقيق: أحمد عبد الغفور العطار، الطبعة الرابعة- 1987م، دار العلم للملايين - بيروت - لبنان.

- غريب الحديث، أبو عبيد القاسم بن سلاّم الهروي (ت 224هـ)، طبع تحت مراقبة: محمد عبد المعيد خان، الطبعة الاولى، مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية، حيدر آباد - الدكن 1384هـ-1965م.

- فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير، محمد بن علي الشوكاني (ت1250هـ)، مطبعة عالم الكتب.

- الفائق في غريب الحديث، أبو القاسم، جار الله محمود بن عمر الزمخشري (ت 538 هـ)، تحقيق: عليّ محمد البجاوي ومحمد ابو الفضل ابراهيم، الطبعة الاولى، القاهرة دار احياء الكتب العربية - عيسى البابي 1364هـ-1945م.

- فنون الأدب، هـ. ب. تشارلتن، ترجمة: زكي نجيب محمود،، القاهرة 1945م.

- في ظلال نهج البلاغة، محاولة لفهم جديد، محمد جواد مغنية. دار العلم للملايين، الطبعة الأولى، بيروت 1972م.

- الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التنزيل. جار الله محمود بن عمر الزمخشري (ت 538هـ). مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر، 1966م.

- لسان العرب، جمال الدين محمد بن مكرم بن منظور المصري (ت 711هـ). دار صادر ودار بيروت، لبنان - 1955م.

- مجمع البحرين، الشيخ الطريحي (ت1085هـ)، تحقيق: السيد أحمد الحسيني، الطبعة الثانية، مكتب النشر للثقافة الإسلامية- 1408هـ.

- مجمع البيان في تفسير القرآن، الفضل بن الحسين الطبرسي (ت 548هـ). حقق وعلق عليه: لجنة من العلماء والمثقفين، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، 1415هـ - 1995م.

- معاني الأبنية في العربية، الدكتور فاضل السامرائي. ساعدت جامعة بغداد على نشره الطبعة الأولى (1401هـ - 1981م).

- مفهومات في بنية النص، ترجمة الدكتور وائل بركات، الطبعة الأولى، دار معد للطباعة والنشر والتوزيع، سوريا، 1996.

- مقاييس اللغة، أبو الحسين احمد بن فارس بن زكريا (ت 395هـ) تحقيق عبد السلام محمد هارون، دار احياء الكتب العربية، عيسى البابي الحلبي وشركاه، الطبعة الاولى - القاهرة 1366هـ.

- منهاج البراعة في شرح نهج البلاغة، حبيب الله الخوئي، طهران، المكتبة الإسلامية، الطبعة الرابعة- 1405هـ.

- المنهج الصوتي للبنية العربية، رؤية جديدة في الصرف العربي، الدكتور عبد الصبور شاهين، مؤسسة الرسالة، بيروت.

- المهذب في علم التصريف، الدكتور هاشم طه شلاش، وآخرون، مطبعة التعليم العالي، الموصل.

- نهج البلاغة، محمد عبده، مطبعة بابل- بغداد 1984م.

- نهج السعادة في مستدرك نهج البلاغة، الشيخ محمد باقر المحمودي، عن المكتبة الشاملة.

تم بحمد الله